العون الكبير

شرح

الفوز الكبير

سعید احمد البالنپوری
خادم الحدیث الشریف بدار العلوم دیوبند

مکتبہ حجاز دیوبند

من أراد علمَ الأولين والآخِرين فليتدبَّر القرآن

العَوْنُ الكَبِير

شرح

الفَوْزُ الكَبِير

فى

اُصُوْلُ التَفْسِير

للعبد الفقير إلى فضل ربه القدير

سعيد احمد البالن بوري

خادم الحديث الشريف بدار العلوم ديوبند

الناشر

مكتبه حجاز ديوبند

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـدمـة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ،ونَسْتَهْديه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، وأشهد أن سيِّدنا محمدًا عبده ورسوله، أما بعد: فقد صنَّف الإمام الأكبر، مُسْنِد الديار الهندية، الشيخ أحمد ولى الله بن الشيخ عبد الرحيم الدِّهْلوى، من أعيان القرن الثانى عشر، كتابا موجَزًا مختصرًا، لطلبة العلوم الإسلامية، بلغة مَحَلِّيَّةٍ فارسية، وسمَّاه بالفوز الكبير فى أصول التفسير. وكان رحمه الله يدرِّس بدوره فى حياته، ثم بعده يدرَّس فى المعاهد الدينية بالهند؛ لأن الكتاب وإن كان صغير الحجم، قليلَ الأوراق، ولكنه أجدى من تفاريق العصا، وأنفع من الغيث فى أوانه.

ولنذكرهنا قصة الشيخ العلامة عبيد الله بن الإسلام السندى رحمه الله (١٢٨٩- ١٣٦٣هـ)فإنه استشار شيخَه المحدث الكبير: محمود حسن الديوبندى، شيخَ الهند وزعيم الحرية(١٢٦٨- ١٣٣٩هـ)أن يُرشده إلى كتاب فى أصول التفسير، فأومأ الشيخ إلى " الإتقان فى علوم القرآن" للإمام السيوطى، قال:فطالعتُه مرارًا، فلم أجد فيه بُغيتى، وأيقنتُ أن ليس وراءَه كتاب أفيدُ منه، وأَيِسْتُ من فهم القرآن.

وبعد مدة ذكرالشيخ محمود حسن لتلميذه هذا الكتاب، فقال: إن لمولانا شاه ولى الله أيضًا رسالة فى أصول التفسير، قال العلامة السندى: فطالعتها، فوجدت فيها ضالَّتى، وظفرتُ ببغيتى، وحصل لى القدرة على فهم القرآن الكريم (شاہ ولی اللہ اور ان کا فلسفہ ص ۴۸)

ترجمته العربية

ومضى على تصنيفه زمن طويل، والطلاب يقرؤنه برغبة تامة، واهتمام بالغ في أرجاء الهند، لأن اللغة الفارسية كانت رائجة فى الهند، فلما انقضى عصرها بالهند، أحسَّ عالم هندى بحاجة البلاد، فترجمه إلى اللغة العربية، وأخفى اسمَه، ونسب الترجمة إلى الشيخ محمد منير الدمشقى، صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة بدمشق، كما حكاه الأستاذ الأديب الأريب، الشيخ سلمان الحسينى الندوى، عن سماحة الشيخ العلامة المؤرخ الشيخ أبى الحسن على الندوى ــــ حفظه الله تعالى ــــ فى ترجمته للفوز الكبير ، فقال:

كنا نقرأ على غلاف الكتاب اسم المترجم للكتاب: الشيخ محمد منير الدمشقى، ولم نكن نعرف عنه إلا هذا الاسم، من هو؟ متى ترجم الكتاب؟ هل كان يعرف الفارسية أو استعان بأحد فى الترجمة؟ وهل له شيئ آخر غير ذلك يتعلق بالإمام الدهلوى؟ أسئلة كانت ترد على الذهن، وتثور فى النفس بدون جواب اه

وقال فى هامشه:

سمعت من سماحة شيخنا، الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ــــ حفظه الله تعالى ــــ أن هذا الكتاب ترجمه أحد العلماء فى الهند، ونُسب إلى الشيخ محمد منير الدمشقى،صاحب المطبعة المنيرية، واشتهر به. اه

وكذلك سمعتُه ممن أثِق به من الأساتذة فى دارالعلوم بديوبند، وزاد:

"إنه تعريب أحد العلماء الظاهريين فى الهند، وكان قليلَ البضاعة فى العربية"

فكان فى الترجمة هُجْنة (: عيب وقُبح) وسَقَط وغموض وتسامح فى مواضع عديدة،وكانت الحاجةُ ماسَّةً الى الترجمة الصحيحة الدقيقة، ولكن المدرسين له كانوا عارفين باللغة الفارسية، فكانوا يرجعون إلى الأصل الفارسى حيثما يشعرون بصعوبة فى حلِّ الكتاب.

وقبل ربع قرن خَدمتُ الكتاب بشرحى: العون الكبير، فأحسستُ حينذاك بالخلل، وشعَرتُ بحاجة إلى مقابلة الترجمة بالأصل الفارسى، فقمتُ بهذا الواجب حيثما وجدت الغموض فى التعبير، أو الخلل فى العبارة، أو التسامح فى

أداء الغرض، ونبهتُ عليه فى الشرح، ووضعتُ الترجمة الصحيحة فى الشرح، ولم أغير أصل الكتاب.

الحاجة إلى تهذيب التعريب،وتغيير الشرح طبقَه:

ولايزال العون الكبير يُطبع من سبائك حديدية، حتى ذهب رُوائُها وبهائُها، فأردت طبع الكتاب بالكمبيوتر، فنظرت فى الأصل مرة أخرى، فلم يُعجبنى الأسلوب، ووقفت فى أثناء ذلك على أخطاء كثيرة جديدة، طفيفة وجليلة، فمست الحاجة إلى المراجعة مرة أخرى.

وكذلك القائمون بتدريس الكتاب فى دارالعلوم بديوبند، وكذا فى الدُّوْر الأخرى، أصروا عليَّ مرات وكرات أن أقوم بترجمة الكتاب من جديد، فقمت بواجبى ــ بتوفيق المليك الوهاب ــ نحوَ الكتاب،وأفرغت الجهد فى تحرير الترجمة، وجعلت الترجمة القديمة أصلاً، وغيرت العبارة فى مواضع الضرورة، وكانت قد ظهرت ترجمة جديدة قبل ذلك، للأستاذ الشيخ سلمان الندوى ، فاستفدت منها فى تهذيب التعريب. وعلقتُ فى مواضع الحاجة بالاختصار، وقَسَمْت أجزاء الكلام، ورقَّمت الكتاب، وعَنْوَنْته من جديد، فصار الكتاب غضًّا طَرِيًّا. وطُبع فى تصفيف جميل وحلَّة قشيبة، وصادف خروجُه رغبتَهم، فتلقوه بالقبول، وقدَّمه الشيخ المفضال، الوقور الصبور، مولانا مرغوب الرحمن البجنورى ــ حفظه الله تعالى ــ المدير الحالى للجامعة الإسلامية: دارالعلوم ديوبند، إلى المجلس الاستشارى للدار، فقرره للتدريس فى دارالعلوم بديوبند، وفى الدُّوْر الأخرى التابعة لها، فالحمد لله على ذلك.

ثم غيرت العونَ الكبير فى شرح الفوزالكبير، طبقَ الترجمة المهذَّبة المنقَّحة المحَرَّرة وحذفت ماكان يتعلَّق بالترجمة القديمة، ووقعت على بعض الأخطاء فى الشرح فأصلحته؛ وهذا الشرح عون كبير ــ إن شاء الله تعالى ــ لمن رام حلَّ الفوز الكبير، ودليل مرشد لمن طالع أصولَ التفسير، وحاولتُ فى الشرح توضيح الكتاب وتبيينَه، وإيضاح المرام وتسهيلَه، واجتهدت فى كثير من

المواضع أن أشرحَ كلامَ الإمام المصنف بكلامه من مآخذه الأخرى، فقرَّبت البعيد، وجمعتُ الشتيت، وسهَّلت الطريق، فللّٰه الحمد على ذلك.

وأضفت إلى الشرح مباحث مهمَّة من الكتب العربية والأردية، لاسيما من كتب الإمام الأكبر، حجة الإسلام، شمس العلماء، الشيخ محمد قاسم النانوتوى — رحمه الله تعالى — مؤسس دارالعلوم بديوبند، فيزداد بذلك — إن شاء الله تعالى — نفعُ الكتاب.

واستدركتُ على الإمام المصنف — رحمه الله تعالى — قولَه فى مواضع عديدة، وأتبعتُه بالصواب، حيثما مسَّت الحاجة الشديدة إلى ذلك؛ فكل رجل، غير المعصوم، يؤخذ من قوله ويترك، وقد قال العلامة المحدث الكبير، الشيخ محمد يوسف البَنُوْرِى، شارح سنن الإمام الترمذى فى معارف السنن (٤: ٣٦٧): للشيخ ولى اللّٰه — رحمه الله — فى كتبه آراء، مع جلالة قدره، يُشكل أن يوافق عليها اه

رجائى:

هذه مُحاولاتى فى هذا الشرح، فإن كنتُ أصبتُ فيها، فذلك فضل من اللّٰه تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَابِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾ (النحل ٥٣) وإن كانت الأخرى فإنما هى من نفسى، وأستغفر اللّٰه العظيم.

ورجائى من كل قارئ يَطَّلع على خطأ، أن يدلّنى عليه، ويُنَبِّهَنِى إليه، فالدين النصيحة، والمسلمون بخير ماتعاونوا؛ وعلى الأقل أرجوهم الغفران:

وإن تَجِدْ عيبًا فسُدَّ الخَلَلاَ   فَجَلَّ من لافيه عيبٌ، وعَلاَ

وإنه لَيَحْلَوْلَى أن أقول هناماقاله سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه:

رَحِمَ اللّٰه رجلاً أهدى إلَيَّ عيوبَ نفسى!

وكتبه

سعيد أحمد عفا اللّٰه عنه البالن بورى

خادم الحديث الشريف

بالجامعة الإسلاميه دارالعلوم ديوبند

غرة ربيع الأول سنة ١٤٢٠هـ

علم التفسير

التفسيرلغةً: الإيضاحُ والتبيين، ومنــه قـوله تعالى فى سـورة الفـرقان: ﴿وَلايَأْتُوْنَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيْرًا﴾

وفى الاصطلاح: علمٌ يُبْحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد اللّٰه تعالى، بقدر الطاقة البشرية؛ فخرج علم القراء ات؛ فإنه يُبْحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث ضَبْط ألفاظه، وكيفية أدائها. وقولُنا "بقدر الطاقة البشرية" لبيان أنه لايقدح فى العلم بالتفسير عدمُ العلم بمعانى المتشابهات، ولا عدمُ العلم بمراد اللّٰه تعالى فى الواقع ونفس الأمر.

وموضوعه: كلام اللّٰه تعالى، الذى هو يَنبوعُ كل حكمة، ومعدِنُ كل فضيلة، من حيث دلالته على مراد اللّٰه تعالى.

وغرضه:الاهتداء بهداية اللّٰه تعالى، والتمسك بالعروة الوثقى، التى لاانفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية الأبدية، التى لافناء لها.

وفضائله: كثيرة ، منها:

(١)تكفَّل اللّٰه تعالى بنفسه ببيان كلامه الشريف، قال اللّٰه تعالى:﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(القيامة ١٩) فاللّٰه تعالى هو المفسِّر الأول لكلامه القديم، وكفى به فضيلةً!

(٢) جُعل تفسيرُ القرآن الكريم وظيفةَ النبى صلى اللّٰه عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾(النحل ٤٤) فبينه صلى اللّٰه عليه وسلم بقوله وفعله، فهو المفسر الثانى لكتاب اللّٰه المثانى؛ وكفى به قُدوةً!

(٣) دعا النبىُّ صلى اللّٰه عليه وسلم لابن عمِّه عبد اللّٰه بن عباس رضى اللّٰه عنهما، فقال﴿ اللّٰهم عَلِّمْهُ الكِتَاب﴾(رواه البخارى) وفى رواية:﴿ اللّٰهم علِّمه التأويل﴾

(رواه الحاكم) وشهد بِلَبَاقَتِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه حيث قال: ﴿ نِعْمَ ترجمان القرآن ابنُ عباس!﴾ (رواه الحاكم) فهل فوق ذلك من فخر!

(٤) وجُعل خيرُ الناس من تعلّم القرآن وعلّمه الناس،وهذا عام لتعليم ألفاظ القرآن ومعانيه، بل هو أولى، ونَاهيْكَ به من عُلْيَاءَ!

التفسير والتأويل: هما بمعنى واحد عند المتقدمين، وأما عند المتأخرين:

فقال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها؛ وأكثر استعمال التأويل فى المعانى والجمل، وأكثر ما استعمل فى الكتب الإلٰهية؛ والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها.

وقال آخر: التفسير بيان لفظ لايحتمل إلا وجها واحدًا.

والتأويل: توجيه لفظ متوجهٍ إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها، بما ظهر من الأدلة.

وقال الماتُرِيْدِىُّ: التفسير: القطع بأن المراد من اللفظ هذا، والشهادةُ على الله أنه عنى باللفظ هذا؛ فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه؛ والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله (راجع الإتقان نوع ٧٧)

التفسير بالرأى:

ومن أهم ما نريد أن نلقى عليك معنى "التفسير بالرأى" فدونك نبذة منه:

قال شيخ مشايخنا الإمام الكشميرى رحمه الله: إن التفسير إذا لم يوجب تغييرًا لمسألة، أو تبديلا فى عقيدة السلف، فليس تفسيرًا بالرأى؛ فإذا أوجب تغييرًا لمسألة متواترة، أو تبديلا لعقيدة مَجْمَع عليها فذلك هو التفسير بالرأى، وهذا الذى يستوجب صاحبه النار.

وحينئذ لاقَلَقَ فيما فسره المفسرون من أذهانهم الثاقبة،وأفكارهم الصحيحة؛ ومن يُطالع كتبَ التفسير يجدها مَشحونةً بالتفسير بالرأى، ومَنْ حجر على العلماء

أن يُبرزوا معانى الكتاب بعد الإمعان فى السياق والسباق، والنظر إلى حقائق الألفاظ ومراعاة عقائد السلف؟بل ذلك حَظُّهم من الكتاب، فإنهم هم الذين ينظرون فى عجائبه، ويكشفون الأستار عن وجوه دقائقه، ويَرْفَعُون الحجب عن خبيئات حقائقه، فهذا النوع من التفسير بالرأى حظ أولى العلم، ونصيب العلماء المستنبطين؛ أما من تكلم فيه بدون صحة الأدوات، لاعنده علم من كتاب السلف والخلف، ولاله ذوق بالعربية، وكان من أَجلاف الناس، لم يَحْمِلْه على تفسير كتاب اللّٰه غير الوقاحة، وقلةِ العلم، فعليه الأسف كل الأسف، و ذاك الذى يستحق النار اهـ(فيض البارى ٤: ١٥٠)

وقال الإمام الأكبرالشيخ العارف باللّٰه مولانا وسيدنا محمد قاسم النانوتوى ـــــ نور اللّٰه ضريحه ـــــ فى خاتمة " تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس" (ص ٣٦-٣٧):

معنى التفسيربالرأى: التفسير بالهوى، والتفسيرُ من عند نفسه؛ وأما التفسير بالدليل والقرينة فهو تفسير صحيح معتبر عند العلماء.

وبيان ذلك: أن المفهوم الكلى[1] ينطبق على آلاف من الأفراد ، فكل منها مصداق واقعى لذلك المفهوم الكلى؛ فإن ذُكر فى الآية أمرٌ كلىٌّ فهى آية مجملة بالنسبة إلى الأفراد، سواء كانت فيما بين الأفراد نسبة التَوارُد على سبيل البدلية أم لا. فمن خَصَّ احتمالا منها بغير قرينة ودليل فكأنما ادعى النبوة لنفسه، ويصير بذلك كافراً. وأما إذا كان هناك دليل عقلى أو نقلى أو قرينة عقلية أو نقلية فرجَّح احتمالا منها، حسبَ قوة الدليل والقرينة، فلا يكون كفرًا، وإلافكيف السبيل إلى ظهور الدقائق والنكات إلى الأبد، كما يشعر به بعض ألفاظ الأحاديث المرفوعة، نحو: لاَ يَشبعُ منه العُلَماءُ، ولا يُخْلَق عن كثرة الرد، ولاتَنْقَضِى عجائبه!

وخذلك مثالا ليتضح به الأمر:

---

(١)المفهوم الكلى: ما لايمتنع فرض صدقه على كثيرين كحيوان ناطق.

العقل كالمِنْظَار والمُجْهِرِ للمعلومات الدقيقة الغامضة، والمضامين البعيدة من الفهم، فكما تُرى الأجسامُ الصغيرة والبعيدة بهما واضحا وقريبا، كذلك تتجلى المعلومات البعيدة والمضامين الغامضة بوسيلة العقول الصافية السليمة جلاء الشمس فى رابعة النهار.

نعم كما أن مدركات المِنْظَار والمُجْهِر ليست فى الحقيقة عين المعلوم، بل هى شَبَحٌ ومثال له، فكذلك مايَرْتَسِمُ فى الذهن من كُنْه المعلومات ووجهها، وقت إدراكها، مثال للمضامين المذكورة، وشبح لها.

وكما أن صورة المرآة تتصف دائما بلونها فكذلك تتصف المعلومات أيضاً بلون الذهن، ولايسوغ لنا أن نُنْسِب هذا اللون إلى أصل المعلوم، بل يجب علينا أن ننسبه إلى ذهن العالم.

فإذا وعيتَ المثال، فاعلم أن فى التفسير يُوضَّح الأمرُ المجْمَلُ، لايُزاد فيه ولاينقص منه، كما إذا فسرنا الإنسان بالحيوان الناطق فلم نزد فيه على الأصل شيئا، كما كان الشأن فى الإدراك بالمُجْهِر، فيسوغ لنا القول بأن الصور المرآتية تفسير لذواتها، وأما الألوان العارضة للصور من زجاج المجهر، فهى تفسير بالمرآة.

فالحاصل: أن التفسير بالرأى: هومالا يكون به تَعَرُّضٌ فى مرتبة الإجمال، وأدخله المفسر فى الآية فى مرتبة التفصيل، فإدخال مثل هذه الأمور فى تفسير الآية يكون من قِبَل التصرفات الخيالية الباطلة(معربا وملخصا)

وأما أصول التفسير: فهى علم بالقواعد التى تُعين المفسر والقارئ فى فهم كتاب الله العزيز.

وموضوعه: هوالكتاب العزيز.

وغايته: التيسير فى فهم مراد الله تعالى، الموجب للسعادة الأبدية.

☆☆☆☆☆

☆☆☆

☆

ترجمة الإمام المصنف[1]

اسمه ونسبه:

هو: أبو عبد العزيز، ولى الله قطب الدين أحمد بن الشيخ أبى الفيض عبد الرحيم بن وجيه الدين، الفاروقى، الدِّهْلوى، الهندى ، ينتهى نسبه من الأب إلى الفاروق الأعظم عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ومن الأم إلى الإمام الهمام موسى كاظم رِضَا رحمة الله عليه.

وكان والده ـــ رحمه الله ـــ قد بُشِّربصاحبنا الإمام المصنف فى رؤيا صالحة، بشره به الشيخ قطب الدين أحمد بختيار كاكى الأوشى ـــ رحمه الله ـــ وأوصاه أن يسميه باسمه إذا وُلد ،فنسى والده تلك الوِصَاية وسماه بـ"ولى الله" ثم بعد مدة تذكر الوصية فسماه ثانيا بـ" قطب الدين أحمد "

ولادته:

وُلد ـــ رحمه الله ـــ فى عهد عالمگير لأربع مضت من شهر شوال

(١) مصادر الترجمة: نزهة الخواطر للمؤرخ الشهير عبد الحى بن فخر الدين الحسنى ٦: ٣٩٨- ٤١٥ والأعلام للزركلى ١: ١٤٤. وأبجد العلوم للنواب صديق بن حسن البوفالى ٣: ٩١٢. وفهرس الفهارس ١: ١٢٨، وإيضاح المكنون ١: ٦٥و ١٦١.واكتفاء القنوع ص ٩٧و ١٣٤و ١٨٥، واليانع الجنى لمحسن بن يحيى الترهتى. وحدائق الحنفية ص ٤٤٧ ومعجم المؤلفين ١٣: ١٦٩ وتراجم علماء حديث هند ص٦ وحياة ولى الله.وشاه ولى الله نمبر لمجلة الفرقان الشهيرة الشهرية الصادرة من لكهنو ،ومقدمة الخير الكثيرللسيد أحمد رضا البجنورى صاحب أنوار البارى فى شرح البخارى.

المكرم[1] سنة ١١١٤هـ[2] يوم الأربعاء فى قرية" پُهلَت" (:فُلَت) بمديرية مظفرنگر من أعمال الولاية الشمالية(U.P.) فى الهند، واسمه التاريخى " عظيم الدين"

نشأته:

بدأ التعليم فى السنة الخامسة من عمره، وأتم القرآن الكريم فى السنة السابعة، ثم بدأ فى الفارسية والعربية، فختم الفوائد الضيائية للعارف الجامى فى السنة العاشرة.

وكان ـــ رحمه الله ـــ قد تعلم من والده[3] وفرغ من الكتب الدرسية فى الخامس عشرة من عمره، وحصلت له من والده إجازة التدريس والتعليم.

وكان يختلف فى أثناء تعليمه إلى إمام الحديث فى زمانه الشيخ محمد أفضل السيالكوٹى فانتفع به فى الحديث، وقرأ عليه صحيح الإمام البخارى والشمائل النبوية للإمام الترمذى وجزءا من مشكوة المصابيح.

ثم تاقت نفسه إلى زيارة الحرمين الشريفين،فرحل إليها سنة ١١٤٣هـ وكان هو إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، فحج فى تلك السنة، وأقام هناك عامين، وتلمذ على الشيخ أبى طاهر محمد بن إبراهيم الكُردى المدنى، فسمع منه صحيح البخارى وقرأ عليه أطراف الكتب الستة، والموطا، والمسند للإمام الدارمى، وكتاب الآثار للإمام محمد، وتناول منه إجازة بقية الكتب.

ثم ورد بمكة المباركة، وأخذ موطا مالك عن الشيخ وفد الله المالكى المكى وحضر دروس الشيخ تاج الدين الحنفى القلعى المكى أيامًا، حين كان يدرس صحيحَ البخارى، وسمع منه أطراف الكتب الستة وغيرهما، وحلَّ مشكلات الكتب المذكورة ومعضلاتها عنده، وأخذ الإجازة منه لجميع الكتب.

---

(١) وفى النزهة: ولد لأربع عشرة خلون من شوال(٢) فى الأعلام: ولادته سنة ١١١٠هـ = ١٦٩٩م(٣) وكان والده من وجوه مشايخ دهلى ومن أعيانهم، له حظ وافر من العلوم الظاهرة والباطنة، مع علو كعبه فى طريقة الصوفية، وكان قد تلمذ فى المعقولات على العلامة الشهير مير زاهد الهروى رحمه الله.

وعاد إلى الهند سنة ١١٤٥هـ فمكث يدرس ويصنف ثلاثين عاما، وانتفع به خلق كثير لايحصى عددهم، وقرأ عليه جماعة وتخرَّجوا عليه فصاروا من أعيان الهند.

وفاته:

وتوفى إلى رحمة الله سبحانه ظهيرة يوم السبت سَلَخ (١) شهر الله المحرم سنة ١١٧٦هـ = ١٧٦٢م بمدينة دهلى (٢) فدفن عند والده خارجَ المدينة بموضع يُعرف الآن بـ "مهديان" وقبره معروف.

عصره:

ولد رحمه الله حينما كان المسلمون فى حاجة شديدة إلى مثله من رجال الدين، فإن الدولة المغولية فى الهند كانت إذ ذاك على وشك الزوال، وكان قد تقلص ظلها، واضمحل أمرها، وراجت البدعات والمراسيم السيئة فى الهند؛ وفَرَشَ الفقراءُ الكذبة والمتشيخون بُسُطَهم فى الزوايا، فجلسوا عليها يكيدون الإسلام والمسلمين، ويفسدون أحوالهم، وكان علماء عصره لايعرفون من معانى القرآن ومطالبه وأحكام الحديث وأسرار الفقه شيئًا فما ظنك بالعوام!

فكان طلوع هذا النيّر الساطع، فى تلك الساعة، أكبرَ فضل من الله تعالى على أهل الهند، وأعظم هبة وهبها أياهم.

أعماله الخالدة:

له أعمال خالدة لايحصى عددها، فلنذكر بعضها:

(١) كان على الدولة المغولية فى الهند طابع التشيع غالبا منذ عهد "هُمايون" ولم يزل طائفة من أمراء البلاد يتمسكون به، فكان لذلك أثر عظيم فى انعطاف الناس إلى التشيع، وأخذ يتسرب إلى أذهانهم مذهبُ الشيعة.

وكان الأمراء (النوَّاب) فى لكهنؤ، أيضا يتمذهبون بمذهب الشيعة، وكانوا

(١) سلخ الشهر: آخره (٢) وقيل فى وفاته: سنة ١١٧٩هـ

غالين فيها جدا، فكان كل ذلك يؤثر فى عقائد أهل السنة تأثيرا شديدًا، ويَميل بهم عن المحجة الحنيفية السمحة البيضاء.

ومما زاد شناعةَ الأمرِ: أنه ماكان من علمائهم من يدفع عنهم أثر التشيع، ويجرأ على الذودعن حيازتهم.[1]

فقام الإمام المصنف بواجباته، وعزم على الذود عن عقائد أهل السنة والجماعة،فطرد الشبهات، وأزال الظلمات، وصنف كتابه الشهير: إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (بالفارسية)وأثبت فيه بمآت من الأحاديث مناقب الخلفاء الراشدين المهديين وفضائلَهم[2]

(٢) كان المسلمون فى عصر الإمام المصنف يزعمون أن القرآن العظيم لمحض التلاوة والقرا ء ة،فدعاهم إلى فهم معانيه، ونشر تعاليمه، وصنف رسالة جامعة فى أصول التفسير، وأسماها بالفوز الكبير(الذى نحن بصدد شرحه) وصنف رسالة أخرى، حل فيها معضلات القرآن ومشكلاته، وبين أسباب النزول وتوجيه المشكل، وسماها بـ "فتح الخبير بما لابد من حفظه فى علم التفسير" واشتغل

---

(١)ومن طالع مكاتيب الشيخ العارف أحمد السرهندى ، مجدد الألف الثانى ، الذى كان فى عهد السلطان أكبر وجهانگير،يتضح له ماقلنا اتضاح الشمس، فإنه رحمه الله كان يتأسف كثيرا، ويحزن حزنًا شديدًا على هذه الحالة الفظيعة.

(٢)ثم صنف نجله الأكبر الشيخ الإمام المحدث الكبير الشاه عبد العزيز الدهلوى كتابه : تحفهٔ إثنا عشرية (بالفارسية) فحُصِّل ما فى صدور الشيعة، وعربه الشيخ غلام محمد بن محيى الدين الأسلمى واختصره وهذبه علامة العراق السيد محمود شكرى الآلوسى فسماه، مختصرالتحفة الاثنى عشرية، وهو مطبوع ؛ ثم بعد مدة طويلة حذا حذوهما الإمام الأكبر، نابغة الهند ، الشيخ محمد قاسم النانوتوى (مؤسس دارالعلوم بديوبند) فى كتابه هدية الشيعة يعنى الهدية إلى الشيعة(بالأردية) فأبدع فيه وأتى فيه بعجب عجاب، وماترك من التحفة شيئا .فكما عرب الثانى يحتاج الأول والثالث أيضا إلى الترجمة العربية، لينتفع بهما أخواننا العرب أيضا.

بتدريس القرآن العظيم، فجعله كتابا آساسيا في قائمة الكتب التي تُقرأ عليه.

(٣)وكان الناس في عصره يجهلون اللغة العربية الفصحى، فماكانوا يستطيعون فهم كتاب الله رب العالمين، فترجم الإمام المصنف القرآن العظيم بالفارسية (لغة علمية في عهده) وسنَّ بصنيعه هذا سنةً حسنة متبوعة[١] وأسماها بـ" فتح الرحمن في ترجمة القرآن"

(٤) وقد أفرغ الإمام المصنف مجهودَه في سبيل نشر الحديث في الهند، ولم يأل فيه جهدًا، وأتم البناء الذي أقامه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي رحمة الله عليه(المتوفى سنة ١٠٥٢هـ) وسدَّ الفراغ الذي بقي في نشر الحديث من زمانه، فشرح الموطا للإمام مالك بن أنس الأصبحي (أول كتاب في علم الحديث) بلغة محلية فارسية، وسماه " المُصَفّٰى"، ثم شرح بلغة عربية، وأسماه بـ " المُسَوَّى"،فوفّق فيهما؛ وشرح تراجمَ الجامع الصحيح للإمام البخاري، وصنف: الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين، وما إلى ذلك من الكتب الحديثية.

(٥) كان الناس غافلين في عصر الإمام المصنف عن العلوم الشرعية النقلية، وكان حديث ليلهم ونهارهم العلومُ العقلية، والفلسة اليونانية، وقد دَبَّتْ في عقولهم سموم هذه الفنون، ففقدواالفطرة الساذجة لفهم الدين الحنيف، فأحسَّ الإمام المصنف بهذا الخطر الشديد العظيم فبيَّن لهم أسرار الشريعة ليستعدوا لقبولها برغبة تامة، فصنف كتابه الشهير العظيم: حجة الله البالغة، قال نجله المحدث عبد العزيز في وصفه:

كتاب حجة الله البالغة الذي هو عمدة تصانيفه في علم أسرار الحديث لم يتكلم في هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه، من تأصيل الأصول، وتفريع الفروع، وتمهيد المقدمات والمبادئ، واستنتاج المقاصد منها إلى المجلس

---

(١)وراجع الفصل الرابع من الباب الرابع من نفس الكتاب.

والنادى اه

ثناء الناس عليه:

افتتح المؤرخ الكبير عبد الحى الحسنى اللكهنوى ترجمته بالكلمات الآتية:

الشيخ الإمام الهمام، حجة الله بين الأنام، إمام الهدى، قدوة الأمة، علامة العلماء، وراث الأنبياء، آخر المتجهدين، أوحد علماء الدين، زعيم المتضلّعين بحملِ أعباء الشرع المتين، محيى السنة، ومن عظمت به لله علينا المنة، شيخ الإسلام، قطب الدين ،ولى الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمرى الدهلوى:

العالم الفاضل النِحْرِيْر أفضل من   بثَّ العلوم فاروى كل ظمآن

وقال صاحب فهرس الفهارس وغيره: أحيى الله به، وبأولاده. وأولاد بنته، وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند، بعد مواتهما، وعلى كتبه وأسانيده المدارُ فى تلك الديار.

وكان المفتى عنايت أحمد الكاكوروى يقول:

إن الشيخ ولى الله مَثَلُه كمثل شجرة طوبىٰ، أصلها فى بيته، وفرعها فى كل بيت من بيوت المسلمين، فما من بيت ولامكان من بيوت المسلمين وأمكنتهم، إلاوفيه فرع من تلك الشجرة، لايَعرف غالب الناس أين أصلها؟

وقال شيخه أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكُردى المدنى :

إنه ليُسند عنى اللفظ وكنت أصحِّح منه المعنى

وليس وراءه مفخر يرام، ولا فوقه منقبة ترجى.

شرف ينطح النجوم برَوْقَيه(١)   وعزٌّ يُقَلْقِلُ الأجْبالا

تصانيفه القيمة:

قد صنف فى العلوم كلها، لاسيما فى الحديث والتفسير، وأصولهما، وعلم الحقائق والتصوف، كُتُبًا عديدةً معتبرةً. وتصانيفه حُجَجٌ قواطعُ على تبحره،

(١)الرَوق : القرن والجمع أرواق.

وبراهين، سواطعُ على تبصره، وسعة نظره، وغزارة علمه، بلغت عددُها إلى خمسين كتبا، ولنذكر بعضها:

(الف) مايتعلق بعلوم القرآن:

صنف فيما يتعلق بعلوم القرآن ترجمة الفرقان على شاكلة النظم العربى فى قدر الكلام وخصوص اللفظ وعمومه، وسماها بـ " فتح الرحمٰن فى ترجمة القرآن"(بالفارسية) وفى أصول التفسير كتابَه الشهير الفوز الكبير (بالفارسية)؛ وفتح الخبير بمالابد من حفظه فى علم التفسير (بالعربية) وهو الباب الخامس من الفوز الكبير، وتأويلَ الأحاديث رسالة نفيسة له بالعربية فى توجيه قصص الأنبياء عليهم السلام، وبيان مباديها التى نشأت من استعداد النبى، وقابلية قومه، ومن التدبير الذى دبرته الحكمة الإلٰهية فى زمانه. و" الزهراوين" فى تفسير سورة البقرة وآل عمران.

(ب)ما يتعلق بالحديث وعلومه:

صنّف المصفّى شرح الموطا (بالفارسية) تكلم فيه ككلام المجتهدين و"المسوّى شرح الموطا"(بالعربية)،اكتفى فيه على ذكر اختلاف المذاهب وعلى قدر من شرح الغريب. وشرحَ تراجمَ الأبواب للبخارى ،أتى فيه بتحقيقات عجيبة، وتدقيقات غريبة.وكذا صنف" الإرشاد إلى مهمات الإسناد" و"الفضل المبين فى المسلسل من حديث النبى الأمين"، و"النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر"، و"المسلسل بالأسودين"، و"الأربعين" جمع فيه أربعين حديثا، قليلة المبانى،كثيرة المعانى، و" الدر الثمين فى مبشرات النبى الأمين".

(ج) مايتعلق بفقه الحديث ،وأسرار الشريعة، وأصول الدين.

صنف "حجةَ الله البالغة" فى علم أسرار الشريعة، و"حسنَ العقيدة" رسالة مختصرة فى العقائد بالعربية. والإنصاف فى أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمحدثين،وعِقْد الجِيْد فى أحكام الاجتهاد والتقليد، والبدور البازغة والمقدمة

السنية فى انتصار الفرقة السُنِّيَّة.

(د)ما يتعلق بالسير والتاريخ.

صنف " إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" كتاب عديم النظير فى بابه، لم يؤلف مثله قبله ولابعده يدل على أن صاحبه لبحر ذخار،لايرى له ساحل؛ و"قرة العينين فى تفضيل الشيخين"(بالفارسى). و"سرور المحزون " مختصر بالفارسى ملخص من نور العيون فى تلخيص سير الأمين والمأمون صلى الله عليه وسلم لابن سيد الناس، صنفه بأمر صاحبه الشيخ الكبير، العارف الطائر الصيت، مرزا مظهر جان جانان الدهلوى رحمهما الله تعالى، و"أنفاس العارفين" تشتمل على تراجم آبائه، والكبار من أسرته، وعلى سيرهم وبعض وقائعهم، وأذواقهم ومعارفهم، و" إنسان العين فى مشايخ الحرمين" و"أطيب النغم فى مدح سيد العرب والعجم ".

(ﮬ)مايتعلق بالحقائق والمعارف والسلوك والتصوف.

صنف "الخير الكثير" و"التفهيمات الإلٰهية" و"فيوض الحرمين" و"المكتوب المدنى" فى حقائق التوحيد، و"ألطاف القدس فى لطائف النفس" و"القول الجميل فى بيان سواء السبيل" فى سلوك الطرق الثلاثة المشهورة: القادرية والچشتية والنقشبندية، و"الانتباه فى سلاسل أولياء الله" كتاب مبسوط فى بيان السلاسل المشهورة وغير المشهورة، و"الهمعات" فى بيان النسبة إلى الله (بالفارسية) و"اللمحات" و"السطعات" فى بعض ما أفاض الله على قلبه، و"الهوامع فى شرح حزب البحر"على لسان الحقائق والمعارف، و"شفاء القلوب" فى الحقائق والمعارف.

وغير ذلك من الكتب المفيدة. وله ديوان الشعر العربى،جمعه ولده الشيخ عبد العزيز،ورتبه الشيخ رفيع الدين، وله رسالة نفيسة فى قواعد ترجمة القرآن وحل مشكلاتها. وله " مِنهيات" على فتح الرحمٰن.ورسالة بسيطة فى الأسانيد بالفارسية ،مشتملة على تحقيقات غريبة وتدقيقات عجيبة .

مذهبه الفقهى

كان الإمام المصنف ـــــ نور الله ضريحه ـــــ من مقلدى الإمام الأعظم أبى حنيفة نعمان بن ثابت الكوفى ـــــ رحمة الله عليه ـــــ وكان درسه منبعا للعلوم الإسلامية بأسرها، لاسيما علم التفسير والحديث والفقه الحنفى.ومن أصرح مايستدل به على كونه "حنفيا" أنه بنفسه قد ادّعاه، وأقرَّبه فى تحرير له بقلمه؛ فإنه قد توجد فى المكتبة لخدا بخش بعظيم آباد(پٹنه) نسخة لصحيح البخارى التى لها أهمية كبرى، فإنها قد استعملت فى درس الإمام المصنف، وقرأها عليه تلميذه: محمد بن پير محمد بن أبى الفتح العمرى البلگرامى، وقد كتب عليها هذا التلميذ:

وقد تَمَّ درس صحيح البخارى فى يوم الأربعاء، لستة مضين من شوال سنة ١١٥٩هـ فى دهلى، بالقرب من جمنا (اسم نهر فياض بدهلى) فى الجامع الفيروزى الخ

ثم كتب عليها الإمام المصنف بيده سلسلة إسناده إلى الإمام البخارى، بالعربية، وهاكم نصه:

...... أما بعد، فإن أخانا فى الله ـــــ عزوجل ـــــ الفاضلَ الصالح الشيخ محمدَ بن الشيخ پير محمد بن الشيخ أبى الفتح، العمرى نسبًا، والبلگرامى أصلا، والإلٰه آبادى مولدًا ومنشأ، قرأ علىّ الجامع الصحيح المسند، تصنيف الإمام الحجة أمير المؤمنين فى الحديث، أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ـــــ رحمه الله ـــــ جميعَه،فإنه سمعه علىّ بقراء ة خواجه محمد أمين، وقرأ علىّ أيضا أطرافا من سائر الكتب الستة، ومن موطا الإمام مالك بن أنس ، ومن مسند الحافظ أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، ومشكوة المصابيح.

فأجزت له أن يروى عنى بهذه الكتب كلها، وكذلك أجزت له أن يروى

عنى كل ماصح عنده أنه من مرويا تى بشروط الرواية المعتبرة عند أهل هذا الشان. وقد أخبرنا لصحيح البخارى ـــ جميعه ـــ شيخنا أبو طاهر محمد بن أبراهيم الكردى المدنى.

وأخيراً قال:

وكتبه بيده: الفقير إلى رحمة الله الكريم الودود، ولى الله أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين بن معظم بن منصور بن أحمد بن محمود، عفا الله عنه وعنهم، وألحقه وإياهم بأسلافهم الصالحين، العمرى نسبا، الدهلوى وطنا، الأشعرى عقيدة، الصوفى طريقة،الحنفى عملاً ، والحنفى والشافعى تدريسا، خادم التفسير والحديث والفقه والعربية والكلام وله فى كل ذلك تصانيف، والحمد لله أولاً وآخرًا،وظاهرًا وباطنًا، ذى الجلال والإكرام.

وكان ذلك يوم الثلثاء لثالث وعشرين من شوال سنة ١١٥٩هـ.

وقد كتب الشيخ رفيع الدين الدهلوى ابن الإمام المصنف تحت العبارة المذكورة، ما معناه:

لاشك أن هذا التحرير بيد والدى المحترم، كتبه الفقير محمد رفيع الدين .

إزاحة شبهة: فما يفهم من بعض عبارات الإمام المصنف أنه كان يرجح مذهب الإمام الشافعى ـــ رحمه الله ـــ أوكان يجمع بين المذاهب، فمعناه كما قال السيد أحمد رضا البجنورى شارح الصحيح للإمام البخارى:

أنه كان يرجح تدريسًا وبحثا، لأنه صرح فى بعض تأليفاته أن لِحَقِّيَّةِ المذهب عنده معنيين:

الأول: كونه مطابقا لظواهر النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية.

والآخر: كونه موافقا لمعانيها ومظانها المقصودة.

فقال بحقية مذهب الإمام الشافعى بالمعنى الأول، وبحقية مذهب الإمام أبى حنيفة بالمعنى الثانى، والله أعلم بمراد عباده اهـ (١)

(١) وراجع للتفصيل إلهام الرحمٰن فى تفسير القرآن ١: ٢٣١ - ٢٣٣

من نِعَم الله تعالى عليه:

خصَّه الله تعالى بعلوم لم يَشْرَك معه فيها غيرُه، وأما التى اشترك معه فيها غيرُه فكثيرة لايحصيها عدد، ونحن نذكر قليلا من ذلك الكثير:

(الف)أكرمه الله تعالى بالفصاحة فى اللغة العربية والفارسية والعلاقة الخاصة بالفنون الأدبية فى النظم والنثر، وأكبر شاهد على ذلك تصانيفه العربية والفارسية.

(ب)خَاضَ فى بحار المذاهب الأربعة وأصول فقههم خوضًا بليغًا، ونظر فى الأحاديث التى هى متمسكاتهم فى الأحكام، فاطَّلع على مآخذ المسائل، ومنازع الحجج والدلائل، فأكرمه الله تعالى بمرتبة الاجتهاد القصوى.

(ج) تضلَّع من علم الحديث والأثر، فحَفِظ المتون وَضَبَط الأسانيد ونظر فى دواوين المجاميع والمسانيد، واعتنى بهذا العلم الشريف اعتناءً شديدًا، ونشر هذا العلم المنيف فى الأكناف البعيدة، فأحيى الله تعالى به الحديث والسنة بعد مواتهما.

(د) تَرَوَّى من الفرقان الحميد وعلومه، وتأويل كتاب الله العزيز وتفسيره، وكان بعيد الشأو فى تحصيله، وغطس فى بحر القرآن العميق الزاخر، فكان تلميذًا للقرآن العظيم بلاواسطة، ومن نظر فى كتبه، لاسيما فتح الرحمن،شهد بتوفر حظه منه.

(ه)هذب أصول هذه العلوم ومبادئها تهذيبا بليغًا، فأكثر من التصرف فيها، حتى يكاد يصح أن يقال: إنه بانئ أُسِّها، وبارئ قوسها.

فأماأصول التفسير :فكتابه الفوز الكبير فيه شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها، والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه.

وأماأصول الحديث: فله فيها باع رحيب وقد أشار ابنه عبد العزيز إلى أن له فيها تحقيقات مستظرفة لم يسبق إليها.

وأماأصول الفقه:فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة، وجَمَعَها، وبيَّن الفرق بين الأمور الجدلية، والأصول الفقهية، وردَّ وجوه الاستنباط ـــ على كثرتها ـــ إلى عشرة، وأسَّس قواعد الجمع، بين مختلف الأدلة، وبين قوانين الترجيح.

(و)وكان المتكلم فى علم العقائد وأصول الدين فى عهده: إما صاحب حديث، يتهافت على ظواهره، أو:صاحب كلام يتعمق فى الرأى، أو: صاحب فقه يتوسط الفريقين، أو: صاحب ذوق يطمئن إلى ما يتجلى له. وقد جمع الله تعالى فى صدر الإمام المصنف ماشَتَّته بين هؤلاء ،فأتى بأسرار غامضة فى تطبيق مسائله بالمأثور، وجَرَّد أصول المسائل عن الدلائل المنطيقة والفلسفية.

(ز)قد جمع الله له بين الطرق الثلاثة: من السمع والفكروالذوق؛ فلايتجلى له شيئ من السر الغامض فى آداب السلوك وعلم الحقائق فيقبله، إلا بعد ما شهد بصحته شاهدا صدق من المعقول والمنقول، وأفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا.

(ح) ومن نعم الله تعالى عليه: أن أولاه خلعة الفاتحية، وألهمه الجمع بين الفقه والحديث، وأسرار السنن، ومصالح الأحكام، وسائرماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم من ربه عزوجل، حتى أثبت عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج، وطهَّرها من قذى أهل المعقول ،وأعطى علم الإبداع والخلق والتدبير والتدلى مع طول وعرض،وعلم استعداد النفوس الإنسانية بجميعها، وأفاض عليه الحكمة العملية، ووفقه لتشييدها بالكتاب والسنة وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول، وفرق السنة السنية من البدعة الغير المرضية.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

آلاءُ [١] اللّٰه تعالى على هذا العبد الضعيف لاتُعَدُّ ولاتُحْصٰى؛ وأجلُّها: التوفيق لفهم القرآن العظيم. ومِنَنُ [٢] صاحب النبوة والرسالة ــــ عليه الصلاة والسلام ــــ على أحقر الأُمَّة كثيرة؛ وأعظمُها: تبليغُه صلى اللّٰه عليه وسلم الفرقانَ الكريم؛ لقَّن [٣] النبى صلى اللّٰه عليه وسلم القرآن الجيلَ الأول [٤] وهم أبلغوه للجيل الثانى [٥] وهلُمَّ جرًّا [٦]، حتى بلغ هذا الضعيفَ أيضًا حظٌّ من روايته ودرايته.

اللهم صلِّ على هذا النبى الكريم: سيِّدنا ومولانا وشفيعنا، أفضلَ صلواتك، وأيمن بركاتك وعلى آله وأصحابه، وعلماء أمته أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أمابعد: فيقول الفقير ولى اللّٰه بن عبد الرحيم ــــ عاملَهما اللّٰه تعالى بلطفه

---

(١) جمع الإلْيِ، والإلْى، والأَلْى : النعمة.

(٢) جمع المِنة : الإحسان.

(٣) لقَّنه الكلامَ: فهَّمه إياه مشافهة.

(٤) الجِيْل الأول : هم أصحاب النبى صلى اللّٰه عليه وسلم .

(٥) الجيل الثانى : هم جماعة التابعين.

(٦) هلم جراً: تعبير يقال لاستدامة الأمر واتصاله.

العظيم ـــــ: لما فتح الله تعالى عليَّ بابا من فهم كتابه المجيد، خطر ببالى أن أجمع وأُقيِّد بعضَ النكاتِ[1] النافعة التى تنفع الأصحابَ في رسالة مختصرة؛ والمرجُوُّ من لُطف الله ـــــ الذى لاانتهاء له ـــــ أن يفتح لطلبة العلم ـــــ بمجرد فهم هذه القواعد ـــــ شارعاً واسعًا فى فهم معانى كتاب الله، بحيث لو صرفوا عُمُرَهم فى مطالعة التفاسير، والقراءةِ على المفسرين ـــــ على أنهم أقلُّ قليلٍ فى هذا الزمان ـــــ لم تَتَحَصَّلْ لهم هذه الفوائد بهذا الضبط والربط. وسمَّيْتها بـ ﴿الفوز الكبير فى أصول التفسير﴾ وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلتُ، وهوحسبى،ونِعْمَ الْوكِيْل.

ومقاصد هذه الرسالة منحصِرة فى خمسة أبواب:

الباب الأول: فى بيان العلوم الخمسة ، التى يدلُّ عليها القرآن العظيمُ نصًا وكأنَّ نزولَ القرآن بالإصالة كان لهذا الغرض.

الباب الثانى: فى بيان وجوه الْخفَاء فى معانى نظم الْقرآن ،بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالةِ ذلك الخفاء بأوضح بيان.

الباب الثالث: فى بيان لطائف نظم القرآن ،وشرحِ أسلوبه البديع، بقدر الطاقة والإمكان.

الباب الرابع: فى بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف الواقع فى تفاسير الصحابة والتابعين.

الباب الخامس: فى ذكرجُمْلةٍ صالحةٍ[2]من شرح غريب القرآن، وأسباب النزول التى يجب حفظُها على المفسر، ويمتنع ويَحْرُمُ الخوض فى كتاب الله بدونها[3]

(١)جمع النكتة، وهى المسألة العلمية اللطيفة، التى أخرجت بدقة نظر، وإمعان فكر ؛ والمراد بها هُنا: الفوائد النافعة.

(٢) أى مقداراً كافيا

(٣) أسقط الناشرون للفوز الكبير البابَ الخامس منه لعدم شموله فى الدرس.

الباب الأول
فى
بيان العلوم الخمسة التى يدل عليها القرآن العظيم نصًّا

لِيُعلم أن معانى القرآن المنصوصةَ لاتخرج عن خمسة علوم[1]:

١ـ علم الأحكام: وهى الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام؛ سواء كانت من قسم العبادات، أومن قسم المعاملات،[2] أومن تدبير المنزل [3] أومن السياسة المدَنيَّة؛ [4] وتفصيل هذا العلم منوط [5] بذمة الفقيه [6].

---

(١) علوم القرآن لاتَنْحصر، ومعانِيه لاتُسْتَقْصى. قال ابن مسعود رضى الله عنه: من أراد العلم فلْيثَوِّر القرآن، فإن فيه علمَ الأولين والآخرين (رواه البيهقى فى المدخل)

وإنما يَفهم بعضَ معانيه ويَطّلع على أسراره ومَبانيه من قَوِىَ نظره، واتَّسع مجاله فى الفكر ورقَّتْ طِباعُه، وتضلَّع فى فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب، ولقد أبدع من قال:

جميع العلوم فى القرآن لكن ... تَقَاصَرَتْ عنه أفهام الرجال

ولكن أمَّ علوم القرآن، قيل: ثلاثة أقسام: توحيد وتذكير وأحكام (قاله القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه: قانون التأويل) وقال آخر: يشتمل على أربعة أنواع من العلوم: أمر ونهى وخبر واستخبار؛ وقيل: ستة، وزاد الوعدَ والوعيد؛ قال الطبرى: يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد والإخبار والديانات، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ تَعْدِل ثُلُثَ القرآن" لأنها تشتمل على التوحيد كله؛ وقسمه الرُمَّانى إلى ثلاثين قِسما، بيَّنه الزَرْكَشِى فى البرهان (١:١٨)

ولكن الإمام ولى الله لخَّص علوم القرآن على هذا الوجه، أعجب وأفْيَد من ذلك كله. فَذُق كلامَه، ومن لم يذق لم يَدْر.

(٢) المعاملات: مسائل باحثة عن كيفية إقامة المعادلات، والمعاونات، والاكتسابات فيما بين الناس.

(٣) علم تدبير المنزل: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المنزل.

(٤) علم سياسة المدينة: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة؛ والمراد من المدينة: جماعة متقاربة تجرى بينهم المعاملات ويكونون أهل (=)

٢ـ **علم الجدل**: وهو المحاجَّة مع الفِرَق الأربع الضالَّة: من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين؛ وتبيان (١) هذا العلم منوط بذمة المتكلم(٢).

٣ـ **علم التذكير (٣) بآلاء الله**: وهو بيان خلق السماوات والأرض، وإلهام العباد مايحتاجون إليه، وبيانُ صفات الله الكاملة.

٤ـ **علم التذكير بأيام الله (٤)**: وهو بيان الوقائع التى أحْدَثها الله سبحانه وتعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين.

٥ـ **علم التذكيربالموت وما بعدَه**: من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار.

وتفصيل هذه العلوم الثلاثةِ، وذكرُ الأحاديث والآثار المتعلقة بها يرجع إلى الواعظ والمذكِّر.

أسلوب القرآن الكريم فى عرض العلوم الخمسة

وإنما وقع بيان هذه العلوم على أسلوب العرب الأولين، لاعلى منهاج العلماء المتأخرين، فلم يلتزم سبحانه وتعالى فى آيات الأحكام اختصارًا

(=) منازل شتّى راجع حجة الله البالغة (١: ٩٠)

(٥) المنوط: المعلَّق؛ يقال: هذا منوطٌ به أى معلَّق به.

(٦) الفقيه: عالم بالفقه؛ والفقه: معرفة النفس مالها وماعليها، وقد اعتنى الأئمة بعلم الأحكام، وأفردوه بالتصنيف، كابن العربى الأندلسي، وكتابُه "أحكام القرآن" مطبوع، وكذا طُبع: "أحكام القرآن" لأبى بكر الرازى الحنفى المعرف بالجصَّاص، وكتابُه أجودُ ما فى الباب وراجع لمزيد البيان البرهان (٢: ١) والإتقان (١: ٩)

---

(١) التبيان: البيان والإظهار.

(٢) المتكلم: عالم بعلم الكلام؛ والكلام: هو علم التوحيد والصفات؛ سُمِّيَ به لأنه يُوْرِث قدرةً على الكلام فى تحقيق الشرعِيَّات وإلزام الخصوم.

(٣) ذكَّره الشيءَ وبالشيء: جعله يذكُرُه، وذكَّر القوم: وعظهم

(٤) أيام الله: نِعَمُهُ ونِقَمُهُ كقصص الأنبياء وأقوامهم، وأيامُ العرب: حروبهم وملاحمهم كيوم ذى قار، ويوم الفُجار

يختاره أهل المتون، ولا تنقيحَ القواعد من قيود غير ضرورية، كما هو صَناعة[1] الأصوليين؛ واختار سبحانه وتعالى في آيات المخاصمة إلزامَ الخصم بالمشهورات المسلَّمة[2] والخَطابيات النافعة[3] لا تنقيحَ البراهين[4] على طريقة المنطقيين[5]؛ ولم يُراع سبحانه وتعالى المناسبةَ في الانتقال من

---

(١) الصناعة: الطريقة.

(٢) أي المسلمة عند عوامهم وخواصّهم، وذلك كقوله تعالى ردًا على أهل الكتابين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ وَالنَّصارىٰ: نَحْنُ أَبْنٰٓؤُا اللّٰهِ وَأَحِبَّاؤُهُ! قُلْ: فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوْبِكُمْ!﴾ (المائدة ١٨) وكحَضروجوبِ الوجود فيه تعالى، وحَضرخلقِ السموات والأرض، فلم يُخالِف فيه مشركو العرب، ولا النصارى ولااليهود؛ بل القرآن الكريم نَاصٌّ على أنه من المقدمات المسلمة عندهم (الحجة ١: ١١٩)

(٣) الخطَابة: (بفتح الخاء مصدر) قياس مركب من مقدّمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه؛ والغرض منها: ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوُعّاظ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وإِنْ كُنْتُمْ فِيْ رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ الآية﴾ (البقرة ٢٣)

(٤) البرهان: هو القياس المؤلف من اليقينيات، سواء كانت بديهيات أو نظريات منتهية إلى البديهيات، فإن كان في القياس استدلال بالعلة على المعلول كالنار يُستدل بها على الدخان، فهو "بُرهان لِمِّيٌّ" وإن كان فيه استدلال بالمعلول على العلة كالدخان يُستدل به على النار فهو "برهان إنِّيٌّ".

(٥) الناس يَنْقسمون إلى طبقتين: عالية وسافلة، فتعليم العالية يكون بالبراهين، وتعليم السافلة بالمشهورات المسلمة السهلة فحسب فإن شأنَهم الإخبارُ الصرف، والتاكيدُ في مقام التردد والإنكارِ؛ والبراهينُ لاتُذكر في القرآن بالصَّراحة على منهج المنطقيين، بل في ضمن المشهورات، بأسلوب ساذَج، لأن المائل إلى دقيق المحاجَّة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام؛ فإن من استطاع أن يُفهِمَ بالأوضح ــ الذى يفهمه الأكثرون ــ لم يَنْحطَّ إلى الأغْمَض الذى لايعرفه إلا الأقلون؛ فأخرج تعالى مخاطباتِه في محاجةِ خلقهِ في أجلِّ صورة، تشتمل على أدقّ دقيق، لِتَفْهم العامةُ من جَليلها ما يُقْنِعُهم ويُلزمهم الحجةَ، وتُفهم الخواصَّ من (==)

موضوع إلى موضوع، كما يراعيها الأدباء المتأخرون؛ بل نشر كل ما أهمّ[1] إلقاؤه على العباد، سواء كان مقدما أو مؤخرا[2]

(—) أثنائها ما يفوق على ما أدركه فهم الخطباء؛ فمن كان حظّه في العلوم أوفر كان نصيبه من علوم القرآن أكثر.

وقال العلامة المحدث الكبير الشيخ أنور شاه الكشميري: اعلم أنه لايليق بالقرآن صورة البرهان، فإنه جرى على طريق التخاطب، بخلاف طريق المخلوق فليس فيه إلا الخطابة، وأما البرهان فطريق مستحدث، وخارج عن طور كلام البلغاء، ومخاطباتهم؛ نعم يكون سطحه خطابيًا، وباطنه برهانا.فإذا قرّر عاد إلى البرهان يسطع ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾وراجع " الشفا" فإنه قال:إن البرهان إنما يتأتى في الاستحالة والوجوب؛وأما في الحسن والقبح والنفع والضرر فلايتأتى فيه إلا الخطابة اه (فيض الباري ٣: ٤٥٨)

(١)أهمّ الأمرُ فلانا: أثار اهتمامه.

(٢)هنا مسئلتان يجب الفصل بينهما:

الأولى: عدم المناسبة والربط فيما بين العلوم الخمسة بأن يُذكر علم فعلم،وكذا عدم المناسبة فيما بين تفاصيل كل علم، بأن يُذكر مسائلُ الطهارة أولاً فمسائل الصلوة، وهذه هي المسئلة المبحوثة فيها هنا، فالله تعالى لم يُراع المناسبة، بل أوضح كلّ ماكان مهما للعباد توضيحُه تقدم أو تأخر، ولم يُلاحظ في الانتقال من مطلب إلى مطلب مناسبة ما، ويأتي الحكمة لذلك مفصلا في الباب الثالث.

والثانية: كون الارتباط والمناسبة بين آيات القرآن المدوّن في المُصحف فلا يُنكره المصنف العلام، وكيف فإنه إنكار أجلى البديهيات، بل يقرر هو بنفسه في ترجمته للقرآن المسماة بفتح الرحمن بمناسبات بين الآيات في غير موضع:

قال في فاتحة قوله تعالى:﴿ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾(الآية ٤٠ من سورة البقرة) امتنّ الله تعالى على بني اسرائيل بآلاءه، وذكر المعجزات التي قد ظهرت فيهم فردَّ شبهاتهم وهفواتهم بالأدلة؛ وهذا البيان يمتدإلى قوله تعالى :﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ الآية(١٢٤) اه.

ثم قال في فاتحة قوله تعالى:﴿ وَإِذ ابْتَلَى﴾: أثبت الله تعالى من هنا إلى قوله:﴿سيقول السفهاء﴾نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم بذكر دعاء إبراهيم، (—)

لايحتاج كل آية إلى سبب النزول

وقد ربط عامة المفسرين كلَّ آية من آيات الجدل والأحكام بقصة،

(—) الذى هومذكور فى التوراة ورجح الملة الحنيفية التى بعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم، وردَّ قول اليهود: أن يعقوب — عليه السلام — أوصاهم باليهودية؛ ونهى عن التفريق بين الأنبياء، بأن يؤمن ببعض ويكفر ببعض اه

ثم قال فى فاتحة قوله تعالى: ﴿سَيَقُوْلُ السُّفَهَاءُ﴾: لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وتمنى أن يجعل الله تعالى الكعبة قبلته، فانزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ ثم أنزل قوله: ﴿سَيَقُوْلُ السُّفَهَاءُ﴾ ردًّا لشبهات السفهاء فى هذه المسئلة.

ثم أمر بالصبر على مَشَاقِّ الجهاد، وعلى كثير من الأحكام من التوحيد والقصاص، والحج، والصوم، والصدقة، والنكاح، والطلاق، التى حرَّفها أهل الجاهلية، أولم يراعوا فيها الإنصاف؛ فبيَّن حقيقةَ تلك الأحكام، وأبطل شبهات المخالفين، وأجاب عن مسئلتهم؛ وهذا البيان يمتد إلى آخرقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوْا﴾ والله أعلم (معربا)

فهكذا يبين الإمام المصنف مناسباتٍ فى القرآن جميعا، فمن فهم من كلامه ههنا أنه ينكر الارتباط فى القرآن فقد وهم، وذهب إلى غير مذهب.

واعلم أن الارتباط فى القرآن على ثلاثة أنحاء:

الأول: بين المباحث العامة(كما ترى الإمام المصنف يقرر فى النص المتقدم ذكره)

والثانى: بين الآيات، فكل آية مرتبط بما قبلها.

والثالث: بين أجزاء الآية — وتفصيل الكلام طويل.

وقال الرازى فى تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودَعة فى الترتيبات والروابط اه. وقال بعض المحققين: قد وَهِم من قال: لايُطْلب للآى الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة.

وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا. وراجع النوع الثانى من البرهان (١:٣٧)

ويظنون أن تلك القصة هى سبب نزولها.

والحق: أن القصد الأصلى من نزول القرآن هو تهذيب النفوس البشرية، ودمغُ العقائد الباطلة، ونفى الأعمال الفاسدة؛ فوجود العقائد الباطلة فى خواطر المكلَّفين سبب لنزول آيات الجدل؛ ووجودُ الأعمال الفاسدة، وشيوع المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام؛ وعدمُ تيقُّظهم وتَنَبُّههم بغير ذكر آلآء الله، وأيام الله،ووقائع الموت وما بعدَه سبب لنزول آيات التذكير(١).

وأما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التى تَجَشَّم المفسرون بيانها فليس لها مدخلٌ فى ذلك ، يُعْتَدُّ به، إلافى بعض الآيات الكريمة، حيث وقعت الإشارة فيها إلى حادثة من الحوادث التى وقعت فى عهد النبى صلى الله عليه

---

(١)قال الإمام المصنف فى حجة الله البالغة(١:٦٧) فى باب الإيمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده لأنه مُنْعِمٌ، عليم مجاز لهم بالإرادة): اعلم أن من أعظم أنواع البر: أن يَعْتَقِدَ الإنسانُ بمَجامع قلبه ـــ بحيث لايحتمل نقيض هذا الاعتقاد عنده ـــ:أن العبادة حق الله تعالى على عباده، وأنهم مُطَالَبون بالعبادة من الله تعالى، بمنزلة سائر مايُطَالبه ذوو الحقوق من حقوقهم، قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ:" يا مُعاذ هل تدرى ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟" قال معاذ: الله ورسوله أعلم؛ قال: "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولايشركوا به شيئا؛ وحقُّ العباد على الله تعالى أن لايَعَذِّب من لايشرك به شيئا"

ثم مكَّنت الشرائع الآلهيةُ هذه المعرفة الغامضة من نفوسهم بثلاث مقاماتٍ مسلمة عندهم،جارية مجرى المشهورات البديهية بينهم.

أحدها: أنه تعالى مُنْعِمٌ، وشكر المنعم واجب، والعبادة شكرله على نعمه.

والثانى: أنه يجازى المعرضين عنه، التاركين لعبادته، فى الدنيا أشد الجزاء.

والثالث:أنه يُجازى فى الآخرة المطيعين والعاصين،

فانبسطت من هنالك ثلاثة علوم: علم التذكير بآلآء الله، وعلم التذكير بأيام الله،وعلم التذكير بالمعاد،فنزل القرآن العظيم شرحًا لهذه العلوم.

وسلم، أو قبلَه ؛ ولايزول ما يَعْرِض للسامع من الترقب والانتظار، عند سماع ذلك التعريض إلا ببسط القصة؛[1] فلزم أن نشرَح هذه العلوم [2] بوجهٍ لانحتاج إلى إيراد القصص الجزئية

الفصل الأول[3]

فى
علم الجدَل[4]

قد وقعت المخاصمة فى القرآن العظيم مع الفِرَقِ الأربع الضالّة: المشركينَ واليهودِ والنصارى والمنافقين ؛ وهذه المخاصمة على طريقين:

الأول: أن يذكر سبحانه وتعالى العقيدةَ الباطلة، مع التنصيص على شَناعتها، ويذكر استنكارَها فحَسْب[5].

---

(١)سيأتى البحث مفصَّلا حول أسباب النزول فى الباب الثانى فى الفصل الثالث، وفى الباب الرابع فى الفصل الأول.

(٢)يعنى العلوم الخمسة التى هو بصدد ذكرها.

(٣)ذكر الإمام المصنف فى الفصل الأول علمَ الجدل مع الفرق الأربع الضالة وفى الفصل الثانى بقية العلوم الخمسة ، فبدأ بعلوم التذكير الثلاثة، ثم ثَنّىٰ بمباحث الأحكام؛ ففى الكلام لف ونشر مشوَّش ، فتنبه له.

(٤)يقال لعلم الجدَل: علم المناظرة والمخاصمة أيضًا ؛ والمراد به هنا: أن النفوس السِّفْلية إذا تولَّدت بينها شُبُهات تُدافع بها الحقَ ، فكيف تُحَلُّ تلك العُقد؟ قاله المصنف فى الحجّة (١:٤٨)

(٥)وذلك كقوله تعالى:﴿ قَالُوْا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا، مَّالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ.إِنْ يَقُوْلُوْنَ إِلاَّ كَذِبًا﴾(الكهف ٤-٥)وراجع الآيات ٨٨-٩٣ من سورة مريم وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُوْنَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ ـــ سُبْحٰنَهُ ـــ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُوْنَ﴾(النحل ٥٧) قال الزركشى: فاعتراض (سبحانه) لغرض التنزيه والتعظيم، وفيه الشناعة على من جعل البناتِ للّٰه.

والثانى: أن يُبيِّنَ شُبُهاتِهم الواهية ويذكر حلّها بالأدلة البرهانية أو الخَطابية[1]

ذكر المشركين

وقد كان المشركون يُسَمُّوْن أنفسهم حُنَفَاءَ[2] ويدَّعون التديُّن بملة سيدنا إبراهيم عليه السلام[3]؛ وإنما يقال "الحنيف" لمن تديَّن بالملة الإبراهيمية، والتزم شِعارها.

شعائر الملّة الإبراهيمية:

وشعائرها: حِجُّ البيت الحرام، واستقبالُه فى الصلوات، والْغُسل من الجنابة،

(١) إن البراهين لاتُذكر فى القرآن بالصراحة، بل فى ضمن المشهورات المسلمة بأسلوب ساذج كما تقدم ذكره فى ص ٢٧

(٢) الحنفاء جمع حنيف على زِنَةِ فعيل: المائل عن الأديان كلها إلى الدين القويم؛ من الحنف وهو الميل ؛ وفى الاصطلاح : كل من كان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو حنيف .

قال الإمام فى فتح الرحمٰن: المهتدين بشريعة إبراهيم، من المناسك والختان وغسل الجنابة واستقبال الكعبة اه وقال الراغب فى مفرداته: سَمَّتِ العربُ كلَّ من حَجَّ أو اخْتتن حنيفا، تنبيها على أنه على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

(٣) ذكر ابن هشام فى السيرة (١: ٢٤٢) عن ابن إسحاق أنه قال: اجتمعت قريشٌ يوما فى عيد لهم، عند صنم من أصنامهم، كانوا يُعظّمونه وينحرون له ويَعْكفون عنده، فخلص منهم أربعة نفرنَجيًّا، وهم: وَرَقة بن نَوْفل، وعبيد الله بن جَحْش، وعثمان بن الحُوَيْرِث، وزيد بن عمرو بن نُفَيل؛ ثم قال بعضهم لبعض: تَصادقوا، ولْيَكْتُم بعضكم على بعض، قالوا: أَجَل! فقال بعضهم لبعض: تَعَلَّمُوا، والله! ماقومُكم على شيئ! لقد اخطئوا دينَ أبيهم إبراهيم! ما حجرٌ يُطيف به؟ لا يسمع ولايبصر، ولايضر ولا ينفع! يا قوم! التَمسوا لأنفسكم فإنكم والله! ما أنتم على شيئ، فتفرقوا فى البلدان، يلتمسون الحنيفية: دينَ إبراهيم اه وقال أبو الصلت بن ربيعة الثقفى، ويذكر الحنيفية: دينَ إبراهيم:

كلُّ دينٍ يومَ القيٰمة عند اللّٰـــه إلا دينَ إبراهيمَ بُوْرُ

قوله: بور أى هالك من البوار وهو الهلاك ،ويروى : "زور"

والاختتان ،وسائرخِصال الفطرة [1] وتحريم الأشهر الحرم، وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرمات النسبية والرّضاعية، والذبح فى الحَلْقِ، والنّحْر فى اللَّبَّة[2]، والتقرب بالذبح والنحر إلى الله تعالى، لاسيما فى أيام الحج.

شرائعها

وقدكان الوضوء والصلاة، والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ،والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانةُ على نوائب الحق، وصلة الأرحام مشروعةً [3]فى أصل الملة، وكان التمدُّح بهذه الأعمال شائعا فيما بينهم[4]، إلا أن جُمهور المشركين قد تركوها، حتى صارت هذه الأعمال فى

---

(١)خصال الفطرة: هى قصُّ الشارب، وإعْفاء اللّحْيَةِ، والسّواك، واستنشاق الماء، وقصُّ الأظفار، وغَسل البراجِم، ونَتْف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء قال الراوى : ونسيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضةَ (رواه مسلم وأبو داود،والترمذى، والنسائى، والبيهقى،وأحمد، عن عائشة رضى الله عنها،مشكوة رقم الحديث ٣٧٩) وفى رواية: الْخِتَان بدل إعفاء اللحية (رواه أبو داود عن عمار بن ياسر رضى الله عنه)

(٢)اللَّبَّةُ: موضع القلادة من الصدر، وذلك مأخوذ من لُبِّ الشيئ أى: خالصه وخياره.

(٣)قوله:(مشروعةً) خبر لكان الناقصة.

قال الإمام فى حجة الله البالغة (١:٢٧٨): وهذا الوضوء يفعله المجوس واليهود وغيرهم وكانت تفعله حكماء العرب وكانت فيهم الصلاة، وكان أبو ذر رضى الله عنه يصلى قبل أن يَقْدِمَ على النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين،وكان قُسُّ بن سائدة الأيادى يصلى،والمحفوظ من الصلوة فى أمم اليهود والمجوس، وبقية العرب: أفعال تعظيمية، لاسيما السجود، وأقوال من الذكر والدعاء اه.

(٤)قال الإمام فى حجة الله (١:٢٧٨) وكانت فيهم الزكوة،وكان المعمول عندهم منها: قِرى الضَيفِ وابن السبيل وحَمْلُ الكَلِّ والصدقةُ على المساكين وصلة الأرحام، والإعانة فى نوائب الحق؛ وكانوا يُمْدَحُوْنَ بها، ويعرفون أنها كمال (=)

حياتهم العملية كأن لم تكن شيئًا.

وقد كان تحريم القتل والسرِقة والزنا والربا والغصب أيضًا ثابتا فى أصل الملة؛ وكان استنكار هذه الأفعال باقيا عندهم فى الجملة[١]؛ ولكنَّ جهمورَ المشركين كانوا يرتكبونها، ويتَّبعون النفس الأمَّارة فيها[٢].

(=) الإنسان وسعادته، قالت خديجة رضى الله عنها: فوالله! لايُخْزِيْك اللهُ أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَقْرِى الضيف، وتَحْمِلُ الكلَّ، وتُعِيْن على نوائب الحق، وقال ابن الدَّغِنَة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه مثل ذلك، وكان فيهم الصوم من الفجر إلى غروب الشمس وكانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية اه.

(١) قال زيد بن عَمروبن نُفَيْل:

عَجِبْتُ وفى الليالى مُعْجِبَات ... وفى الأيام، يَعْرِفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا ... كثيرًا، كان شأنَهم الفجور

(٢) قال الإمام فى حجة الله البالغة: ولايُنافى ماقلناه وجودُ فِرقتين فيهم، وظهورُهما وشيوعُهما:

أحدهما: الفُسَّاق والزنادقة:

فالفساق يعملون الأعمال البهيمية أو السَبُعِيَّة بخلاف الملة، لغَلَبَةِ نفوسهم وقلة تَدَيُّنهم، فأولئك إنما يخرجون عن حكم الملة شاهدين على أنفسهم بالفسق.

والزنادقة يُجْبَلوْن على الفهم الأبتَر، لايستطيعون التحقيق التام الذى قصده صاحب الملة، ولايقلّدونه، ولايُسلمونه فيما أخبر، فهم فى ريبهم يترددون، على خوف من ملأهم، والناس ينكرون عليهم، ويرونهم خارجين من الدين، خالِعِيْن رِبْقة الملة عن أعناقهم؛ وإذا كان الأمر على ماذكرنا من الإنكار وقُبح الحال فخروجهم لايَضُرُّ؛

والثانية: الجاهلون الغافلون الذين لم يرفعوا رؤوسهم إلى الدين رأسا، ولم يلتفتوا لِفْتَةً أصلا، وكان هؤلاء أكثرَ شيئ فى قريش، وماوالاه لبُعْدِ عهدهم من الأنبياء، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتٰهُم مِنْ نَذِيرٍ﴾ (١: ٢٧٣ فى باب بيان ماكان عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبى صلى الله عليه وسلم)

عقائدها:

وقد كانت عقيدة إثبات الصانع سبحانه وتعالى، وأنه هو خالق الأرض والسماوات الْعُلى، وأنه مدبِّر الحوادث العظام، وأنه قادرعلى إرسال الرسل وجزاءِ العباد بما يعملون، وأنه مقدِّر للحوادث العظيمة قبل وقوعها، وأن الملائكة عباده المقرَّبون، وأنهم يستحقوق التعظيم، كلُّ ذلك كان ثابتًا عندهم، ويدل على ذلك أشعارهم[1]؛ ولكنَّ جمهور المشركين قد وقعوا فى شبهات كثيرة تُجَاه[2] هذه المعتقَدات لاستبعادها، وعدم ألفتهم بإدراكها.

ضلال المشركين

وكان من ضلالهم: الشركُ، والتشبيه، والتحريف، وجحود الآخرة، واستبعاد رسالة النبى صلى اللّٰه عليه وسلم، وشيوعُ الأعمال القبيحة والمظالم فيما بينهم، وابتداع التقاليد[3] الباطلة، واندراس العبادات.

بيان الشرك

والشرك: أن يُثبت لغير اللّٰه تعالى شيئاً من الصفات المختصة به تعالى كالتصرف فى العالم بالإرادة ـــ الذى يعبرعنه بـ ﴿كُنْ فيكونُ﴾ـــ أو العلمِ الذاتى ـــ غيرالمكتسب بالحواس ودليل العقل والمنام والإلهام ونحو ذلك ـــ أو الإيجادِ لشفاء المريض،أواللَّعْنِ على شخص والسَخَط عليه حتى يُقْدَر عليه

---

(١) قال أبوالصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن " الفيل":

إن آياتِ ربِّنا ثاقِبَات ... لايُمارى فيهن الاالكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبينٌ، حسابه مقدور
ثم يَجْلو النهار رَبٌّ رحيم ... بمهاة، شعاعها منشور

المهاة: الشمس

حبس الفيل بالمغمس حتى ... ظلَّ يَحْبُوْ كأنَّه معقور

المغمس: اسم موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة.

(٢) التُجَاهُ(مثلَّثة التاء): الوجهُ الذى تقصُده، ويقال: قعدتُ تُجاهَك أى تِلقاءَ وجهك(وأصله: وِجَاهٌ)

(٣) التقَاليد: العادات والرسوم المتوارثة التى يقلَّد فيها الخلفُ السلفَ، مفردها: تقليد.

الزرق، أو يَمْرَض، أو يشقى بسبب ذلك السخط، أو الرحمةِ لشخص حتى يُبْسَط له الزرقُ، ويَصِحَّ بدنُه، ويَسْعَدَ بسبب هذه الرحمة.[1]

ولم يكن هؤلاء المشركون يشركون أحداً في خلق الجواهر،[2] وتدبير الأمور العظام، ولايُثبتون لأحد قدرةَ الممانعة[3] إذا أبرم[4] الله تعالى أمرًا؛ وإنما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، ويظنون أن سلطانا عظيما من السلاطين كما يرسل عبيده المخصوصين إلى نواحي مملكته، ويجعلهم مختارين متصرفين في أمور جزئية، إلى أن يصدر عنه حكم صريح في أمر خاص، ولايقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يَكِلُ الرعيةَ إلى الولاة والحكام، ويقبل شفاعتهم في حق الذين يخدمونهم، ويتوسلون بهم؛ كذلك قد خلع الملِك على الإطلاق[5] على بعض عباده خِلْعةَ الألوهية، وجعل سخطهم ورضاهم مؤثرًا في عباده الآخرين. فيرون التزلُّف[6] إلى أولئك العباد المقربين واجبًا ليتيسرلهم حسن القبول في حضرة الملك المطلق، وتُقبل شفاعتهم للمتقرِّبين بهم في مجارى الأمور[7]

وكانوا يجوِّزون نظرًا إلى هذه الأمور: أن يُسجدلهم، ويُذبح لهم، ويُحْلف بهم، ويستعان بقدرتهم المطلقة في الأمور المهمة. ونحتوا صُوَرًا

---

(١) والحاصل: أن الصفاتِ المذكورةَ من التصرف في الكون، والعلم الذاتي، وإيجاد الشفاء، واللعن والسخط والرحمة كُلُّها مختصة بالله تعالى، فمن أثبت شيئا منها لغيره تعالى فقد أشرك.

(٢) جمع الجوهر، وهوماقام بنفسه، ويقابله العرض، والمراد: المكوَّنات المادية.

(٣) الممانعة: المنازعة.

(٤) أبرم الأمر: أحكَمه يقال: قضاء مبرم أى: قاطع لامناص منه.

(٥) قوله: على الإطلاق أى الكامل في التصرف، يفعل ما يشآء؛ من أطلق له التصرفَ: أباحه.

(٦) التزلف: التقرُّب وزَلَف(ن) إليه زَلْفًا: دَنا منه، وزَلَّفَ الشيئَ: قَرَّبه.

(٧) مجارى الأمور: هى الأمور العامة، ومادون الأمورالعظام؛ والمجارى جمع المجرى أى المَمَرّ عمومًا، مثلاً: مجرى الشمس.

كصورهم من الحجر والصُّفر وجعلوها قبلة للتوجه إلى تلك الأرواح؛ حتى اعتقد الجهال شيئا فشيئًا تلك الصُّورَ معبودةً بذواتها؛ فتَطَرّق[١] الفساد العظيم إلى المعتقدات.

بيان التشبيه:

والتشبيه: عبارة عن إثبات الصفات البشرية لله تبارك وتعالى، فكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله[٢]، وإنه تعالى يقبل شفاعة عباده، وإن لم يرضَ بها،[٣] كما يفعل الملوك أحيانا مثلَ ذلك مع الأمراء الكبار؛ ولما لم يستطيعوا إدراكَ علمِه تعالى وسمعه وبصره، كما يليق بشأن الألوهية، قاسوها على علمهم وسمعهم وبصرهم، فوقعوا في عقيدة التجسيم، ونسبوا التحيز إلى الله تعالى شأنه[٤].

---

(١) تطرق إليه: ابتغى إليه طريقًا.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِيْنَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا﴾ (سورة الزخرف ١٩) وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شٰهِدُوْنَ؟﴾ (الصّٰفّٰت ١٥٠)

(٣) قال الله تعالى ردًا على عقيدتهم: ﴿وَلاَ يَشْفَعُوْنَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضٰى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهٖ مُشْفِقُوْنَ﴾ (الأنبياء ٢٨)

(٤) أي: لما لم يهتدوا إلى فهم حقيقة علمه تعالى وسمعه وبصره ــ الذي يليق بجناب الألوهية ــ قاسوها على علمهم وسمعهم وأبصارهم فوقعوا في القول بالتجسيم والتحيز.

ثم اعلم أن التجسيم عقيدةُ أن الله تعالى له جسم كأجسامنا، أي هو وجود ذوأبعاد ثلاثة من الطول والعرض والعمق، ومنه "المجَسَّم": كل ماله طول وعرض وعمق.

والتحيز: عقيدة أن الله تعالى متمكن في مكان بحيث يَنْفُذ بُعْدُ جسم في بعد جسم آخر؛ والحَيْز والحَيِّز: المكان.

ثم إن شئت أن تستجْلِيَ حقيقةَ الحال فعليك أن تقرأ النصوصَ الآتية:

"مُعْظَمُ الخطأ شيئان: أن يُعتقد في الواجب صفاتُ المخلوق، أو يُعتقد في المخلوق صفات الواجب، فالأول هو التشبيه، ومنشأه: قياس الغائب على الشاهد، (=)

....

(=) والثانى هو الإشراك، ومنشأه: رُؤية الآثار الخارقة من المخلوقين، فيُظن أنها مضافة إليهم بمعنى الخلق وأنها ذاتية لهم (حجة الله البالغة ١ :٥٧ فى باب الحُجب المانعة عن ظهور الفطرة)

واعلم أن للتوحيد أربعَ مراتب:

أحد يها: حصر وجوب الوجود فيه تعالى، فلايكون غيره واجبا.

والثانية: حصرُ خلق العرش والسمٰوات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى — وهاتان المرتبتان لم تَبحث الكتب الإلٰهية عنهما، ولم يخالف فيهما مشركو العرب، ولا اليهود ولا النصارى، بل القرآن العظيم ناصٌّ على أنهما من المقدِّمات المسلمة عندهم.

والثالثة: حَصر تدبير السمٰوات والأرض وما بينهمافيه تعالى.

والرابعة: أنه لايستحق غيره العبادةَ وهما مُتشابكتان، مُتلازِمَتانِ لربط طبيعى بينهما — وقد اختلف فيهما طوائف من الناس مُعْظَمُهم ثلاث فرق:

النجَّامون: ذهبوا إلى أن النجوم تستحق العبادة، وأن عبادتها تنفع فى الدنيا ورفعُ الحاجات إليها حق، قالوا: قد تَحقَّقْناأن لها أثراً عظيما فى الحوادث اليومية، وسعادة المرء وشقاوته، وصحته وسقمه، وأن لها نفوسا مجردة عاقلة، تبعثها على الحركة، ولا تغفل عن عُبادها؛ فَبنَوْا هياكل على أسمائها وعَبدُوها.

والمشركون: وَافقُوا المسلمين فى تدبير الأمور العظام، وفيما أَبْرم وجَزم، ولم يَترك لغيره خِيَرَة ولم يوافقوهم فى سائر الأمور؛ وذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله وتقربوا إليه، فأعطاهم الله الألوهيةَ، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله، كما أن مَلِك الملوك يخدمه عبده، فيحسن خدمتَه، فيعطيه خِلعة الملك، أويُفوِّض إليه تدبير بلدٍ من بلاده فَيستَحِقّ السمع والطاعة من أهل ذلك البلد؛ وقالوا: لاتقبل عبادة الله إلا مضمومةً بعبادتهم، بل الحق فى غاية التعالى فلا تفيد عبادته تَقرُّبًا منه، بل لابد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى الله زلفى، وقالوا: هؤلاء يَسْمعون ويُبصرون، ويشفعون لعبّادهم، ويُدبّرون أمورهم، وينصرونهم، فَنحَتُوا على أسماء هم أحجارا وجعلوها قِبلَةً عند توجههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدِهم خَلْفٌ، فلم يَفطِنُوا للفرق بين الأصنام، وبين من هى على صورته، فظنُّوها معبودات بأَعْيانها (=)

بيان التحريف

وأما التحريف فإن قصته: أن أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدِّهم الكريم: سيدِنا إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام،حتى جاء عصرعمرو بن لُحَيّ(١) ــ لعنه الله ــ فوضع لهم الأصنامَ، وشرع لهم عبادتَها

(ـــ) ولذلك رد الله تعالى عليهم، تارة: بالتنبيه على أن الحكم والمُلْكَ له خاصةً، وتارةً: ببيانِ أنها جمادات ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُوْنَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُوْنَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُوْنَ بِهَا؟! أَمْ لَهُم آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟!﴾(الأعراف ١٩٥)

والنصارى: ذهبوا إلى أن للمسيح ــ عليه السلام ــ قُرْبًامن الله، وعُلُوًّا على الخَلْقِ، فلاينبغى أن يُسَمَّى عبدًا، فَيُسَوَّى بغيره، لأن هذا سوءُ أدبٍ معه، وإهمالٌ لقربه من الله؛ ثم مَالَ بعضُهم عند التعبير عن تلك الخصوصية إلى تَسْمِيَتِه " ابنَ الله " نظرًا إلى أن الأب يَرحم الابن، ويُرَبِّيْه على عَيْنَيْهِ، وهو فوق العبيد، فهذا الاسم أولىٰ به،وبعضُهم إلى تَسْمِيَتِه بالله، نظرًا إلى أن الواجب حَلَّ فيه، وصار دَاخِلَه، ولهذا يَصْدُرُ منه آثارٌ لم تُعْهَد من الْبَشَرِ، مثلُ إحياء الأموات وخلق الطير، فَكلامُه كلام الله، وعِبادتُه هى عبادة الله، فخلف من بعدهم خَلْفٌ لم يَفْطِنُوا لوجه التسمية، وكادوا يجعلون البنوة حقيقية ويَزْعَمُوْن أنه الواجب من جميع الوجوه، ولذلك ردَّ الله تعالى عليهم تارة بأنه لاصاحبة له، وتارةً: بأنه بديع السمٰوات والأرض، إنما أَمْره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

وهذه الفرق الثلاث لهم دعاوى عَرِيْضة، وخرافاتٌ كثيرة، لاتخفى على المُتَتَبِّع، وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم، وردّ على الكافرين شبهتَهم ردا مُشبعًا. (حجة الله البالغة ١: ٥٩- ٦٠ فى باب التوحيد من المبحث الخامس من القسم الأول)

(١)عَمْرو بن لُحَيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا الأزدى، من قحطان: أول من غَيَّر دينَ إسماعيل،ودعا العرب إلى عبادة الأوثان، كنيته أبو ثمامة، وفى نسبه خلاف شديد، وفى العلماء من يجزم بأنه مُضَرِيّ من عدنان، لحديث انفرد به أبو هريرة،وهو جد " خزاعة" عند كثير من النسابين، ورئيسُها عند بعضهم؛ ومعظَمُهم يسميه عمرو بن عامر بن لحى ويقولون إنه نسب إلى جده، وفيهم من يُسَمّيه (ـــ)

واخترع لهم تحريرَ البحائروالسوائب والْحَامِى،والاستقسامَ بالأزلام (١)

(=) "عمرو بن ربيعة" ويجعل لَحُيًّا لقبا لربيعة.

وخلاصة ما قيل فى خبره: أنه كان قد تولى حِجَابَةَ البيت الحرام بمكة، وزار بلاد الشام، ودخل أرض "مآب" فى وادى الأردن، بالبلقاء وبها يومئذ "العمالق" فوجد أهلها يعبدون الأصنام، وكانت قد انتشرت فى مكة عادة أوعقيدة بأن أحدهم إذا أراد السفر منها حمل معه حجرًا من حجارة الحرم يتيمن به، وانتقل بعضهم من ذلك إلى تقديس ذلك الحجر، والطواف له، ثم كانوا يختارون أىَّ حجر يُعْجبهم من أى مكان، فيطوفون حوله كما يطوفون حول الكعبة، وأعجب عمرو بأصنام " مآب" فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فَنَسْتَمْطِرها فتُمْطِرنا، ونَسْتَنْصِرها فَتَنْصُرنا، فقال لهم: أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأَعْطوه صنما يقال له "هُبَل" فنصبه بمكة، ودعا الناس إلى تعظيمه، وعبادته، والاستشفاء به، ويُظَنّ أنه كان فى أوائل القرن الثالث من الميلاد.

(من الأعلام للزرِكْلى ٥: ٢٥٧ والسيرة لابن هشام ١: ٨٢، والبداية والنهاية لأبى الفداء ابن كثير ٢: ١٨٧-١٨٩ وفيه: " أن عمرو بن لحى أول من لبّى بلبيك اللّهم لبيك، لبيك لاشريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحَّالة ص٢٣٨، وفتح البارى للحافظ العسقلانى ٦: ٣٩٨ وفيه حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" عمرو بن لحى بن قَمَعَةَ بن خِنْدَف أبو خزاعة" (وهذا يدل على أن خزاعة من مضر، وذلك لأن خِندفًا اسم امرأة إلياس بن مضر)

(١) أى: سَنَّ لهم تسييبَ البحائر، والسوائب، والحامى والاستقسام بالأزلام:

فالبحائرجمع بَحِيْرَةٍ، وهى الناقة تشق أذنها، فلايركب ظهرها، ولايقطع وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، أو يتصدق به، وتهمل وتترك لآلهتهم؛ وهى بنت السائبة.

والسوائب جمع السائبة، وهى: الناقة إذا تابعت بين عَشر إناث، ليس بينهن ذكر، سُيِّبَت، فلم يُركب ظَهْرُها، ولم يقطع وبرها، ولم يشرب لبنها،إلا (=)

وأمثالَ هذه الطُّقوس.[1] وقد كان هذا الحادث[2] قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم بقُرابةِ ثلاثِ مائةِ سنةٍ ،وكانوا يتمسكون فى هذا الباب[3] بآثار آبائهم، ويرونها من الحجج القاطعة.

جحود الآخرة

وقد بين الأنبياء السالفون الحشر والنشر؛ولكن لم يكن ذلك البيان

(=) ضَيْف كذا قاله ابن إسحاق، وقال تليمذه ابن هشام: هى التى يَنْذر الرجل أن يُسَيِّبها إن برئ من مرضه أو إن أصابَ أمرًا يطلبه.

والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهن ذكر، حَمِى ظهره، فلم يركب ظهره، ولم يُجَزّ وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها، لاينتفع منه بغير ذلك.

والاستقسام: طلب الشخص معرفةَ ما قسم له مما لم يقسم، والأزلام جمع زَلَمٍ وهو القدح.

وخلاصة الأمر:أن الاستقسام قسمان: عام وخاص، فالعام: مايزاوله كل واحد، بأن يعمد إلى ثلاثة قداح مكتوب على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الآخر (نهانى ربى) والثالث غُفْل، ليس عليه شيئ، فيضعها فى خريطة، ويجيل المستقسم يده فيها، ثم يخرج منها واحدا، فإن خرج القدح الآمر مضى المستقسم فى حاجته وإن خرج الناهى عدل عن المضى فى حاجته، وإن خرج الغفل أعاد إجالة القداح.

والخاص: وهو مايراد منه الحكم، لامحض الاستشارة، ويكون لدى سادن الصنم، كما إذا أرادوا معرفة من عليه عَقْل الدية أو غير ذلك، قال ابن إسحاق: كان عند هُبُل سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه، ولم يعدلوا عنه. ومن يريد الزيادة فعليه بكتاب أديان العرب للجارم، والميسر والقداح لابن قتيبة، والأصنام للكلبى، ومعجم القرآن لعبد الرؤف المصرى .

(١)الطقوس جمع الطَّقْس: وهى المراسيم الدينية.

(٢) يعنى وقعةَ عمرو بن لحى.

(٣) يعنى فى جواز عبادة الأصنام.

بشرح وبسط مثلَ ما تَضَمَّنه القرآن العظيم، ولذلك كان جمهور المشركين قليلى الاطلاع عليه ،وكانوا يستبعدون وقوعه[١].

استبعاد رسالة النبى صلى الله عليه وسلم

وهؤلاء الجماعة [٢] وإن كانوا معترفين بنبوة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام؛بل بنبوة سيدنا موسى عليه السلام أيضًا[٣]ولكن كانت الصفاتُ البشرية ــــ التى هى حجاب لجمال الأنبياء الكامل[٤]ــــ تشوِّشُهم تشويشًا[٥]؛ وكذلك لمّا لم يعرفوا حقيقة تدبير الله الذى هو مقتضِى بعثةَ الأنبياء، اسْتَبْعَدُوا الرسالةَ، لاعتقادهم أن الرسول ينبغى أن يكون مثل المرسِل[٦]، فكانوا يوردون لأجل ذلك شبهاتٍ واهيةً، غيرَ مسموعةٍ، فيقولون

(١)فتارة يقولون: ﴿مَنْ يُحيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟﴾(سورة يس ٧٨)وأحيانا يسئلون: ﴿ءَ إذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَّعِظَامًا ءَ إنَّا لَمَبْعُوْثُوْنَ ﴾(سورة الصّفّت ١٦) وأونة يدَّعون: ﴿إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ﴾(سورة الأنعام ١٩) ﴿وَقَالُوْا مَاهِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، نَمُوْتُ وَنَحيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾(سورة الجاثية ٢٤).

(٢) يعنى المشركين.

(٣)مع كونه عليه السلام من غير آبائهم.

(٤)أى تحول تلك الصفات بين الأنبياء وبين جمالهم الحقيقى، وتَحْجبُهُم، فلا يُدركون ذلك الجمال الكامل لجهلهم.

(٥)شَوَّس الأمر: صَيَّره مضطربا.

(٦)أى كانوا يستبعدون ذلك لما أنهم ألفوا المماثلة بين الرسول والمرسِل، ولم يعرفوا حقيقةَ تدبير الله عزوجل الذى هو مقتَضِى بعثةَ الأنبياء.

واعلم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الرُّسُل من جنس المرسَل إليهم، فإن الشخص أعرف بأحوال أبناء جنسه، وأبصربمواقع الفساد والخلل من عقائدهم وأعمالهم، فيكون هو أقدرَ على إصلاحهم، قال ابن كثير فى تفسيره(٣ : ٦٤) قال تعالى مُنبهًا على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه، ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى (=)

مثلاً: كيف يكون النبى محتاجًا إلى الطعام والشراب؟[1] ولما ذا لم يرسل اللّٰه مَـلَكا رسـولاً؟[2] ولمـاذا لايُـوحى إلى كل أحد على حدة؟[3] وعلى هذا الأسلوب [4].

نَموذَج المشركين

وإن كنت غيرَ مُهتدٍ فى تصوير[5] حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم، فانظر إلى حال المحترفين[6] من أهل عصرنا، لاسيما الذين يقطُنون منهم بأطراف دار الإسلام[7] ماهى تصوراتهم عن "الولاية"؟ فمع أنهم يعترفون بولاية الأولياء

(=) البشر رسولا من الملائكة لما استطاعو مواجهته، ولا الأخذ عنه ــــ ولهذا قال ههنا: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلٰئِكَةٌ يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ﴾ أى كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُوْلاً﴾ أى من جنسهم، ولمَّا كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رُسُلاً منكم لطفًا ورحمةً انتهى.

(١) قال تعالى حاكيًا قولهم: ﴿وَقَالُوْا مَالِهٰذَا الرَّسُوْلِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِىْ فِىْ الأَسْوَاقِ﴾ (سورة الفرقان ٧)

(٢) أى: لو أراد اللّٰه أن يبعث نبيا لبعث مَلَكا من عنده، قال اللّٰه تعالى حاكيًا قولَ قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لأَنْزَلَ مَلٰئِكَةً، مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا﴾ أى ببعثة البشر ﴿فِى آبَائِنَا الأَوَّلِيْنَ﴾ (سورة المؤمنون ٢٤)

(٣) يقول اللّٰه تعالى مخبرًا عن تعنتهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِيْنَ لاَيَرْجُوْنَ لِقَاءَ نَا: لَوْ لاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰئِكَةُ﴾ (سورة الفرقان ٢١) أى بالرسالة كماتنزل على الأنبياء كما أخبر اللّٰه عنهم فى الآية الأخرى: ﴿ قَالُوْا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتٰى مِثْلَ مَا أُوْتِىَ رُسُلُ اللّٰهِ﴾ (سورة الأنعام ١٢٤)

(٤) اقرأ الآيات ٩٠-٩٣ من سورة بنى إسرائيل.

(٥) صوَّر الأمر: وصفه وصفاً يكشف حاله كشفاً بينا.

(٦) احترف: اتَّخذ حِرْفة فهو مُحْتَرِف.

(٧) أى لِمَا أنهم يسكنون بنواحى دار الإسلام وأرجائها يكونون جاهلين من الدين.

ودار الإسلام: حيث ظهرت شعائر الإسلام وشاعت، قال الإمام: وفضائل الأذان ترجع إلى أنه من شعائر الإسلام، وبه تصير الدارُ دارَ الإسلام. (حجة اللّٰه ١: ٤٧٥)

المتقدمين،يرون وجود الأولياءِ فى هذا العصرمن قبيل المستحيلات، ويذهبون إلى القبور والعتبات، ويرتكبون أنواعًا من الشرك(١)؛وكيف تَطَرَّق(٢) إليهم التشبيهُ والتحريف؟ونرى طَبْقَ الحديث الصحيح: "لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم"(٣): أنه مامن بلية من البلايا إلاوطائفة من أهل عصرنا يرتكبونها،

(١) أى هم لايستفيدون من الأولياء الأحياء، بل يذهبون إلى الأموات،ويرتكبون هناك البدع والخرافات.

قال الإمام المصنف فى التفهيمات الإلٓهية(٢: ٥٣) ومن أعظم الأمراض فى زماننا هذا: عبادَتُهم شيوخَهم أحياء، أو لقبورهم أمواتًا؛ والجَهلَة يقتدون بكَفَرَةِ الهند فى عبادة أصنامهم فى فعالهم.

وأما الإشراك بالله استعانةً: فحدُّه: أن يطلب من أحد حاجته عالما بأن فيه قدرةَ انجاحِها، من صرف الإرادة النافذة، كالشفاء فى المرض، والإحياء والإماتة، والرزق ، وخلق الولد، وغيرها،مما يتضمنه أسماء الله تعالى.

والإشراك بالله دعاءً:فحده: أن يذكر غير الله سبحانه، عالما بأن فعله ذلك نافع له فى معاده، أو قرَّبه إلى الله، كما يذكرون شيوخهم إذا أصبحوا.

والإشراك بالله ذَبْحا، فحده: أن يذبح أو يُسَيِّبَ حيوانا لأحد، بحيث إن لم يذبح هذا الحيوان لم تُكشف الحاجة التى فى صدره.

والإشراك بالله فى النذور والأيمان، فحده أن يجد وجوبا بشرف اسْمه، وتألُّه ذاته انتهى.(ولعل الصحيحَ: أن ينذِر وجوبًا ألخ)

وقد تكلم الإمام المصنف على أقسام الشرك مبسوطا فى حجة الله البالغة (١: ١٢٥ - ١٢٨) فى باب أقسام الشرك فراجعه من المبحث الخامس من القسم الأول.

واعلم أن أنواع الشرك التى دَبَّت فى المسلمين أغلظُ وأدهى من إشراك المشركين، لأن هؤلاء يخلصون لله تعالى فى الشدائد، وأولئك يدعون مشايخهم فى الشدَّة والرخاء. والله المستعان.

(٢)تطرَّق إليه: سَارَ حتى أتاه.

(٣)قوله: لتتبعن أى: لتسلكن ولتركبن من باب سمع: تبعه ومشى خلفه ومضى معه وانقاد إليه وقوله: سَنَن بفتح السين: طريق، والحديثُ كناية عن شدة (=)

ويعتقدون مثلها، عافانا الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وبالجملة:[١] فإن الله تعالى بعث سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ـــ بفضله ورحمته ـــ فى العرب، وأمره بإقامة الملة الحنيفية، وخاصمهم[٢] فى القرآن العظيم، واستدل فى المخاصمة بمسلّماتهم التى هى من بقايا الملّة الحنيفية، ليتحقق الإلزام.

فردُّ الإشراك:

أولاً: بمطالبتهم بالدليل على ما يزعمون، ونقضِ تمسكهم بتقليد آبائهم[٣]

وثانيا: بإثبات عدم التساوى بين هؤلاء العباد وبين الرَّب تبارك وتعالى؛ وبيانِ اختصاصه تعالى باستحقاق أقصى غاية التعظيم، بخلاف هؤلاء العباد[٤].

(ـــ) الموافقة لهم فى المخالفات والمعاصى، لاالكفر، والحديث رواه الشيخان وأحمد والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنه والحاكم بزيادة، وتمام الحديث: "شِبْرًا بِشِبْر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جُحْرضَبٍّ لدخلتم، وزاد الحاكم: "وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه" والحديث خبر بمعنى النهى. وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لتتبعن سنن من قبلكم، شِبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحرضب تبعتموهم، قيل: يارسول الله! اليهودُ والنصارى؟ قال: " فمن؟ "وحديث حذوالنعل بالنعل رواه الطبرانى وفيه كثير بن عبد الله وهو ضعيف، قاله الهيثمى فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧:٢٦)

(١) أى فذلكة القول؛ من جَمَل الشيئَ: جمعه.

(٢) أى جادلهم ونازعهم.

(٣) قال الله تعالى: ﴿سَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ أَشْرَكُوْا: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُ نَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْئٍ؛ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّٰى ذَاقُوْا بَأسَنَا؛ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عَلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُوْنَ﴾(سورة الأنعام ١٤٨)وراجع الآيات ١٩- ٢٥ من سورة الزخرف.

(٤)وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ:أَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَرُوْنِى مَا ذَا (ـــ)

وثالثًا: ببيان إجماع الأنبياء على هذه المسئلة[١] كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ إِلاَّ نُوْحِيْ إِلَيْهِ : أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا ،فَاعْبُدُوْنِ﴾[٢]

ورابعًا: ببيان شناعة عبادة الأصنام، وأن الأحجار ساقطة عن مرتبة الكمال الإنسانى، فكيف ينالون مرتبة الألوهية؟[٣] ——— وهذا الردُّ مسوق لقوم يعتقدون الأصنامَ مَعبودةً لذواتها[٤]

وردُّ التشبيه:

أولا: بمطالبتهم بالدليل على دعواهم، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم[٥].

وثانيا: ببيان ضرورة التجانس بين الوالد والولد؛ وهو مفقود بالبداهة[٦].

(=) خَلَقُوْا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰاتِ؟ إِيْتُوْنِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثٰرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾(سورة الأحقاف ٤) وراجع الآيات ٥٩-٦٤ من سورة النمل والآية ١٦٠ من الرعد.

---

(١) أى: على التوحيد فإنه نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام (= أبو السعود ٣:٣٣٨) وراجع الآية ٤٥ من سورة الزخرف، والآية ٣٦ من سورة النحل.

(٢) سورة الأنبياء ٢٥.

(٣) قال الله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ؛ إِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ لَنْ يَّخْلُقُوْا ذُبَابًا، وَلَوِاجْتَمَعُوْا لَهُ؛ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَايَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ؛ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوْبُ﴾(سورة الحج ٧٣)

(٤) وأما الذين يظنون الأصنام وسيلة التقرُّب، وقبلة التوجُّه فلا يَكْبِتُهُمْ هذا الجواب.

(٥) راجع الآيات ١٤٩- ١٥٩ من سورة الصّٰفّٰت.

(٦) قال الله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ﴾ أى لم يصدر عنه ولد، لأنه لايجانسه شيئ ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا، كما نطق به قوله تعالى ﴿ أَنّٰى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ ﴿ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(سورة الإخلاص ٣-٤) أى لم يكافئه أحد، ولم يُماثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها (أبو السعود(٥: ٢٩٢) وراجع الآية ١٠١ من سورة الأنعام والآيات ٨٨-٩٣ من سورة مريم والآيتين ٢٦-٢٧ من سورة الأنبياء.

وثالثًا: بيان شناعة نسبة ما هو مكروه ومذموم لديهم إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ؟﴾[1] ـــــ وهذا الردُّ مسوق لقوم اعتادوا المقدماتِ المشهورة، والمتوهَّمات الشِّعْرِيَّة[2]، وكان أكثرهم من هذا القبيل.

وردُّ التحريف:

أولاً: بيان أنه لم يُؤْثَرْ عن أئمة الملة الحنيفية[3].

وثانيًا: بيان أن ذلك كلّه اختراعات وابتداعات ممن ليسوا بمعصومين[4].

وردُّ استبعاد الحشر والنشر:

أولاً: بالقياس على إحياء الأرض بعد موتها،[5] وما أشبه ذلك[6] وتنقيح

---

(١)سورة الصّفّت١٤٩،وراجع الآيات ٥٧-٦٠ من سورة النحل، والآيات ١٥-١٩ من سورة الزخرف.

(٢)المتوهمات: قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة ـــــ والشعر: قول مؤلّف من المخيّلات ـــــ والمخيلات: قضايايُخيّل بها، لتتأثر النفسُ بها قبضًا وبسطًا، فترغب فيها، سواء كانت صادقة أو كاذبة، كقول القائل: الخمر ياقوتة سيّالة، فحينئذ تنبسط النفس وترغب فيها؛ والعسلُ مُرَّة مُهوَّعة، فالنفس تنقبض وتتنفر عنه(مرآة الشروح لملاّمبين رحمه الله ص ٢٣٠)

(٣)وهم سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام؛وذلك كقوله تعالى: ﴿إِيْتُوْنِيْ بِكِتٰبٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا، أَوْ أَثٰرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾(سورة الأحقاف ٤)

(٤)أي: أن أسلافهم الذين حرّفوا الدين، وغيّروا الشرعَ، ليسوا بمعصومين عن الخطأ والزلل،فكيف تُقْبل إختراعاتُهم؟وراجع الآيات ١٦٨-١٧٠من سورة البقرة

(٥)وذالك كقوله تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً مُبٰرَكًا- إلى قوله تعالى - وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا؛ كَذٰلِكَ الْخُرُوْجُ﴾(سورة ق ٩-١١)وراجع الآية٥٧من سورة الأعراف.

(٦) كقياس الإعادة على الابتداء، قال تعالى:﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ﴾(سورة الأعراف ٢٩) وقال أيضًا:﴿ كَمَا بَدَأْ نَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهٗ﴾(سورة الأنبياء ١٠٤) وقال تعالى:﴿أَفَعَيِيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾(سورة ق ١٥) وقال تعالى:﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ ـــ

المناط الذى هو شمول القدرة، وإمكان الإعادة [1].

وثانيا: ببيان موافقة أهل الكتب السماوية كلّهم فى الإخبار به [2]

والردُّ على منكرى الرسالة:

أولاً: ببيان وجودها فى الأنبياء السابقين، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوْحِىْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿وَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا: لَسْتَ مُرْسَلاً، قُلْ: كَفىٰ بِاللهِ شَهِيْدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [4]

وثانيًا: بدفع الاستبعاد ببيان أن الرسالة هنا عبارة عن الوحى، قال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوْحىٰ إِلَيَّ﴾ [5] ثم يُفسِّر الوحى بما لايكون من المستحيلات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا، أَوْمِنْ وَّرَاىِٔ حِجَابٍ، أَوْيُرْسِلَ رَسُوْلاً فَيُوْحِىَ بِإِذْنِهِ مَايَشَآءُ، إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيْمٌ﴾ [6]

(=) ﴿يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ﴾ (سورة العنكبوت ١٩)

قال القاضى أبو السعود فى تفسيره (٤: ١٦٧): هوإخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياسا على الابتداء اهـ.

وكقياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى (سورة يٰسٓ ٨١ وسورة المؤمنون ٥٧) وكقياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر (سورة يٰسٓ ٨٠) وراجع البرهان (٢: ٢٦).

---

(١) أى نقول: إن الإعادة موقوف على أمرين: الأول: كون الإعادة ممكنا، والثانى كون قدرة الله تعالى شاملاً عليه، وثبت كلا الأمرين، فأىُّ استحالة فيه؟

(٢) أى نقول: إن الكتب السماوية كلّها متفقة فى الإخبار بوقوع الحشر والنشر، فكان ذلك إجماعًا قاطعًا عليه.

(٣) سورة يوسف ١٠٩ (٤) سورة الرعد ٤٣

(٥) سورة حٰمٓ السجدة ٦

(٦) سورة الشورى ٥١ وذكر اللغويون لكلمة (الوحى) معانى كثيرة، منها: (=)

وثالثًا: بيان أن عدم ظهور المعجِزات التى يقترحونها[1] وعدمَ موافقة

(=) الإشارة والرسالة والإلهام وكل ما ألقيتَه إلى غيرك؛ ثم غلب استعماله فى لسان الدين الإسلامى: فيما يُلقى من الله تعالى إلى الأنبياء.

وأما طُرق الوحى فهى كما يلى:

١- يأتيه بحيث يسمع دَوِيًا، كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذى ألقى إليه، فلا ينقضى الدَوِىّ إلا وقد وعاه وفهمه؛ وهذه أشد حالات الوحى، فقد ورد فى الحديث أن الحارث بن هشام سأل النبى صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحى؟ فأجاب صلى الله عليه وسلم: " أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على، فينفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال.

٢- يأتيه الملك فى صورة رجل فيكلمه، وهو أهون الحالات عليه، وتفسيره: إما أن ينخلع الملك من صورته إلى الصورة البشرية، حتى يأخذ عنه كما انخلع فى صورة دحية الكلبى، وإما أن ينخلع النبى من صورته البشرية إلى الصورة الملكية، حتى يأخذ الوحى من الملك، ويعى ما يقوله كما ورد فى الحديث المتقدم ذكره: "وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا، فيكلمنى فأعى ما يقول".

٣- يكلم الله تعالى مع عبده من وراء حجاب كماثبت للنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وكما وقع لموسى عليه السلام. وهذه الأقسام الثلا ثة يعد من كلام الله تعالى التشريعى، وبينها الآية الكريمة المزبورة.

٤- أن يُنفث فى رُوعه الكلام نفثا، ويعبر بالإلهام أيضًا.

٥-أن يأتيه الملك فى النوم، وهى الرؤيا الصادقة عند بعض العلماء.

وهذان القسمان مما وقع ويقع لغير الأنبياء أيضا، وليس شيئ من هذه الأقسام محالا، فكيف تكون الرسالة مستبعدة؟

واعلم أن الإمام المصنف رحمه الله قد عدَّ اجتهاد النبى أيضا من الوحى المعنوى نظرًا إلى الغاية واعتبارًا للنتيجة، لأنه لايُقر على اجتهاده إذا كان خطأ (راجع حجة الله ١ :٢٨٢) وذكر السُهَيْلى صور الوحى سبعة، فراجعه من عمدة القارى (١ :٤٧)

(١) اقترح عليه كذا وبكذا: تحكّم وسأله إياه بالعنف، ومن غير روية وراجع الآيات ٩٠-٩٣ من سورة بنى إسرائيل.

الله تعالى إياهم فى تعيين شخص يتوخون رسالته [١] وعدمَ إرساله تعالى الملائكة رسلاً [٢]، وعدم إيحائه تعالى إلى كل شخص،[٣] كُلُّ ذلك لمصلحة كلية، يقصر علمهم عن إدراكها[٤].

---

(١) وذلك كما حكى الله تعالى قولهم: ﴿وَقَالُوا: لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ﴾(سورة الزخرف ٣١)

وتَوَخىَّ الأمرَ: قصد إليه، وتعمَّد فِعله، وتحرَّاه، يقال: توخى رضاه وتوخى محبته،

(٢) كما قالوا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لأَنْزَلَ مَلٰئِكَةً﴾(سورة المؤمنون ٢٤)

(٣) كما قالوا: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مَا أُوْتِىَ رُسُلُ اللّٰهِ﴾(سورة الأنعام ١٢٤) وراجع الآية ٢١ من سورة الفرقان.

(٤) أى: يجاب ثالثا ببيان أن عدم ظهور المعجزات التى يقترحونها، وعدمَ موافقة الحق ــــ سبحانه وتعالى ــــ لهم فى تعيين شخص يقترحون بنبوته، وعدمَ إرسال الملَك رسولاً، وعدمَ الإيحاء إلى كل واحد منهم كلُّ ذلك لمصلحة كلية، يقصر علمهم عن إدراكها.

أما وجه عدم ظهورالمعجزات المقترحة: فإن سنة الله جارية بإرسال العذاب إن لم يؤمن الأمة بعد رؤية المعجزات المقترحة، وقد قدر الله لهذه الأمة البقاء والإيمان.

قال الباقلانى:الآيات على ضربين:أحدهما كالمعجزات، التى هى أدلة فى دارالتكليف، والثانى: الآيات التى ينقطع عندها العذر، ويقع عندها العلم الضرورى، وأنها إذا جاء ت ارتفع التكليف، ووَجب الإهلاك؛ فا لله قادر على هذه الآيات، ولكنه إذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين اهـ.وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف فى تفسيره: صفوة البيان لمعانى القرآن (١:٤٥٩) فى قوله تعالى:﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُوْنَ﴾(الإسرار ٥٩): وما كان سبب تركنا إرسال الآيات التى اقترحها المشركون إلاَّ علمنا بأنهم سيكذبون بها كما كذَّب بأمثالها الأولون، فيستوجبون مثلهم عذاب الاستئصال على ماجرت به السنة الإلٰهية، وقد قضينا بإمهال المكذبين من هذه الأمة لحِكَمٍ نعلمهااهـ.

وأما وجه عدم موافقة الله تعالى لهم فى تعيين شخص: أن (=)

ولما كان أكثر الناس الذين بعث الله إليهم الرسولَ صلى الله عليه وسلم مشركين، ذكر هذه المعانى فى القرآن الكريم فى سُوَر كثيرة بأساليب متعددة وتأكيدات بليغة؛ ولم يتحاش عن تكرارها وتَردادها[1]؛ نعم هكذا ينبغى أن تكون مخاطبةُ الحكيم المطلق مع هؤلاء الجهلة؛ والكلام فى مقابلة هؤلاء السفهاء جدير بهذا التأكيد البليغ، ﴿ ذٰلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ﴾

ذكر اليهود

وقد كان اليهود، آمنوا بالتوراة (٢)، وكان من ضلالهم:

(⟸) النبوة تقتضى ملكاتٍ وصلاحيةً، فما كل رجل يصلح لهذا المنصب الشريف قال الله تعالى: ﴿أَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام ١٢٤)

وأما وجه عدم إرسال الملك: لأنه لوبعث فى صورته لايقدرون على كسب الفيض منه، ولئن بُعث فى صورة البشر لَلَبَسَ عليهم ما يلبِسون، ولِمَا أن قدمنا أن الشخص أعرف بأحوال أبناء جنسه فيكون أقدرَ على إصلاحهم.

وأما وجه عدم الإيحاء إلى كل واحد: فإن تلقى الوحى أيضا تقتضى ملكة وصلاحية.

(١) تَحَاشيٰ عن كذا : تنزَّهَ؛ وردَّه (ن) رَدًّا وتَرْدَادًا: أرْجَعه، فهى لمعنى التكرار.

(٢) يطلق لفظ(توراة) عند النصارى، ويراد بها مجموعة العهد القديم، ثم ترخصوا وأرادوا بها العهدَين معا، قال محقق الديانة المسيحية العلامة رحمة الله الهندى فى كتابه الجليل: "اظهار الحق" (١ :٣٨): اعلم أنهم يقسمون هذه الكتب إلى قسمين: قسم منها يدعون أنه وصل إليهم بواسطة الأنبياء الذين كانوا قبل عيسى عليه السلام. وقسم منها يدعون أنه كُتب بالإلهام بعد عيسى عليه السلام، فمجموع الكتب من القسم الأول يسمى بالعهد العتيق ومن القسم الثانى بالعهد الجديد، ومجموع العهدين يسمى بيبل،وهذا لفظ يونانى بمعنى " الكتاب" ثم ينقسم كل من العهدين إلى قسمين: قسم اتفق على صحته جمهور القدماء من المسيحيين، وقسم اختلف فيه.

وأما القسم الأول من العهدالعتيق: فثمانية وثلثون كتابا: (⟸)

....

(=) (١)سِفر التكوين، ويسمى سِفر الخليقة أيضا.(٢)سِفر الخروج.(٣)سفر الأحبار.(٤)سفر العدد.(٥)سفر الاستثناء (ومجموع هذه الكتب الخمسة يسمى بالتوراة، وهو لفظ عبرانى بمعنى التعليم والشريعة، وقد يطلق ذلك اللفظ على مجموع كتب العهد العتيق مجازا)(٦) كتاب يوشع بن نون.(٧) كتاب القضاة الخ ...... وهذه الكتب الثمانية والثلاثون كانت مسلمة عند جمهور القدماء من المسيحيين؛ والسامريون لايسلمون منها إلا سبعة كتب: الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام وكتاب يوشع بن نون وكتاب القضاة؛ وتخالف نسخة توراتهم لنسخة توراة اليهود.

وأما القسم الثانى من العهد العتيق: فتسعة كتب.

وأما القسم الأول من العهد الجديد: فعشرون كتابا:(١) إنجيل متى(٢) إنجيل مرقس(٣)إنجيل لوقا(٤)إنجيل يوحنا(ويقال لهذه الأربعة " الأناجيل الأربعة" ولفظ الإنجيل مختص بكتب هؤلاء الأربعة، وقد يطلق مجازًا على مجموع العهد الجديد، وهذا اللفظ معرب، كانَ فى الأصل اليونانى " انگليون" بمعنى البشارة، والتعليم)(٥) كتاب أعمال الحواريين الخ.

وأما القسم الثانى من العهد الجديد: فسبعة كتب الخ انتهى (وقد تركنا ذكر الكتب)

ثم اعلم أن سِفر التكوين يتضمن خَبَرَ خلق العالم وذكرَ أصول الإنسان وأوائل تاريخ بنى إسرائيل مع تاريخ الآباء: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب، وفى سِفر الخروج أخبار دعوة موسى وخروج العبرانيين من أرض مصر، وإنزال الوصايا العشر على موسى فى جبل سيناء، وسفر الأحبار(اللاَّوِيْن) يبحث عن تنظيم الحكم فى شرائع وشعائر تحت إدارة سبط اللاوين، وسفر العدد يبحث عن رحلاتهم فى البرية، وافتتاح أرض كنعان. وتثنية الاشتراع: سفر أخير من أسفار موسى، يتضمن فصولا تشريعية، وفصولا تاريخيةً عن أيام موسى الأخيرة، وموته تُجاه أرض الموعد.

وقال صاحب " المنجد فى الأدب والعلوم" (ص ١١٥): التوراة فى (=)

١ ـ تحريفُ أحكام التوراة، سواء كان تحريفاً لفظيا أو تحريفًا معنويا.

٢ ـ وكتمانُ آيات التوراة.

٣ ـ وإلحاقُ ماليس منها بها، افتراءً منهم.

٤ ـ والتقصيرُ فى تنفيذ أحكامها.

٥ ـ والعصبيةُ الشديدةُ لديانتهم.

٦ـ واستنكارُ رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وسوءُ الأدب والطعنُ عليه صلى الله عليه وسلم،(١) بل بالنسبة إلى الربِّ تبارك وتعالى أيْضًا(٢).

٧ـ وابتلاؤهم بالبخل والحرص ونحو ذلك من الرذائل.

بيان التحريف

وقد تحقق لدى الفقير أن تحريفهم اللفظىَّ قد كان فى ترجمة التوراة وأمثالها، لافى أصل التوراة؛وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما(٣).

(=) المعنى العصرى: هى أسفار العهد العتيق الخمسة ـــ وقد يطلق خطأً اسم التوراة على الكتب المقدسة بكماله اهـ.

وهذا بحث يجب أن يتمم القول فيه بعدُ، فليس هذا بموضع له، فراجع بحث التحريف من ذكر اليهود، والكلامُ حول الإنجيل يأتى فى ذكر النصارى.

(١)ورد فى الحديث: أن اليهود كانوا إذا دخلوا عليه صلى الله عليه وسلم يقولون: " السَّامُ عليك" والسام هو الموت؛ وكانوا يقولون مكان: اسمع لنا: "راعنا" وكانوا يورُّون بالرعونة. ولما نزل ﴿ يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الْمَحِيْضِ﴾ الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم: "جامعوهن فى البيوت واصنعوا كل شيئ غير النكاح" فقالت اليهود: مايريد هذا الرجل (يعنون النبى صلى الله عليه وسلم) أن يدع شيئا إلا خالفنا فيه ـــ رواه الإمام أبوداود.

(٢) كما قالوا ـــ لعنهم الله! ـــ: ﴿إِنَّ اللّٰهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(سورة آل عمران ١٨١)وقالوا ـــ خذلهم الله! ـــ: ﴿يَدُ اللّٰهِ مَغْلُوْلَةٌ﴾(سورة المائدة ٦٤)

(٣) اعلم أن فى التحريف ثلاثةَ مذاهب:

١ ـ ذهب جماعة إلى أن التحريف فى الكتب السماوية قد وقع بكل نحوٍ، (=)

....

(=) في اللفظ والمعنى جميعا؛ وهو الذي مال إليه ابن حزم وجماهير العلماء.

٢- وذهب جماعة إلى أن التحريف قليل؛ ولعل الحافظ ابن تيمية جنح إليه.

٣- وذهب جماعة إلى إنكار التحريف اللفظي رأسا، فالتحريف عندهم كله معنوي؛ وإليه جنح الإمام المصنف رحمه الله تعالى.

قال شيخ مشايخنا العلامة الكشميري: يلزم على هذا المذهب أن يكون القرآن أيضا محرَّفًا؛ فإن التحريف المعنوي غير قليل فيه أيضا، والذي تحقق عندي: أن التحريف فيه لفظي أيضا. أما أنه من عمد منهم أو لمغلطة، فالله تعالى أعلم به اهـ (فيض الباري ٣:٣٩٥)

وقال أيضا: كيف ساغ لابن عباس إنكار التحريف اللفظي، مع أن شاهد الوجود يخالفه؟ كيف! وقد نعى عليهم القرآن أنهم كانوا يكتبون بأيديهم ثم يقولون: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ وهل هذا إلا تحريف لفظي؟ ولعل مراده: أنهم ماكانوا يحرفونه قصدًا، ولكن سلفهم كانوا يكتبون مرادها كما فهموه، ثم كان خلفهم يدخلونه في نفس التوراة، فكان التفسير يختلط بالتوراة من هذا الطريق. اهـ (فيض الباري ٤ :٥٣٧)

أقول: قد ذكر المفسرون قولَ ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾(سورة البقرة ٧٥) قال الآلوسي: يسمعون التوراة ويؤلونها تأويلا فاسدا حسب أغراضهم، وإلى ذلك ذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والجمهور على أن تحريفها بتبديل كلام من تلقائهم اهـ (روح المعاني ١ :٢٩٨)

وليس في هذه الآية ذكر تحريفهم التوراة، بل الآية مخصوصة بواقعة سماع كلام الله تعالى على الطور، لما اختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه فأسمعهم الله تعالى كلامه، فلما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما سمعوا إلا أنهم زادوا في آخره:" إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا" ـــ فالتحريف هنا بالتأويل الفاسد.

وأما مسئلة التحريف في التوارة فتبحث عنها الآيتان في سورة المائدة: (=)

....

(=) الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا، سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ، سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ: إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ (الآية ٤١)

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ (الآية ١٣)

ولم يذكر المفسرون هنا قول ابن عباس رضى الله عنهما، بل روى الإمام البخارى فى صحيحه (ص ٣٦٩ فى كتاب الشهادة فى باب: لايُسْئل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه حذّر الذين يزوّون عن أهل الكتاب فقال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه أحدث الأخبار بالله تقرءونه، لم يُشب (لم يخلط من الشوب بمعنى الخلط) وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً؟! أفلا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم؟! ولاوالله مارأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم؟!.

وأما ماذكره البخارى ــــ رحمه الله تعالى ــــ فى آخر كتابه فى كتاب الرد على الجهمية (: كتاب التوحيد) فى باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ عن ابن عباس: " يحرفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله؛ ولكنهم يحرفونه، يتأولونه على غير تأويله" (ص ١١٢٧). فقال المحشى: قوله: وليس أحد الخ من كلام البخارى، ذيّل به تفسير ابن عباس، ويحتمل أن يكون بقية كلام ابن عباس فى تفسير الآية.

فلعل الإمام المصنف وغيره فهم من هنا مذهب ابن عباس ولكن لايصح الاستدلال بهذا على مذهبه، لأن العبارة ليست بنص فى ذلك كما قال المحشى، على أن هذا يعارض قوله المتقدم: " وقد حدّثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله الخ"

وبعدُ: فإن التوراة كانت فى الأصل توراة واحدة، وقد ضاعت نسختها من صندوق الشهادة، فعمل عزرا النبى توراة جديدة بعد انعدام الأصل، بإعانة (=)

(﴿) حِجّى وزكريا الرسولَين، كما قال كليمنس؛ وقد ضاعت هذه النقول أيضا في واقعة (أَنِيتُوكَسْ) كما يقول: جَاتز كانْلكْ. والآن توجد ثلاثة نسخ من التوراة (عبرانية، ويونانية. وسامرية) وكل منها تخالف الأخرى في كثير من النصوص، وكانت النسخة اليونانية معتبرة عند سائر المسيحيين واليهودحتى القرن الخامس عشر من القرون المسيحية؛ وكانوا في هذه المدة يعتقدون بتحريف النسخة العبرانية، ثم حصل تحريف ثانٍ في التوراة العبرانية من اليهود عمدًا ليخالفوا به المسيحين بتوراتهم اليونانية.

وقد جنح البَرُوتَسْتَانْت إلى الاتفاق مع اليهود؛ باعتمادهم التوراة العبرانية، مخالفين بذلك بقية المسيحيين، فلا تزال" اليونانية"معتبرةً عند الكنيسة اليونانية وكنائس الشرق، و" العبرانية" عند اليهود والبر وتستانت.

ثم هاتان تخالفان التوراة السامرية المعتبرة عند السامريين؛وكلُّ أهل توراة من هذه الثلاثة يدَّعى صحة توراته، ويعتقد بتحريف غيرها.

وقد عقد العلامة رحمة الله الكيرانوى ثم المكى بابًا مستقلاً حول بحث التحريف في كتابه العظيم: إظهار الحق(١ :١٥٨) فقال: الباب الثاني في إثبات التحريف وهو قسمان: لفظى ومعنوى؛ ولانزاع بيننا وبين المسيحيين في القسم الثاني، لأنهم يسلمون كلُّهم صدورَه عن اليهود في العهد العتيق، فلا احتياج إلى إثباته؛بقى القسم الأول؛ وقد أنكره علماء بَرُوْتِسْتِنت في الظاهر إنكاراً بليغا، لتغليط جهال المسلمين، وأوردوا أدلةً مُمَوَّهة مزوَّرة في رسائلهم ليوقعوا الناظرين في الشك، فهو محتاج إلى الإثبات، فأريد إثباتَه في كتابي هذا بعون خالق الأرض والسموات.

وأقول:إن التحريف اللفظى بجميع أقسامه؛ أعنى بتبديل الألفاظ،وزيادتها ونقصانها، ثابت في الكتب المذكورة اه.

فأثبت في المقصد الأول التحريفَ اللفظى بالتبديل بخمس وثلاثين أمثلة، فقال: أكتفى من شواهد المقصد الأول على هذا القدر، خوفا من الإطالة اه. وأثبت في المقصد الثاني التحريف اللفظى بالزيادة بخمس وأربعين أمثلة؛ (﴿)

والتحريف المعنوى: هوتأويل فاسد بحمل الآية على غيرمعناها، بتعسُّف وانحراف عن سواء السبيل.

أمثلة التحريف المعنوى:

١- **فمن جملة ذلك**: أن الله تعالى قد بَيَّنَ الفرقَ بين المتديِّنِ الفاسق والكافرالجاحد فى كل ملَّة،وتوعَّدالكافر بالخلود فى النار والعذابِ الأليم، وجوَّزخروجَ الفاسق من النار بشفاعةِ الأنبياء، وصرَّح بذلك فى كل ديانة باسم المتدين بتلك الديانة، فأثبت ذلك فى التوراة لليهود والعِبريين[1] وفى الإنجيل للنصرانيين، وفى القرآن العظيم للمسلمين؛ ومناطُ الحكم: هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمانُ بالنبى الذى بُعث إليهم، والانقيادُ له[2]، والعمل بشرائع ملته،[3] والاجتناب عن نواهيها؛ لاتخصيصالحكم بفرقة من الفرق لذاتها

(===) وأثبت فى المقصد الثالث التحريف بالنقصان بعشرين أمثلة.

وفذلكة القول: أن التوراة الأصلى قد فُقِدت، وكذا نقلُ عَزْرا النبى أيضًا ضاعت، والنسخ الثلاثة الموجودة كُتبت فى أوقات متفرقة بغير إلهام(إظهار الحق ١:١٢٦) وصاحبُ كل نسخة يدَّعى صحة نسخته، ويعتقد بتحريف غيرها، فهذه شهادة أهل البيت، وهم أدرى بمافيه،وما راءٍ كمن سمع !

---

(١) العبرى والعبرانى هو اليهود. والشعب اليهودى يُسَمِّى نفسه بالإسرائيلى، نِسبةً إلى إسرائيل أى يعقوب عليه السلام، الذى كان قد نال من الرب بركة خاصة ــــ كما زعموا ــــ وكان جيرانهم يُطلقون عليهم اسم "العبرانيين" نسبة إلى عابر، أحد جدود إسرائيل، أو دلالة على أنه كان قد عبَر نهرًا، والآن بقيت الكلمة فى استعمالنا دلالة على لغتهم العِبْرية أو العِبْرَانِيَّة(من المنجد ملخصا)

(٢)مثلاً: الانقياد لسيدنا عيسى عليه السلام حينما بعث إليهم، والانقياد لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث إليهم.

(٣)الدين والملة مترادفان عند الشرع، وأصل الدين واحد، اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام. والشرائع: المناهج، وهى مختلفة قال الله تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَّمِنْهَا جًا﴾.

race Israelites

ولكن اليهود زعموا أن كل من كان يهوديا أو عِبريا فهو من أهل الجنة، وتُخلِّصه شفاعة الأنبياء من العذاب، ولا يمكث في النار إلا إياماً معدودات، وإن لم يتحقق ذلك المناط، ولم يكن إيمانه بالله تعالى على الوجه الصحيح، ولم يدرك حظًا من الإيمان بالآخرة، ورسالةِ النبى المبعوث إليهم.

وهذاخطأ صرف وجهل محض، وقد كشف القرآن العظيمُ هذه الشبهة على أتم وجه، لِمَا أنه كان مُهَيمِنًا[1] على الكتب السابقة، مُبِيْنًا لمواضع الإشكال فيها،فقال تعالى: ﴿بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً، وَأحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ، فَأُولٰئِكَ أصْحَابُ النَّارِهُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾[2]

---

(١) هَيْمَنَ على كذا: سَيْطر عليه، ورَاقَبه وحفظه.

(٢)سورة البقرة ٨١ أى: بيَّن القرآن بوضوح أن الفوز فى الآخرة بالعمل لابالأمانى. قال الشيخ يوسف القرضاوى: قد هدمت عقيدةُ الإسلام ذلك الطمع الأشعبى، والأمانى الفارغة، التى جعلت صنفا من الناس يحسبون الجنة حكرًا لهم، أو عقارًا سيتوارثونه عن الآباء والأجداد، يستحقونها بمجرد الانتساب إلى دين معين أو الدخول تحت عنوان خاص.

أبطل الإسلام هذه الدعاوى العريضة، وردَّ الأمركله إلى صدق الإيمان وحسن العمل:﴿وَقَالُوْا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوْدًا أوْ نَصرىٰ تِلْكَ أمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوْا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ. بَلىٰ مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾(البقرة ١١١-١١٢) وبهذا رسم الطريق إلى الجنة: إسلام الوجه إلى الله وإحسان العمل.

ولم يكن هذا موقفة من اليهود والنصارى فحسب، فلقد وقف نفس الموقف من الأشعبيين من المسلمين أنفسهم، أولئك الحمقى الذين يتبعون أنفسهم هواها، ويتمنون على الله الأمانى، ويظنون أن النطق بكلمة الإسلام؛ أو التسمى بأسماء المسلمين يكفى، لتفتح لهم أبواب الجنة، فيدخلوها بسلام آمنين،ولكن القرآن بيَّن لهم بوضوح أن قانون الله فى الجزاء عام لعباده قاطبة لامحاباة عنده ولا فرق بين طائفة وطائفة.

(=)

٢ ـ ومن جملة ذلك: أنه تعالى قد بَيَّن فى كل ملّة أحكامًا تُناسب مصالحَ ذلك العصر، وروعيت فى التشريع[١] عاداتُ القوم الصالحةُ،وأكّد الأمرَ بالأخذبها، وإدامةِ العمل عليها، والاعتقادِ بها، وحَصْرِ الْحَقِّيَّة فيها؛ والمراد أن الحق منحصر فيها فى ذلك العصر، وأن الإدامة عليها[٢] إضافية، لاحقيقية أى مالم يأت نبى آخر، ومالم يُكشف السِّتار عن وجه رسالته.

ولكن اليهود حملوا ذلك على استحالة نسخ اليهودية؛ وكان معنى[٣]

(=) روى المفسرون أن مجلسا ضَمَّ جماعة من اليهود والنصارى والمسلمين، فزعمت كل طائفة منهم أنهم أولى الناس بدخول الجنة؛ اليهود قالوا: نحن أتباع موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، والنصارى قالوا: نحن أتباع عيسى روح الله وكلمته، والمسلمون قالوا: نحن أتباع محمد خاتم النبيين، وخير أمة أخرجت للناس.

فلم يدع القرآن هؤلاء وهؤلاء لدعواهم وتنازعهم، ونزلت آياته حاكمة فاصلة، قاضية، عادلة، تخاطب المسلمين فى صراحة وجلاء: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءً يُجْزَ بِهِ، وَلاَيَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَنَصِيْرًا؛ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰلِحٰتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثٰى وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُوْلٰئِكَ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ وَلاَيُظْلَمُوْنَ نَقِيْرًا﴾ (النساء ١٢٣-١٢٤)

(من مقالة له المنشورة فى البعث الإسلامى ١٧:٣ رمضان ١٣٩٢هـ ص٤٥-٤٧)

---

(١) التشريع: سَنُّ القوانين

(٢) ضمائر التأنيث كلها ترجع إلى الملة.

(٣) هذا جواب سؤال مطوى، وهوأن اليهود يدعون أن يعقوب عليه السلام يوم مات وصّى بنيه بالتمسك باليهودية، فيستدلون بتلك الوصية على استحالة نسخ اليهودية، والجواب: أن ذلك افتراء منهم على يعقوب عليه السلام، ولم يكن معنى وصيته هذا، بل وصّى هو بالإيمان والأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أى حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوْبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيْهِ: مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ بَعْدِيْ؟ قَالُوْا: نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰـهَ آبَائِكَ: إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ (البقرة ١٣٣) و(أم) بمعنى همزة الإنكار، أى: لم تحضروه وقت موته، فكيف تنسبون إليه ما لايليق به؟ (تفسير الجلالين)

وصية التمسك بهاهو الوصاية بالإيمان بالله والتمسك بالأعمال، ولم تكن خصوصيةُ تلك الملة معتبرةً لذاتها؛ ولكن اليهود اعتبروا الخصوصية، فظنوا أن يعقوب عليه السلام وصّى بنيه بالتمسك باليهودية أبدًا.

٣ ـ ومن جملة ذلك: أن الله تعالى شرَّف الأنبياء، والتابعين لهم بإحسان، فى كل ملّة بوصف المقرَّب والمحبوب، ووصَف الذين ينكرون الملة بالمغضوب؛ وأطلق فى هذا الباب لفظاً شائعا فى كل قوم، فلا عجب لو استعمل كلمة "الأبناء" مقام المحبوبين[١]؛ ولكنْ ظن اليهودُ أن هذا التشريف دائر مع اسم اليهودى والْعِبْرى والإسرائيلى، ولم يعرفوا أنه دائر مع صفة الإنقياد والخضوع، والسير على الحق الذى أنزله الله على الأنبياء، لاغير.

وقد ارتكز[٢] فى خواطرهم كثير من التأويلات الفاسدة من هذا القبيل، وتلقَّوها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ فَدَحَضَ[٣] القرآن الكريم هذه الشبهاتِ على أتم وجه.

بيان كتمان الآيات

أما كتمان الآيات: فهو أنهم كانوا يُخفون بعض الأحكام والآيات

(١) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: إن النبى صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وخوّفهم بعقاب الله تعالى فقالوا: كيف تخوِّفنا به، ونحن أبناء الله وأحباء ه. وفى الآية الأولى من الباب ١٤ والآية ١٩ من الباب ٣٢ من كتاب الاستثناء، وفى الآية ٢ من الباب الأول والآية الأولى من الباب ٣٠ والآية ٨ من الباب ٦٣ من كتاب أشعياء، وفى الآية ١٠ من الباب الأول من كتاب هو شع، جاء إطلاق " أبناء الله " على جميع بنى إسرائيل (إظهار الحق ٢: ١٢-١٣) وقيل: إن النصارى يَتْلُوْن فى الإنجيل أن المسيح قال لهم: إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ـــ وبالجملة: أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلا ومَزيَّة عند الله تعالى على سائر الخلق (أبو السعود ٢: ١٦)

(٢) ارتكز الشيئ: ثبت واستقر فى محله.

(٣) دَحَضَ الحجَّة: أبطلها ودفعها.

للمحافظة على جاهٍ شريفٍ، أو لطلب منصب عزيز، لئلا يتلاشى[١] اعتقادُ العامَّة فيهم، ولايُلاموا على ترك العمل بتلك الآيات.

أمثلته:

١- **فمن جملة ذلك**: أن حكمَ رجم الزانى مصرَّحٌ فى التوراة، ولكنهم أهملوه لإجماع أحبارهم[٢] على إهماله، وإقامةِ الْجَلْد وتسخيم[٣] الوجه مقامه، وكانوا يخفون تلك الآياتِ خشيةَ الفضيحة[٤].

---

(١) تَلاَشى: مطاوعُ لاَشَاهُ الله: أفناه؛ كأنه جعله كلاشيئ.

(٢) الأحبار: العلماء، جمعُ حِبْر— بفتح أوله، وبكسره —: العالم الكبير عند النصارى، وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه، وعند اليهود: رئيس الْكَهَنَة.

(٣) سخَّم الله وجهه: سوَّده، والسخم: السواد.

(٤) عن ابن عمر قال: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بيهودى ويهودية قد أحدثا(أى زنيا) جميعا، فقال لهم: ماتجدون فى كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا (أى ابتدعوا) تحميم الوجه(أى تسويده بالفحم) والتجبية(وهو أن يحمل الزانيان على حمار مخالفا بين وجوههما ويطاف بهما) قال عبد الله بن سلام: ادعهم يارسول الله! بالتوراة فأتى بها، فوضع أحدهم يدَه على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له ابن سلام: ارفع يَدك، فإذا آية الرجم تحت يده، وأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فَرُجما(رواه البخارى فى صحيحه فى باب الرجم بالبلاط ص ١٠٠٧) وعن البراء بن عازب، قال: مُرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى محمَّمًا مجلودًا فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، فقال: أُنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى صلى الله عليه وسلم أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قال: لا! ولولاأنك نَشدتنى بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيئ نقيمة على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجَلْدَ مكان الرجم، الحديث (رواه مسلم ٢: ٧٠ فى باب حد الزنا)

٢- ومن جملة ذلك: أن الآيات[١] التي فيها بشارة ببعثة نبي في أولاد هاجر[٢] وإسماعيل عليهما السلام، والتي فيها إشارة إلى وجود ملّة، يتم ظهورها وشهرتها في أرض الحجاز وتمتلئ بها جبال عرفة من التلبية، ويؤم الناس ذلك الموضِع من الأقطار والأمصار؛ وهي ثابتة في التوراة حتى اليوم[٣]؛ فكان اليهود يتأولونها بأن ذلك إخبار بوجود تلك الملة، وليس فيها أمر باتباعها؛ وكانوا يرددون هذه الكلمة: "مَلْحَمَةٌ كُتِبَتْ علينا"[٤].

ولِمَا أن هذا التأويل الركيك لايسمعه أحد، ولايصح عند أحد، كانوا يتواصَون فيما بينهم بإخفائها، ولايسامحون بإظهارها على كل عام وخاص، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ

---

(١) يعني آيات التوراة.

(٢) هاجر على زِنَةِ فاعل: أم إسماعيل عليهما السلام، ويقولون: آجِرُ، فيبدلون الهمزة من الهاء.

20 17 Genesis

(٣) كما في سِفر التكوين في الباب السابع عشر في الآية العشرين (من الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م): (وعلى إسماعيل استجيب لك، هو ذا أباركه وأكبره، وأكثره جدا، فسَيَلِد اثنى عشر رئيسا، وأجعله لشعب كبير) وقوله: اجعله لشعب كبير يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره (إظهار الحق ٢: ١٧٢) وكما في كتاب أشعيا في الباب الثاني والأربعين في الآيات ٩-١٧ وراجع لشرحها إظهارَ الحق (٢:١٨)

(٤) الملحمة ج ملاحم: الموقعة العظمية القتل في الحرب، أي كانوا يقولون: الملحمة التي كتبت علينا هي الحرب الشديد مع النبي الذي سيظهر في أولاد إسماعيل، فكأننا أمرنا بمخالفته، لاباتباعه، وإلا فكيف يُكتب علينا القتالُ والحرب معه. ولما عُرِض حُيَيُّ بن أخطب للقتل يوم غزوة بني قريظة، أقبل على الناس فقال: " أيها الناس إنه لابأس بأمر الله: كتابٌ وقدرٌ ومَلْحَمَةٌ كتبها الله على بني إسرائيل!" (البداية والنهاية ٤: ١٢٥، والسيرة الحلبية ٢: ٤٤١)

As for Ishmael, I have heard you; behold, I will bless him, and will make him fruitful and will multiply him exceedingly. He shall become the father of 12 princes, and I will make him a great nation. [17:20]

عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾[١].

ما أجهلهم! هل يمكن أن تُحمَل مِنَّةُ اللّٰه تعالى على هاجر و إسماعيل ــ عليهما السلام ــ بهذه المبالغة، و ذكرُ هذه الأمة بهذه الفضيلة، على الإخبار بوجود تلك الملة، ولايكون فيه حث وتحريض على اتباع هذا الدين؟! سُبْحَانَكَ هٰذَا إِفْكٌ عَظِيْمٌ!

بيان الافتراء:

أما الافتراء[٢] فأسبابه:

١ـ دخول التعمُّق و التشدُّد على أحبارهم ورهبانهم[٣].

٢ـ والاستحسان أى استنباط بعض الأحكام بناءً على إدراك المصالح فيها، بدون نص من الشارع[٤].

---

(١) سورة البقرة ٧٦

(٢) الافتراء على اللّٰه: نسبة ما يكتبونه بأيديهم إلى اللّٰه تعالى وإلى التوراة .

(٣) الأحبار: العلماء، وعند اليهود رئيس الكهنة، والرهبان: جمع الراهب: من اعتزل عن الناس إلى دَيْرٍ طلبا للعبادة؛ من الرهبة أى الخوف، والرَهبانية ــ بفتح الراء وضمها ــ: طريقتهم، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوْهَا، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ، إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّٰهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾(الحديد ٢٧) وقال صلى اللّٰه عليه وسلم: ﴿ترَهُّب أمتى الجلوس فى المساجد، وانتظار الصلاة﴾ وأما الحديث الذى سرى فى المسلمين مسرى الأمثال السائرة:" لا رهبانية فى الإسلام" فقال ابن حجر فى فتح البارى (٩: ٩٦): لم أره بهذا اللفظ ولكن ورد فى معناه اھ.

(٤) ستقف على تفصيل الاستحسان فى كلام الإمام المصنف المنقول عن "الحجة" فيما بعد.

واعلم أن استحسان الأصوليين شيئ آخر، فإنه عدول فى مسئلة عن مثل ما حكم به فى نظائرها إلى خلافه بوجه هو أقوى، قاله فى منهاج الأصول، وقال السرخسى فى المبسوط(١٠:١٤٥): القياس والاستحسان فى الحقيقة قياسان: أحدهما: جلى،ضعيفٌ أثره، فسمى قياسا، والآخر: خفى،قوىٌّ أثره،فسمى استحسانا أى قياسا مستحسنا، فالترجيح بالأثر لابالخفاء والظهور الخ.

٣ - وترويج الاستنباطات الواهية.

فأتباعهم ألحقوها بالأصل زعما منهم أن اتفاق سلَفهم على شئ من الحجج القاطعة؛ فلم يكن عندهم مستَنَد فى إنكارنبوة عيسى عليه السلام إلاأقوال سلفهم ؛ وكذلك كان حالهم فى كثير من الأحكام.

سبب التساهل وارتكاب المناهى:

وأما التساهل فى تنفيذ أحكام التوراة، وارتكابُ البخل والحرص، فظاهرٌ أنه من مقتضيات النفس الأمارة، وهى تغلب الناسَ جميعًا إلا من شاء الله ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ، إِلاَّ مَارَحِمَ رَبِّیْ﴾[١]

ولكن هذه الرذيلة[٢] قد تلوَّنت فى أهل الكتاب بلون آخر؛ وهو أنهم كانوا يتكلفون تصحيحَها بتأويل فاسد، وكانوا يُبرزونها فى صبغة الدين[٣]

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢) الرذيلة: ضد الفضيلة ، والجمع رذائل.

(٣) قد تكلّم الإمام المصنف على التحريف وأسبابه مبسوطا، ولم أقدر على تلخيصه، ولاأردت تلخيصه، فإنه حسن كلُّه، فأحببتُ أن آتيه برُمته، إلا كلماتٍ يسيرةً فقد حذفتها من موضع واحد فهذا نصه من كتابه العظيم: حجة الله البالغة (ص: ٢٥٩ إلى ص ٢٦٤ ج ١) وما بين القوسين زيادة منى.

باب إحكام الدين من التحريف: لابد لصاحب السياسة الكبرى الذى يأتى من الله بدينٍ يَنسَخ الأديان، من أن يُحكِم دينه من أن يَتَطرَّقَ إليه تحريفٌ؛ لأنه يجمع أمماً كثيرة ذوى استعدادات شتى، وأغراض متفاوتة، فكثيرا مايَحملهم الهوى أوحُبُ الدين الذى ــ كانوا عليه سابقا ــ أوالفَهم الناقص ــ حيث عقلوا شيئًا وغابت مصالح كثيرة ــ أن يُهمِلوا مانصت الملة عليه، أو يَدُسُّوا فيها(دَسَّه دَسًا: إذا أدخله فى شيئ بقهرو عنف) ماليس منها ،فيختلّ الدين، كما وقع فى كثير من الأديان قبلنا.

ولما لم يُمكن الاستقصاءُ فى معرفة مداخل الخلل، فإنها غير محصورة ولامتعينة ــ ومالايُدرك كله لايُترك كله ــ وجب أن ينذرهم من أسباب التحريف (=)

....

(═) إجمالا، أشد الإنذار، ويَخُصّ مسائل قد عُلِم بالحَدْس أن التهاون والتحريف في مثلها أو بسببها داءٌ مستمرفي بني آدم فَيَسُدّ مدخل الفساد منها بأتم وجه.

ومن أسباب التحريف:

١ –التهاون: وحقيقته أن يَخلف بعد الحواريين خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، لايهتمون بإشاعة الدين تَعَلُّما وتعليما وعملاً، ولا يأمرون بالمعروف، ولايَنهون عن المنكر، فينعقد عما قريب رسومٌ خلاف الدين، وتكون رغبة الطبائع خلاف رغبة الشرائع، فيجيئ خلف آخرون يزيدون في التهاون، حتى يُنسى معظم العلم؛ والتهاون من سادة القوم وكُبَرائهم أضرُّبهم وأكثرإ فسادًا، وبهذا السبب ضاعت ملة نوح وإبراهيم ـــ عليهما السلام ـــ فلم يَكَدْ يُوجد منهم من يَعرِفها على وجهها.

ومبدأ التهاون أمور:

منها: عدم تحمل الرواية عن صاحب الملة، والعملِ به، وهو قوله صلى الله عليه وسلم:"ألايُوشك(:يقرب) رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأَحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله"وقوله صلى الله عليه وسلم:" إن الله لايَقْبِض العلمَ انتزاعا، ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء،حتى إذا لم يُبق (أي الله) عالما اتخذ الناس رء وسا جهالا، فسئلوا ،فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا"

ومنها: الأغراض الفاسدة الحاملة على التأويل الباطل، كطلب مرضاة الملوك في اتباعهم الهوى، كقوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْتُمُوْنَ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَشْتَرُوْنَ بِهٖ ثَمَنًا قَلِيْلاً، أُوْلٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِيْ بُطُوْنِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾

ومنها:شيوع المنكرات، وترك علمائهم النهي عنها،وهو قوله تعالى:﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُوْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِيْ الأَرْضِ، إِلاَّ قَلِيْلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، واتَّبَعَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مَا أُتْرِفُوْا فِيْهِ، وَكَانُوا مُجْرِمِيْنَ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم:"لماوقعت بنو إسرائيل في المعاصي نَهَتْهم عُلَمَاءُ هُم، فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم،وآكَلُوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض،ولعنهم (═)

....

(=) على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

ومن أسباب التحريف:

٢- التعمق وحقيقته: أن يأمر الشارع بأمرٍ وينهى عن شيئ، فيسمعه رجل من أمته، ويَفْهَمُه حسب ما يليق بذهنه، فيُعَدِّى الحكمَ إلى ما يشاكل الشيئ بحسب بعض الوجوه، أو بعض أجزاء العلة، أو إلى أجزاء الشيئ ومظانه ودواعيه؛ وكلما اشبته عليه الأمر لتعارض الروايات التزم الأشد، ويجعله واجبا، ويَحْمِلُ كلَّ ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم على العبادة، والحق: أنه فعل أشياءً على العادة؛ فيظن أن الأمر والنهى شملا هذه الأمور ـــ فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا، كما أن الشارع لمَّا شَرَعَ الصوم لقهر النفس، ومنع عن الجماع فيه،ظنَّ قومٌ أن السحور خلافُ المشروع، لأنه يناقض قهر النفس ، وأنه يحرم على الصائم قبلة امرأته، لأنها من دواعى الجماع، ولأنها تشاكل الجماع فى قضاء الشهوة، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فساد هذه المقالة وبيَّن أنه تحريف.

ومنها:

٣- التشدد وحقيقته: اختيار عبادات شاقّة لم يأمر بها الشارع، كدوام الصيام والقيام، والتبتل وترك التزوج، وأن يلتزم السنن والآداب كالتزام الواجبات، وهو حديث نهى النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عَمرو، وعثمان بن مظعون، عما قَصَدا من العبادات الشاقة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم:"لن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلاغلبه"(أى: لايتعمق أحدفى الدين بترك الرفق، ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته إلا عجز عن عمله كله أو بعضه) فإذا صار هذا المتعمِّق أو المتشدِّدُ مُعَلِّمَ قومٍ ورئيسهم ظَنُّوا أن هذا أمر الشرع ورضاه؛ وهذا داءُ رهبان اليهود والنصارى.

ومنها:

٤-الاستحسان وحقيقته: أن يرى رجلٌ الشارع يضرب لكلِ حكمةٍ مظنة مناسبةً، ويراه يعقد التشريع، فَيَخْتَلِس بعض ما ذكرنا من أسرار التشريع، فيُشرع للناس حسب ما عَقِلَ من المصلحة،كما أن اليهود رأوا أن الشارع إنما أمر (=)

....

(=) بالحدود زجرًا عن المعاصى للإصلاح، ورأوا أن الرجمَ يُوْرث اختلافًا وتَقَاتُلاً، بحيث يكون فى ذلك أشد الفساد، فاستحسنوا تحميم الوجه والجَلْد، فبيَّن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تحريف، ونبذ لحكم الله المنصوص فى التوراة بآرائهم. عن ابن سيرين قال:"أوَّلُ من قاسَ إبليسُ، وما عُبدتِ الشمسُ والقمر إلا بالمقاييس" وعن الحسن أنه تلى هذه الآية:﴿ خَلَقْتَنِىْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أوَّل من قاس، وعن الشعبى:قال: والله لئن أخذتم بالمقاييس لتُحَرِّمُنَّ الحلال ولَتُحِلُّنَّ الحرام. وعن معاذ بن جبل: يُفْتَحُ القرآنُ على الناس، حتى يقرأه المرأة والصبى والرجل، فيقول الرجل: قد قرأت القرآن فلم أُتَّبَع، والله لأقُوْمَنَّ به فيهم، لَعلّى اتَّبع،فيقوم به فيهم فلا يُتَّبَع، فيقول! قد قرأتُ القرآنَ فلم اتَّبع وقد قمتُ به فيهم فلم اتبع لأَحْتَظِرَنَّ فى بيتى مسجدًا لعَلّى أُتَّبع، فيحتظر فى بيته مسجدًا فلا يُتَّبَع، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أتبع، وقمت به فيهم فلم أُتبع، وقد احتظرت فى بيتى مسجدًا فلم أتبع، والله لآتينهم بحديث لايجدونه فى كتاب الله ولم يسمعوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَعلّى أُتَّبَع،قال معاذ: فإياكم وما جاء به، فإنما جاء به ضلالةٌ. وعن عمر رضى الله عنه، قال: يَهدِمُ الإسلام زَلَّةُ العالم،وجدالُ المنافق بالكتاب، وحكمُ الأئمة المضلين،والمراد بهذا كله ماليس استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله.

ومنها:

٥- اتباع الإجماع، وحقيقته: أن يتفق قوم من حملة الملة الذين اعتقد العامة فيهم الإصابة غالبا أو دائما على شيئ فَيظنّ أن ذلك دليل قاطع على ثبوت الحكم، و(يكون)ذلك (الإتفاق) فيما ليس له أصل من الكتاب والسنة وهذا غير الإجماع الذى أجمعت الأمة (الإسلامية) عليه(أى على حجيته فجعلوه دليلا ثالثا من أدلة الفقه)فإنهم اتفقوا على القول بالإجماع الذى مستنده الكتاب والسنة أو الاستنباط من أحدهما، ولم يُجوزوا القول بالإجماع الذى ليس مستندا إلى أحدهما وهو قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ آمِنُوْا بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ، قَالُوْا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاؤَنَا﴾ الآية؛ وما تمسكت اليهود فى نفى نبوة عيسى (=)

....

(=) ومحمد ـــ عليهما الصلاة والسلام ـــ إلا بأن أسلافهم فحصوا عن حالهما، فلم يجدوهما على شرائط الأنبياء؛ والنصارى لهم شرائع كثيرة، مخالفة للتوراة والإنجيل،ليس لهم فيها متمسك إلا إجماع سلفهم.

ومنها:

٦-تقليد غير المعصوم: أعنى غير النبى الذى ثبتت عصمته، وحقيقته: أن يجتهد واحد من علماء الأمة فى مسئلة،فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعًا أو غالبًا، فيَردوا به حديثا صحيحا؛ وهذا التقليد غيرما اتَّفَقَ عليه الأمة المرحومة، فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين، مع العلم بأن المجتهد يخطئ ويصيب، ومع الاستشراف لنص النبى صلى الله عليه وسلم فى المسئلة، والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلد فيه،ترك التقليد،واتبع الحديث ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى:﴿ إِتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ﴾: إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوالهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حَرَّموه.

ومنها:

٧- خلط ملة بملة،حتى لايتميز واحدة من الأخرى؛ وذلك أن يكون إنسان فى دين من الأديان، تعلق بقلبه علومُ تلك الطبقة، ثم يدخل فى الملة الإسلامية، فيبقى مَيْل قلبه إلى ما تعلق به من قبلُ، فيطلب لأجله وجهًا فى هذه الملة، ولو ضعيفا أو موضوعًا، وربما جوَّز الوضعَ، ورواية الموضوع لذلك، وهو قوله صلى الله عليه وسلم:" لم يزل أمر بنى إسرائيل معتدلا، حتى نشأفيهم المولَّدون، وأبناء سبايا الأمم، فقالوا بالرأى فضلّوا وأضلّوا"

ومما دخل فى ديننا علوم بنى إسرائيل، وتذكير خطباء الجاهلية، وحكمة اليونانيين، ودعوة البابليين، وتاريخ الفارسيين، والنجوم، والرمل، والكلام، وهو سرُّ غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرئ بين يديه نسخة من التوراة، وضرب عمر رضى الله عنه من كان يطلب كتبَ دانيال. والله أعلم.

أسباب استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

وأما استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،فأسبابُه:

١- اختلاف عادات الأنبياء وأحوالِهم في إكثار التزوج والإقلال منه، وماأشبه ذلك.

٢- واختلاف شرائعهم.

٣- واختلاف سنة الله تعالى في معاملة الأنبياء.

٤- وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم من بني إسماعيل ،بعد ماكان جمهور الأنبياء من بني إسرائيل .

٥ - وأمثال هذه الأسباب[1].

النبوة ومنهجها في إصلاح الناس:

والأصل في هذه المسئلة:[2] أن النبوة كائنةٌ لإصلاح نفوس الناس، وتهذيب عباداتهم وتعديل عاداتهم، لالإنشاء أصول البر والإثم؛ولكل قوم عادات في العبادات، وتدبير المنزل ، والسياسة المدَنِيَّةِ ، فإذا ظهرت فيهم النبوة فلا تستأصل هذه العادات بالمرَّة، ولا تضع لهم عاداتٍ جديدةً، بل تميِّزُ فيما بين العادات، فماكان منها صالحا مطابقا لرضى الله تعالى تُبقيه وتحفظه، وماكان منها مخالفاً للأصل، منافيا لرضى الله تعالى تُغيره حسب الضرورة وتعدِّله.

وكذلك يكون التذكير بآلآء الله، وبأيام الله على الأسلوب الذى هو معروف عندهم، وشائع لديهم؛ فهذا هو السبب في اختلاف شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

---

(١)كنزول القرآن نجْمًا نجمًا، فقالوا: لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة؟ (رَ:الفرقان ٣٢) وكظهور ملة الإسلام في صورة غلبة الملوك؛ وما إلى ذلك من الوساوس.

(٢)يعني اختلاف شرائع الأنبياء؛ فوجه الاختلاف فيها: أن النبوة الخ.

اختلاف الشرائع كاختلاف وَصَفَاتِ الطبيب

وهذا الاختلاف فى الشرائع كالاختلاف فى وصفات[١] الطبيب : فإنه إذا دَبَّر أمر المريضَيْن يصف لأحدهما دواء وغذاء باردًا ، ويأمر الآخَربدواء وغذاء حار، وغرض الطبيب من معالجتهما واحد، وهو إصلاح مزاجهما، وإزالة المواد الفاسدة منهما، لاغير؛ويمكن أن يصف الطبيب فى كل منطقة أدوية وأغذية مختلفة، تلا ئم أهلها، وكذلك يختارفى كل فصل من الفصول علاجا مختلفا يناسب ذلك الفصل[٢].

كذلك لماأراد الطبيب الحقيقى — جلَّ مجدُه — معالجةَ من ابتُلى بالمرض النفسانى،وتقويةَ القوة الملكية، وإزالةَ الفساد الطارئ عليهم، اختلفت المعالجة بحسب اختلاف أقوام كل عصر وعاداتهم، ومشهوراتهم، ومسلماتهم .

أنموذج اليهود

وعلى كلٍّ، فإن أردت أن ترى أنموذج[٣]اليهود، فانظر إلى علماء السوء الذين يطلبون الدنيا، ويولَعون بتقليد السلف ، ويُعرضون من نصوص الكتاب والسنة، ويستندون إلى تعمقِ عالمٍ وتشدُّده، أو إلى استحسانه، فأعرضواعن كلام الشارع المعصوم، وجعلوا الأحاديث الموضوعة، والتأويلات الفاسدة قدوة ، فانظر كأنهم هم!

---

(١)وَصَفَ الطبيبُ الدواءَ: عَيَّنه باسمه ومقداره؛ والوصفة: ما يكتبه الطبيب للمريض من الأدوية.

(٢) الفصل: زمن من أزمن السنة؛ وهى: الربيع والخريف، والصيف والشتاء.

(٣)الأنموذج والنموذج: مثال الشيئ؛ أصلهما كلمة فارسية؛ وهى نمونه.

ذكر النصارى[1]

عقيدة التثليث والرد عليها

أما النصارى: فكانوا مؤمنين بسيدنا عيسى عليه السلام، وكان ضَلالهم:

---

(١)النصارى:هم أتباع عيسى ابن مريم المسيح، عليه الصلاة والسلام، المعتنقون للديانة المسيحية، مفردها: نصرانى ، نسبة إلى(الناصرة) على غير قياس.

والنصرانية: فى بداية أمرها دينُ توحيد، يدعو إلى الزهد فى الدنيا والتطلّع إلى الآخرة. وكانت رسالة المسيح خاصة لقومه اليهود، فإنه عليه السلام جاء ليهدى خِرَاف(جمع الخَرُوف:الحمل)بيتِ إسرائيل الضالةَ، وليس للعالَم جميعًا، بدليل قوله فى الآية الخامسة والسادسة من الباب العاشر فى إنجيل متى:(إلى طريق أمم لاتمضوا، وإلى مدينة السامين لاتدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) وفى متى أيضًا فى الباب الخامس عشر فى الآية الرابعة والعشرين:(لم أُرْسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)

ثم قام بولُس الرسول(واسمه الأول شاوُل) فدعا غير اليهود للدخول فيه وابتدع فكرة التثليث،فأخذها منه الدعاة لهذا الدين، فخرج هذا الدين عن التوحيد إلى التثليث، فجعلوا شخصية المسيح شخصية ممتازة: إلَهًا أو ابن إلِهٍ.

فحقًا أن نقول: إن الدين الذى يتبعه المسيحيون الآن هو دين بولس، لادين المسيح. وهذا الدعوى يحتاج إلى البراهين والشواهد. فمن شاء فليرجع إلى "إظهار الحق "(٢:١٦٣) للبحاثة الشيخ رحمة الله الهندى عليه رحمة الله. فإنه أجمعُ وأغزر مادة للمسائل المختلفة بين المسلمين وأهل الكتاب، وإلى معجم القرآن لعبد الرؤف المصرى (٢:٢٠٩) وإلى تقدمة الشيخ محمدتقي العثمانى على ترجمة إظهار الحق بالأردية التى أسماها بـ" قرآن سے بائبل تک"

وقد تقدم ذكر الأناجيل الأربعة فى فاتحة ذكراليهود، ثم اعلم أنه قدظهرت أناجيلُ كثيرة، اتفقت الطوائف المسيحية على أربعة منها، وأُهملت إنجيل برنابا، لأنه يبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم، على أن بين إنجيل برنابا والأناجيل (=)

....

(=) الأربعة تقاربًا كبيرًا فى أكثر الأمور، فإنجيل برنابا يعتمد فى حوادثه على أسفار العهد القديم وهو يستشهد باثنين وعشرين سِفْرًا، فى مقدمتها أسفار موسى وأشعيا والزبور، ثم هو مطابق للأناجيل الأربعة فى أكثر المواضع بالرواية والمعنى تارة، وبالنص والحرف تارة أخرى، وهذا الإنجيل كان فى مكتبة البابا(سكوتس الخامس) فى القرن السادس عشر. وقد حمله الراهب(فرامرينو) من مكتبته، وترجَم إلى الإنكليزية، ومؤخرًا إلى العربية، وحفظت نسخة البابا الإيطالية فى مكتبة بلاط فينا إلى ما قبل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤م.

فالأناجيل المعتمدة عندهم أربعة، وهم يرتبونها هكذا: مُرْقص(Mark)، مَتّى (Mathew)، لُوقَا(Luke)يُوحَنّا(Jhon)(وهى لاتخرج عن تاريخ السيد المسيح وإليك نبذًا عنها:

١ – إنجيل مُرقُص: كتب بعد (٧٠) سنة من عُروج السيد المسيح؛ وجُمع هذا الإنجيل من الرواة الذين عاصروه، أو عاصروا أتباعه، ومادته قليلة، يبدأ بقصة يوحنّا المُعْمَدَانِ، ثم عن تجوّلات السيد المسيح وأيامه الأخيرة.

٢ – إنجيل مَتّى : كتب فى أواخر القرن الأول، مادته تزيد عن مادة إنجيل مُرْقُص، يأتى بأقوال المسيح مُنَسَّقة بالأسلوب الأدبى لذلك العصر، وهو يُعَدّ قطعة فنية، ثم يتكلم عن نسب المسيح وأيامه الأخيرة.

٣–إنجيل لُوقا: كُتب فى أوائل القرن الثانى، وثُلُثَامادته جديدة، لايوجد مثله فى الأناجيل الأخرى، غير مرقص فإنه قد استعان به.

٤ – إنجيل يوحنّا: وهو يعد بذرةُ الفلسفة المسيحية، ومادته تخالف بعض ماجاء فى الأناجيل الأخرى، كتب قسم منه فى ثلث القرن الثانى، ولكنه لم تتم كتابة أجزائه الأخرى إلا فى فترات متأخرة من القرن الثانى.

وترجمت الأناجيل إلى جميع لغات العالم المقرو ء ة(معجم القرآن ١:٨٩) وقال صاحب " المنجد فى العلوم والفنون": الإنجيل: كلمة يونانية معناها: البشرى، والأناجيل: مجموعة أعمال المسيح وأقواله، وصلت إلينا بأربع روايات، وضعها: متى ويوحنا ــ وهما من الرسل ــ ولوقا ومرقص ــ (=)

....

(=) وهما من تلاميذ المسيح ـــ وسميت بالإنجيل لأنها أتت للأنام بِبُشرى الخلاص عن يد المسيح الفادى اهـ.

وقال: متى:من تلامذة المسيح الاثنى عشر،كان عَشَّارًا (: من يأخُذ على السِّلَع مَكْسًا) فى "كفر نحوم" استشهد دون أن نعرف يقينا أين ومتى كان ذلك؟ له أنجيل متى كتبه لمسيحى فلسطين،اليهودى الأصل.

ويوحنا الحبيب ابن زبدى وسلومة وأخو يعقوب الكبير، أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر، وأحد الإنجيليين الأربعة. عانى الاضطهادات والعذاب، ومات فى شيخوخة صالحة، له إنجيل يوحنا وسِفر الرؤيا، كتبهما فى أواخر القرن الأول.

لوقا:قديس ورفيق بولس الرسول فى أسفاره، من المرجح أنه كان طبيبا، توفى نحو ٧٠ كتب إنجيل لوقا وسفر أعمال الرسل.

مرقص: القديس الإنجيلى، من تلامذة بطرس، وينسبون إليه تأسيس كنيسة الإسكندرية، مات شهيدًا(٦٨؟) له إنجيل مرقص، وهو إحدى البشارات الأربع (=كلمة إنجيل ومتى ويوحنا ولوقا ومرقس).

وقال عبد الرؤف المصرى فى معجم القرآن(١:٩٠) سأل جلال الدين المبشر الأحمدى فى الديار العربية القس الفريد نلسن الدانمركى المبشر فى دمشق سنة ١٩٢٧ عدة أسئلة منها:

السؤال الثانى: هل يمكنك أن تثبت بالأدلة التاريخية كون متى ومرقص ولوقا ويوحنا من تلامذة المسيح، وأنهم دونوا هذه الكتب الأربعة، المتداولة بين أيديكم؟

جواب القس: نفس الأناجيل تخبر بكون متى ويوحنا من رسل المسيح، ولا يوجد شيئ عند القدماء يخالف ذلك، وأما مرقس فيذكر فى الشهادات القديمة أنه كرفيق بطرس الرسول، وأن لوقا كرفيق بولس، والشهادات القديمة تثبت أيضًا أن مرقس دوّن الإنجيل الثانى، ولوقا الإنجيل الثالث، لكنه يوجد بحث من جهة تأليف متى الإنجيل الأول، لكن أهمية البحث هى عن الإنجيل الرابع فإنه كان هو يوحنا رسول المسيح أم غيره؟ وأنكر كثيرون من العلماء فى القرن الماضى نسب (=)

أنهم يزعمون أن لله تبارك وتعالى ثلاثة أجزاء متغايرة بوجه، ومتحدة بآخر، وكانوا يسمونها "الأقانيمَ[1] الثلاثة":

⟸ هذا الإنجيل إلى يوحنا الرسول، لكنه يظهر من الأبحاث الحديثة أن بعض العلماء ميَّالون إلى الفكر القديم: أن مؤلفه هو يوحنا الرسول(انتهى)

ومنها السوال الرابع: هل زاد مؤلفوها أو المتأخرون فيها بعض الجمل من عند أنفسهم أم لا؟

الجواب: كماقيل آنفا نعتقد أن المؤلفين مازادوا شيئًا على ما عرفوا من الأخبار(راجع إنجيل لوقا، الإصحاح الأول ع ١-٤) أما من جهة المتأخرين فيجوز أنهم زادوا فى إنجيل مرقص ع ٩-٢٠ من الفصل الأخير و ع ١-١١ من الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا ، إذ أن القطعتين المذكورتين ليستا موجودتين فى أقدم النسخ .(انتهى الجواب ، وانتهيتُ من النقل عنهما)

وأقول لك: أيها القارى! عليك أن ترجع إلى دائرة المعارف البريطانية فى الجزء السابع عشر صفحة ٨٩٨ فهى تدلك على تحريف واسع فى الأناجيل، وعما لايوجد فى أقدم النسخ، وراجع ديباجة هارون فى الجزء الثانى ص ٣٣٢ وكذلك يقول العلامة ج - ر-د دميلوا المسيحى اللاهوتى فى تفسيره المشهور، ثم يعترف القس نفسه فى رسالته الثانية سنة ١٩٢٧ بأن النسخ القديمة للأناجيل الأربعة الموجودة اليوم، والتى تاريخها القرن الرابع بعد المسيح كانت قد ضاعت، وبقيت مدة طويلة غير معروفة حتى لعبت بها أيدى الناس، ثم إنه يوجد اختلاف فى تعيين شخصيات مؤلفى الأناجيل، فلهذالايمكننا أن نَبُتّ الرأى فيهم أنهم من الحواريين أو من رواتهم أو أن اللاعبين بها من القصاصين أو الدساسين. على أن إنجيل متى ٢٧- ٣٥ لايوجد فى أقدم النسخ، كما أن أصلية كثير من الكلمات لاأصل لها مثل:(أصعد إلى السماء)

وخلاصة القول: فى هذه الأناجيل: أنها كتب تاريخية مضطربة المصادر، منها ما هو كذب، ومنها ما هو متناقض .(انتهى عبارة معجم القرآن)

---

(١)الأقانيم جمع الأقنوم،وهى كلمة سُريانية، معناها: الشخص (Person) والأصل.

أحدها: الأب؛ وهو بإزاء مُبدأ العالم[1]

---

(١) قارن الإمام المصنف رحمه الله مصطلحات النصارى بمصطلحات الفلاسفة؛ والفلاسفة يعنون بمبدأ العالم ذاتَ الواجب تعالى، وبالصادر الأول العقلَ الأولَ، وبالعقول المجردة العقولَ العشرة. والعقل عندهم: جوهر مستغن فى أفعاله عن الآلات الجسمانية، متوسط بين الواجب ومصنوعاته فى إفاضة الوجود.

واستدلوا عليه بوجوه:

أشهرها: أن الصادر الأول عن الواجب ليس بجسم، لأن الجسم مركب، ولا يصدر عن الواحد الحقيقى إلا الواحد، ولا عرضا لأنه لايقوم بلامحل، فالصادر جوهر مجرد سمى بالعقل الأول، وهو وإن كان من حيث ذاته واحدًا، لايصدر عنه إلا الواحد، لكن فيه ثلاث جهات: وجوده فى نفسه، ووجوده بالواجب، وإمكانه الذاتى؛ فيصدر عنه ثلاثة أشياء؛ العقل الثانى ــ باعتبار وجوده ــ والفلك الأعظم وهوالفلك الأول ــ باعتبار إمكانه ــ والنفس المدبرة لهذاالفلك ــ باعتبار وجوبه ــ ثم يصدر عن العقل الثانى بالجهات الثلاث : العقل الثالث، وفلك الثوابت، والنفس المدبرة له، وهكذا إلى العقل العاشر، المدبر لعالم العناصر، وما يتركب منها، على حسب استعداد المواد، ولهم فى كيفية الصدور وعدد جهات العقول أقوال أخر، ليس هذا محل بسطها(مَن النبراس لشرح شرح العقائد النسفية للعلامة محمد عبد العزيز البرهياروى ص ١٤٣ بتوضيح) فالإمام ولى الله رحمه الله شَبَّه الثالوث(ما رُكِّب من ثلاثة) المسيحى بثالوث الفلاسفة، لينكشف لك الحال، واختار للتشبيه ثالوث الفلاسفة لأن عصره كان عصر الفلسفة والمنطق.

ثم اعلم أن أصل عقيدة التثليث: هى ديانة قديمة جدا، جاء ت بها الديانات المصرية والهندية والبابلية، وقد تكلمت عن شخصيات مثل شخصية المسيح وأبيه وأمه، التى جاء ت بها الديانة المسيحية مؤخرًا بعد أن قامت بفكرة التوحيد كما قدمنا.

فالتثليث عند قدماء المصريين: هوالأب أوزيرس (Osiris) والابن هورس (Horus)، والعذراء إيزيس(Isis)زوجة أوزيرس.

والتثليث الهندية: فإن الثالوث الأول هو أَجْنِى(النار) ووَايُو (الهواء) وسُورْىَ (الشمس) وقد نزع منهم السلطة ثالوث ثان، هو:برهما ووِشْنو (Vishnu)

....

(=) وشِيْوا(Shiva) أما الإلّـه شِيْوا فهو إلّـه الحياة والتبديل، وأما وِشنُوفهو الحافظ، وأما برهما فهو البارئ الخالق، وهو أعلاها.

وقال الشيخ عبد المنعم النمر(تاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٢): والفكرة التى تقوم عليها عبادة الهندوس ــــ كما حدثنى غير واحد منهم ــــ أن الله واحد، ولكنه حلَّ فى شيفا وفشنو الخ وقال لى كاهن: إننا لانستطيع تصور المجرد، ولذلك رمزنا للإلّه بهذه الرموز التى سمينا ها آلهة، حتى يمكن تصوره والتوجه له. وقال لى بعضهم: إن فكرتنا قريبة من فكرة المسيحيين عن حلول روح الإلّه فى عيسى. وكل فرقة منهم اعتقدت فى حلول الآلهة فى واحد، فعبدوه؛ وهذا تفسير المثقفين لا العوام اهـ.

هنا تذكر ما قلنا لك أن بولُس هو الذى ابتدع فكرة التثليث، لما فتح باب الديانة المسيحية لغير اليهود أى للعالم جميعا، لأنه رأى تلك الفكرة أقرب الطرق لوصوله إلى بغيته، فإن الديانات الأخر يتلقونها برغبة.

والتثليث البابلية: فكانوا يعتقدون فى ثلاثة آلهة عظيمة، وهى: أنو(Anu) رب السماء، وبعل (Baal) أومردوخ(Merduke) خالق الأرض والإنسان، وهيا(Ea) رب الماء وتحت الأرض؛ وهذه الآلهة الثلاثة تكوِّن الثالوث الأول، فى حين كان الثالوث الثانى مركبا من سين(Sin) والشمس وريمان(Rimman) إلّه الرعد والبرق، وكان لكل واحد من هذه الآلهة(أنو وبعل وهيا) إلاهةٌ تزوج بها لتُعاونه فى إيجاد الخلق، فزوجة أنو هى أنتو(Antu) وتزوج بعل ببعليتو(Balitu) وهيا تزوج دومنيكا(Domnika).

وبالجملة: فهذه أربعة تثليثات قديمة: ثليث الفلاسفة والمصريين والهنود والبابليين، كانت مسيطرة على العالم جميعا، فاخترع البولس تثليثا خامسا ليسهل له طريق إشاعة الدين المسيحى إلى العالم بأسره.

أو نقول: إنه حرّف دين المسيحية: دين التوحيد،لأنه يمكن أن يكون فى دين من الأديان تعلق بقلبه تثليث تلك الطبقة، ثم دخل فى الملة المسيحية فبقى ميل قلبه إلى ما تعلَّق به من قبل، فطلب لأجله وجهًا فى الملة المسيحية أيضًا. وراجع ماقدمنا من الكلام على التحريف وأسبابه(وراجعتُ لهذا التعليق (=)

والثانى:الابن؛ وهو بإزاء الصادر الأول الذى هومعنى عام شامل لجميع الموجودات[1]

____

(⟸) معجم القرآن ١٥٥:١، ١١٢ وتاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٢-٤٨ والمنجد فى الأدب والفنون من مواضع شتى)

(١) الفلاسفة يعنون بالصادرالأول العقلَ الأول، وصاحبنا الإمام المصنف له وجهة أخرى فى هذه المسئلة فذكرها، ورد على الفلاسفة مذهبهم؛ وتكلم الإمام على هذه المسئلة مبسوطا فى التفهيمات الإلٰهية(٢:٢٨-٣١) وفى الخير الكثير (ص ٢٠-٢٤) فقال:

القضية الفلسفية بأن الواحد لايصدر عنه إلا واحد، صادق؛ والصادر الأول من الحقيقة الواجبية اسم من أسماء الله سبحانه، وليس بعقل كما يزعمه الفلاسفة.

والاسم: ماكان عنوانا للشيئ، وصادقا عليه، ولايمتاز عنه إلا بأن الشيئ من حيث هو ذلك، ليس هو هذا الاسم، بل من حيث أخذ معه خصوصية شارحة لماهية الشيئ؛ كالزوج للأربعة؛ أوخصوصية زائدة أجنبية ليست من اقتضاء الماهية، كالكاتب للانسان؛ هذه ماهية "الإسم" على سبيل العموم.

وأما هذا الصادر فلاجرم أنه من القبيل الأول ــــ أعنى لازم الماهية ــــ لأن ماهيته عين وجوده، فلايتصور هناك مايكون لازم الوجود من غير اقتضاء الماهية؛ والعقل جوهر متغاير ليس بعنوانٍ للواجب، ولاصادق عليه(فكيف يكون هو الصادر الأول؟)

ولنا فى إثبات هذا المطلب وجوه(فذكروجوهًا ثلا ثة فقال:)

والثالث: أيضًا يحتاج إلى تمهيد مقدمة؛ هى: أن الإبداع ليس شاكلته شاكلةَ البناء ولا الجعل المركب، الذى أثره الهيئة الخلطية، بل الحق أنه جعل بسيط، أثره الشيئ بنفسه ــــ هذا هو النظر الجلى.

والنظرالدقيق يحكُمُ بأن الصادر الأول تمثال مًا للمصدر، وأن ليس الانبجاس إلابظهور جهة المصدر فى خصوصيات لاتعدولاتحصى،والصادر الأول جامع لشتات الصادرات أجمعها؛ لأنه لو صدر أمر خاص لما صدر غيره، إذ الواحد لايصدر عنه إلا واحد.

(⟸)

والثالث: روح القدس ؛ وهو بإزاء العقول المجردة.

وكانوا يعتقدون أن أقنوم "الابن" تدرع[1] بروح عيسى عليه السلام، أى كما أن جبرئيل عليه السلام قد يظهر فى صورة الإنسان، كذلك ظهر الابن فى صورة روح عيسى عليه السلام ؛ فعيسى إله وابنُ إله وبشر أيضًا فى وقت

(=) وإنما أعنى بالخصوصية الهيئة الفارقة بين الجهة والصادر منها؛ وقد قضت الضرورة الفطرية بأن الشيئ الجامع للمظاهر لايتلون بلون مظهرما، وإلا لما كان جامعا.

وإذا تمهدت المقدمة، فنقول: الصادر الأول تمثال لجهة الواجب — جل مجده — كله بكله، لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلاَّ أحصاها، ولايمتاز عنه إلا بالخصوصية الشارحة، فلا جرم أنه اسم أعظم من أسماء الله سبحانه اهـ (التفهيمات الإلٰهية)

وقد تكلم الإمام النانوتوى — رحمه الله تعالى — فى كتابه "قبله نُما" (ص ١٩١ وفيما بعده) على هذه المسئلة مبسوطا وفذلكة القول:

أن الكمالات الذاتية الواجبية — بأسرها — مجتمعة فى التجلى الأول، ثم صدرت منه الكمالات إلى العالم، كالشمس اجتمعت فيها الأنوار من جانب الله تعالى، ثم خرجت منها إلى العالم.

وهذا التجلى تجلى أولى معبود، والصادر منه صادر أول، وهو الوجود المنبسط المجرد لأن سلسلة المفاهيم قد انتهت على الوجود فليس فوقه مفهوم، وهو مجمع الكمالات أيضًا؛ فعلم من هذا أن "الوجود" هو الصادر الأول من التجلى الأول، ثم وُجد العالم بحذافيره من هذا الوجود المنبسط المجرد فكأن الكائنات بأسرها قطعات متفرقة، وحصص متمايزة لهذا الوجود، فالصادر الأول معنى عام شامل لجميع الموجودات.

وتفصيل الكلام طويل، يحتاج إلى بحث دقيق، وفى القدر المذكور كفاية للطالب البصير.

(١) تدرَّع أى تقمَّص .

واحد؛ وتجرى عليه الأحكام البشرية والإلٓهية معًا[1].

(١) ذهب جمهور النصارى إلى ما ذكره الإمام من مذهبهم، راجع دائرة المعارف لبريتانيكاج ٢٢ ص ٤٧٩ وفى" نويد جاويد"(ص ٣٥٦): أن فرقة منهم تزعم أن الأقانيم الثلاثة: الأب والابن ومريم العذراء.

ثم اعلم أن المنازعة بيننا وبين أهل التثليث لاتتحقق مالم يقولوا: إن التثليث والتوحيد كليهما حقيقيان، وإن قالوا: التثليث حقيقى والتوحيد اعتبارى، فلا نزاع بيننا وبينهم؛ لكنهم يقولون: إن كلامنهما حقيقى، كما هو مصرح به فى كتب علماء بَرَوْتِسْتَنْت(Protestent)قال صاحب ميزان الحق (القسيس فندر) فى الباب الأول من كتابه المسمى بحل الإشكال هكذا:(إن المسيحيين يحملون التوحيد والتثليث كليهما على المعنى الحقيقى)

ثم اختلفوا فى بيان علاقة الاتحاد بين أقنوم الابن وجسم المسيح اختلافا شديدًا، حتى إذارأى علماء بروتستنت أن بيان علاقة الاتحاد لايخلو عن الفساد البين، تركوا آراء الأسلاف وعجَّزوا أنفسهم، واختاروا السكوت عن بيانها، وعن بيان العلاقة بين الأقانيم الثلاثة.

قال المَلْكانية واليعقوبية والنسطورية: إن الابن اتحد بإنسان مخلوق، فصار هو وما اتحد به مسيحًا واحدًا، وأن المسيح هو إله العباد وربهم ثم اختلفوا فى صفة الاتحاد، بينه العلامة المقريزى فى كتابه المسمى بالخطط فى بيان الفرق المسيحية التى كانت فى عصره، وحكاه العلامة رحمة الله فى إظهار الحق ١: ٢٨ فراجعه، فإن الظروف لاتسمح لنا بنقل الخرافات؛ وكذا اختلفت آراء النصارى فى حكم كل أقنوم، فقالت طائفة: كل أقنوم إله بذاته كما أن المجموع إله، وقالت أخرى: كل أقنوم إله ولكن المجموع أقل رتبة من الإلـه، وإطلاق كلمة الإله على المجموع على سبيل التجوز، وقالت الثالثة ــ وهى المرقولية ــ : أن المجموع إله والأفراد ليس بإلـه،(الخطط المقريزية ٣: ٤٠٨ طبع لبنان سنة ١٩٥٩م)

وبالجملة: فهذه العقيدة مما يتخبط فيها الجهلاء خبط العشواء، ويتحير علماؤهم ويعترفون بأنانعتقد ولانفهم، ويعجِزون عن تصويرها وبيانها، وحُكى أن رجلا ذكيا تَنَصَّر، فعلَّمه بعض القسيسين العقائد الضرورية سيما عقيدة التثليث أيضًا ثم طلبه بعد مدة وسأله عن التثليث فقال: يا مولاى! حفظت ما (=)

وكانوا يتمسكون فى إثبات هذه العقيدة ببعض نصوص الإنجيل التى أطلق فيها لفظ "الابن" على عيسى عليه السلام[1]، وكذلك يستدلون بالآيات

(=) علمتنى جيدًا، وفهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح: أن الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، وصُلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد ولا إله الآن، وإلا يلزم نفى الاتحاد!(إظهار الحق ١ : ٢٨٧ بتصرف)

(١) الأقوال التى يتمسك بها المسيحيون غالبًا مجملة منقولة عن إنجيل يوحنا، وهى على ثلاثة أقسام: بعضها لاتدل بحسب معانيها الحقيقية على مقصودهم، فاستنباط الألوهية منها مجرد زعمهم، وبعضها أقوال يفهم تفسيرها من الأقوال المسيحية الأخر،أو من بعض مواضع الإنجيل، ففيها أيضًا لااعتبار لرأيهم. وبعضها أقوال يجب تأويلها عندهم أيضًا، فإذا وجب التأويل فليكن ذلك بحيث لايخالف البراهين والنصوص؛ فلا حاجة إلى نقل الكل، ولنكتف بالأنموذج لنقيس الباقى عليه:

(الف) يتمسكون على ألوهيته عليه السلام من إطلاق الله تعالى لفظ " ابن الله" عليه، ومن إطلاقه عليه السلام على الله تعالى لفظ " الأب" راجع إنجيل مرقس ١٣: ٣٢ وإنجيل لوقا ٢٣: ٤٦ والمواضع الكثيرة من إنجيل يوحنّا؛ وسيجيئ الجواب عن هذا فى الكتاب.

(ب)أنه عليه السلام نفى كونه من هذا العالم، اقرأ إنجيل يوحنا ٨: ٢٣ ففيه: (فقال لهم: أنتم من أسفل؛ أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم) يعنى أنى " إله" نزلت من السماء وتَجَسَّمتُ.

قلنا: إنه عليه السلام قال مثل هذا القول فى حق تلاميذه أيضًا، ففى إنجيل يوحنا ١٥ : ١٩ هكذا:(لو كنتم من العالَم لكان العالَم يُحبّ خاصته، ولكنكم لستم من العالم ، بل أنا أخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم) وفى ١٧: ١٤ و١٦ مثل ذلك؛ فلو كان هذا مستلزما للألوهية ـــ كما زعمواـــ لزم أن يكونوا كلهم آلهة ، والعياذ بالله! بل التأويل الصحيح: أنتم طالب الدنيا الدنيئة وأنا لستُ كذلك، بل أنا طالب الآخرة ورضاء الله؛ وهذا المجاز شائع فى الألسنة يقال: للزهاد والصلحاء: أنهم ليسوا من الدنيا.

(ج)فى إنجيل يوحنا ١٠ : ٣٠ هكذا:(أنا والأب واحد) فهذا يدل على (=)

....

(ــ) اتحاد المسيح بالله.

قلنا: وقع مثل هذا فى حق الحواريين أيضًا ،ففى إنجيل يوحنا ١٧: ٢١- ٢٣ هكذا:(ليكون الجميع واحدا، كما أنك أنت أيها الأب فىّ وأنا فيك ليكونواهم أيضًا واحدًا فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتنى وأنا قد أعطيتهُم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد، أنا فيهم وأنت فىّ ،ليكونوا مكملين إلى واحد) فقوله: "ليكون الجميع واحدًا" وقوله:" ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد" وقوله:" ليكونوا مكملين إلى واحد" يدل على اتحادهم، وسوّى فى القول الثانى بين اتحاده بالله وبين اتحاده فيما بينهم، وظاهر أن اتحادهم فيمابينهم ليس حقيقيا، فكذا اتحاده بالله؛ بل الحق: أن الاتحاد بالله عبارة عن إطاعة أحكامه والعمل بالأعمال الصالحة.

(د)وقد يتمسكون على ألوهيته ببعض حالاته، فيستدلون تارة: أنه ولد بلا أب.

قلنا: فآدم عليه السلام يفوق عليه بكثير، لأنه ولد بلاأب وأم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾(سورة آل عمران ٥٩)

(هـ)وتارةً يستدلون بمعجزاته كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، بأن ذلك لايمكن حصوله إلا بقدرة الإلٓه تعالى.

قلنا: من أعظم معجزاته إحياء الموتى، فعيسى عليه السلام بحسب هذا الإنجيل ما أحيى إلى زمان الصلب إلا ثلثة أشخاص: ابنة الرئيس (كما فى الأناجيل الثلاثة الأولى) والميت(نقله لوقا فقط فى الباب السابع) والعاذار(نقله يوحنا فقط فى الباب الحادى عشر من إنجيله) وفى الباب السادس والعشرين من كتاب الأعمال : وأحيى حزقيال ألوفًا كما فى كتابه فى الباب السابع والثلاثين، وأحيى إيليا عليه السلام أيضًا ميتًا(سفر الملوك الأول فى الباب ١٧) وأحيى المسيح عليه السلام أيضًا ميتا(سفر الملوك الثانى فى الباب ٤) فهؤلاء كلهم يجب أن يكونوا آلهة، بل حزقيال أحق وأولى بأن يكون إلٓها.

(و) إنه عليه السلام قد نسب إلى نفسه بعض الأفعال الإلٓهية كما يأتى فى التعليق الآتى(ملتقاة من إظهار الحق)

التى نَسب فيها عيسى عليه السلام بعضَ أفعال الله تعالى إلى نفسه[1]

وجواب الإشكال[2] الأول : على تقدير صحة نصوص الإنجيل، وأنه ليس فيها تحريف[3]: أن لفظ "الابن" فى العهد القديم، كان مستعملاً بمعنى

---

(١) كما فى الأصحاح (أى الباب فإن الأصحاح ـــ بفتح أوله وبكسره ـــ من التوراة والإنجيل: دون السِفر وفوق الفصل منهما) الثامن من إنجيل متى: (ولما نزل من الجبل اتبعه جموعٌ كثيرة، وإذا بأبرص قد جاء، وسجد له قائلاً: يارب إن شئت فأنت قادر على تطهيرى فمدَّ يسوعُ يده ولمسه، وقال: "قد شئتُ فاطهر" فطهر للوقت من برصه) (الآيات ١-٣)

(٢) الإشكال (هنا وفيما يأتى) بمعنى الالتباس والاشتباه من أشكل الأمر: إذا التبس، يقال: " أشكلت عَلَىَّ الأخبارُ" أى التبست؛ فالشبهتين اللتين أوصلتهم إلى الضلالة: (الف) إطلاق لفظ " الابن" عليه صلى الله عليه وسلم (ب) ونسبته عليه السلام إلى نفسه بعض الأفعال الإلّهية.

(٣) قد ثبت أن التحريف وقع فى هذه الكتب يقينا، وثبت أن أهل الدين والديانة كانوا يحرفون قصدًا لتائيد مسئلة مقبولة، أو لدفع اعتراض، وقد ثبت تحريفهم فى مسئلة التثليث أيضًا فزادوا فى الباب الخامس من رسالة يوحنا الأولى، ففيها: (لأن الذين يشهدون فى السماء ثلثة، وهم الأب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة واحدة، والشهود الذين يشهدون فى الأرض ثلثة وهم الروح والماء والدم، وهؤلاء الثلثة تتحد فى واحد) ففى هاتين الآيتين كان أصل العبارة على ما زعم محققوهم هذا القدر: (لأن الشهود الذين يشهدون ثلثة وهم الروح والماء والدم، وهؤلاء الثلثة تتحد فى واحد) وراجع للبحث إظهار الحق ١: ١٨٢ من الشاهد: ٣١ من المقصد الثانى.

وزادوا بعض الألفاظ فى الباب الأول، من إنجيل لوقا، وأسقطوا بعض الألفاظ من الباب الأول من إنجيل متى، وأسقطوا الآية التامة من الباب الثانى والعشرين من إنجيل لوقا؛ ففى هذه الصورة لو وُجد بعض الأقوال المسيحية المتشابهة، الدالة على التثليث فلا اعتماد عليها (إظهار الحق مختصرًا ١: ٢٧٩) ـــ

....

(=) على أن ذات الله تعالى وصفاته الكمالية قديمة، غير متغيرة، موجودة أزلا وأبدًا، فلوكان التثليث حقا لكان الواجب على موسى عليه السلام وأنبياء بنى إسرائيل أن يبينوه حق التبيين، فالعجب كل العجب أن تكون الشريعة الموسوية خالية عن بيان هذه العقيدة، التى هى مدار النجاة على زعم أهل التثليث، ولا يمكن نجاة أحد بدونها، نبيًا كان أو غير نبى.وأعجب منه أن عيسى عليه السلام أيضًا مابين هذه العقيدة إلى عروجه، ببيان واضح، مثلاً بأن يقول:" إن الله ثلثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس، وأقنوم الابن تعلق بجسمى بعلاقة فلانية" أو: بعلاقة فهمها خارج عن إدراك عقولكم فاعلموا أنى أنا الله لاغير لأجل العلاقة المذكورة أو:يقول كلاما آخر مثله فى إفادة هذا المعنى صراحة، وليس فى أيدى أهل التثليث من أقواله إلا بعض الأقوال المتشابهة.

وأجاب القسيس فندر فى مفتاح الأسرار عن سؤال: لِمَ لم يبين المسيح ألوهيته ببيان أوضح مما ذكر؟ ولم لم يقل واضحا ومختصرًا: أنى أنا الله لاغير؟ فأجاب بجوابين، والثانى منه:(ماكان أحد يقدر على فهم هذه العلاقة والوحدانية قبل قيامه) يعنى من الأموات وعروجه، فلو قال صراحة لفهموا أنه إلّه بحسب الجسم الإنسانى، وهذا الأمركان باطلا جزما،فدرك هذاالمطلب أيضا من المطالب التى قال فى حقها لتلاميذه: إن لى أمورًا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذالك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لايتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم، ويخبركم بأمور آتية) ثم قال:(إن كبار ملة اليهود أرادوا مرارًا أن يأخذ وه ويرجموه، والحال أنه ماكان بيَّن ألوهيته بين أيديهم إلا على طريق الألغاز)

فعلم من كلامه عذران: الأول: عدم قدرة فهم أحد قبل العروج. والثانى: خوف اليهود ؛ وكلاهما ضعيفان فى غاية الضعف.

أما الأول: فلأنه كان هذا القدر يكفى لدفع الشبهة: أن علاقة الاتحاد ــــ التى بين جسمى وبين أقنوم العلم ــــ فهمهاخارج عن وسعكم، فاتركوا تفتيشها، واعتقدوا بأنى لست إلّهًا باعتبار الجسم بل لعلاقة الاتحاد المذكور وأما (=)

المحبوب والمقرب والمجتبى(١)، كما يدل عليه كثير من القرائن في الإنجيل(٢).

(⟸) نفس عدم القدرة على فهمها، فباقية بعد العروج أيضًا، حتى لم يعلم عالم من علماء هم، إلى هذا الحين، كيفية هذه العلاقة والوحدانية،وحتى ترك علماء بروتستنت بيانها رأسًا، والقسيس فندر بنفسه يعترف في مواضع من تصانيفه بأن هذا الأمر من الأسرار خارج عن درك العقل.

وأما الثاني: فلأن المسيح عليه السلام ما جاء عندهم إلا لأجل أن يكون كفارة لذنوب الخلق ويصلب بأيدي اليهود، وكان يعلم يقينًا أنهم يصلبونه، ومتى يصلبونه، فأى محل للخوف عن اليهود في بيان العقيدة؟ والعجب أن خالق الأرض والسماء والقادر على مايشاء يخاف من عباده الذين هم من أذل أقوام الدنيا، ولا يبين لأجل خوفهم العقيدة التي هي مدار النجاة، وعبَّاده من الأنبياء مثل أرميا وأشعيا ويحيى عليهم السلام لايخافون منهم في بيان الحق، ويؤذون إيذاءً شديدا حتى يقتل بعضهم.(من إظهار الحق ١:١٨١-١٨٣ بتغيير يسير)

(١)في معجم القرآن (١:١٠) ويسمى بالأب كل من كان سببا في إيجاد شيئ أو إصلاحه أو ظهوره؛ولهذا كان أرباب الشرائع المتقدمة يطلقون الأب على الله باعتبار السبب الأول، وكذلك يقال للأب: الإله الأصغر؛ وكل من سماه الأقدمون بابن الله فإما لكونه حبرًا بارًا، وإما لأنه لم يُنسب إلى أب حقيقي، فنُسب إلى الله بكونه ابنه ،لأن الله أبوهذ العالم، وخالقهم وإليه يرجعون اهـ.

(٢)لايصح أن يكون لفظ الابن بمعناه الحقيقي ، لأن معناه الحقيقي ــ باتفاق لغة أهل العالم ــ من تولد من نطفة الأبوين، وهذا محال ههنا، فلابد من الحمل على المعنى المجازى ، المناسب لشأن المسيح، وقد علم من هذا الإنجيل أن هذا اللفظ في حقه بمعنى الصالح؛ الآيةُ التاسعة والثلاثون من الباب الخامس عشر من إنجيل مرقس هكذا:(ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرّح هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الإنسان ابن الله) ونقل لوقا قول القائد في(٢٣:٤٧) من إنجيله هكذا:(بالحقيقة كان هذا الإنسان بارا) ففي إنجيل مرقس لفظ ابن (⟸)

وجواب الإشكال الثانى: أن تلك النسبة على طريق الحكاية؛ كما يقول رسول الملِك: "إنَّا فتحنا البلدَ الفُلانى" و "لقد حطمنا القلعة الفلانية" وفى الحقيقة هذا الأمر راجع إلى الملِك؛ وأما الرسول فإنما هو ترجُمان الملك فحسب.

والجواب الثانى: أنه يحتمل أن يكون الوحى إلى عيسى عليه السلام عن طريق انطباع[1] المعانى فى لوح قلبه من قِبَل العالم العُلوى، لاعن طريق تمثُّل جبرئيل عليه السلام فى صورة البشر، وإلقاء الكلام إليه؛ فبسبب هذا الانطباع جرى منه عليه السلام كلام مشعر بنسبة تلك الأفعال إلى نفسه؛ والحقيقة غير خفية[2].

وبالجملة: فقد ردَّ الله تعالى هذا المذهب الباطل،[3] وبيَّن أن عيسى عبدُ

(=) الله وفى إنجيل لوقا بدله لفظ البار؛ واستعمل مثل هذا اللفظ فى حق الصالح غير المسيح أيضًا كما استعمل مثل ابن إبليس فى حق الطالح فى الباب الخامس من إنجيل متى، فى الآيات ٤٤ و ٤٥ ففيهما أطلق عيسى عليه السلام على صانحى السلام والصلح وعلى العاملين بالأعمال المذكورة فيهما لفظ أبناء الله وعلى الله لفظ الأب بالنسبة إليهم. وراجع إنجيل يوحنا ٨:٤١ و٤٤ والرسالة الأولى ليوحنا ٣:٩- ١٠ و ٤-٧.

(١) يعبرعن هذا الطريق بالنفث، وقد تقدم بيان طرق الوحى قبيل ذكر اليهود فراجعه؛ والانطباع مطاوع لطبع.

(٢) أى: كل أحد يعرف حقيقة هذه النسبة، أنها نسبة مجازية، لاحقيقية.

(٣) قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا: إنَّ اللّٰهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية(سورة المائدة ٧٣) قال ابن كثير فى تفسيره(٨١:٢): والصحيح أنها أنزلت فى النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد،ثم اختلفوا فى ذلك فقيل : المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلثة، وهى أقنوم الأب، وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ـــ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـــ قال ابن جرير وغيره:والطوائف الثلاثة: من الملكانية واليعقوبية (=)

الله وروحه المطهرة التى نفخها فى رحِمِ مريمَ الصديقةِ [1]، وأنه تعالى أيّده بروح القدس،[2] وحاطه[3] عليه السلام بعناية خاصة.

وبالجملة: فلو فرضنا أن الله سبحانه وتعالى ظهر فى الكسوة الروحية، التى هى من جنس الأورواح[4] وتدرَّع بالبشرية، فلا ينطبق لفظ "الاتحاد" على هذا

═) والنسطورية تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافا متباينا، ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاثة كافرة، وقال السدى وغيره: نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلٰهين مع الله،فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدى: وهى كقوله تعالى فى آخرالسورة:﴿وَإِذْ قَالَ اللّٰهُ يٰعِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَ اَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِىْ وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَكَ﴾ الآية وهذا القول هوالأظهر، والله أعلم اه.

(١) راجع الآيات ١٧١و١٧٢ من النساء، وتمسك بعض النصارى بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُوْلُ اللّٰهِ وَكَلِمَتُهُ، أَلْقَاهَا إِلٰى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ﴾ فقال: إذا كان المسيح روح الله فلا بد أن يكون فى مرتبة الألوهية، لأن روح الله لايكون أقل من الله.

قلنا: قال الله تعالى فى سورة السجدة فى حق آدم عليه السلام:﴿ ثُمَّ سَوّٰهُ وَنَفَخَ فِيْهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾ وقال فى سورة الحجر وسورة صٓ فى حقه أيضا:﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوْحِىْ فَقَعُوْا لَهُ سٰجِدِيْنَ﴾ وقال فى سورة مريم فى حق جبرئيل:﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوْحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وأطلق فى كتاب حزقيال ١٤:٣٧ "روحى" على الألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال وقال الله تعالى فى سورة الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيْعًا مِنْهُ﴾ (الآية١٣).فلو كان معنى (روح منه) روح بعض منه، أو جزء منه، فيكون معنى "جميعا منه" أيضا مثله فيلزم أن يكون جميع المخلوقات آلهة (من إظهارالحق ١:٣٤-٣٦ ملخصًا)

(٢)راجع الآية ١١٠ من سورة المائدة: والمراد بروح القدس هنا جبرئيل عليه السلام.

(٣)حاط حَوْطًا الشيئَ: حفِظه وتعهّده بجلْب ما ينفعُه، ودفع مايضرُّه.

(٤)أى أن الكسوة الروحية أيضًا روح من الأرواح.

المعنى عندالتدقيق والإمعان، إلابتسامح؛ وأقرب الألفاظ لهذا المعنى: هو "التقويم " ومثله[1]؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا.

---

(١)حاصل ما قاله الإمام المصنف رحمه الله: أن النصارى يقولون بالاتحاد بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام بأن الله تعالى تقمَّصَ بشرية عيسى عليه السلام فصار متحدًا معه، فردَّ عليهم المصنف رحمه الله، وقال: لو فرضنا أن الله تعالى صار روحافى أول الأمر، ثم تقمص بشرية عيسى عليه السلام ثانيا ، فلا ينطبق عليه لفظ " الاتحاد " أى لم يصر سبحانه وتعالى مع هذا متحدا مع عيسى عليه السلام فى النظر الممعن؛ لأن الله تعالى بمنزلة الروح ، وبشرية عيسى بمنزلة الجسد، والروح لاتكون متحدة مع الجسد أبدًا ، بل تكون مقوِّمةً ومعدِّلَةً فحسب، فكيف يقول الظالمون بالاتحاد بينه تبارك وتعالى وبين عبده عيسى عليه الصلاة والسلام؟!

ويجدربنا فى خاتمة البحث أن نَسْرِدَ أقوال المسيح عليه السلام فى إبطال التثليث:

١- فى إنجيل يوحنا(٣:١٧) قول عيسىٰ عليه السلام فى خطابه مع الله هكذا:(وهذه هى الحيوة الأبدية أن يعرفوك، أنت الإلٰه الحقيقى وحدك، ويسوع المسيح الذى أرسلته) فبين أن الحيوة الحقيقية عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد حقيقى، وأن عيسى عليه السلام رسوله.

٢- فى إنجيل مرقس(٣٢:١٣) قول المسيح هكذا:(وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب) فالمسيح عليه السلام خصص علم القيامة بالله، ونفى عن نفسه كما نفى عن عباد الله الآخرين ولايمكن هذا فى صورة كونه إلٰها ،سيما إذا لاحظنا أن " الكلمة" وأقنوم " الابن "عبارتان عن علم الله.

٣- فى إنجيل متى(١٩:١٦-١٨)هكذا:(وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح أىَّ صلاح أعمل، لتكون لى الحيوة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوننى صالحا؟ ليس أحدصالحا إلا واحد وهو الله) فما رضى عليه السلام تواضعا أن يطلق عليه لفظ الصالح أيضًا. (=)

أنموذج النصارى

وإن شئت أن ترى نموذجاً لهذا الفريق ، فانظر اليوم إلى أولاد المشايخ والأولياء ، ماذا يظنون بآبائهم؟وإلى أىّ حد وصلوا بهم!﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَّنْقَلِبُوْنَ !﴾[1]

عقيدة مصلوبية المسيح والرد عليها

ومن ضلالاتهم أيضًا: أنهم يجزمون بأن عيسى عليه السلام قد قُتل، مع أن الواقع خلافُ ذلك ،وقد شُبِّه لهم، والتبس عليهم الأمر ، فظنوا رفعه إلى السماء قتلاً، ورووْا هذا الغلط كابرًاعن كابر، فكشف الله تعالى السِّتار عن حقيقة الأمر فى القرآن العظيم قائلاً:﴿وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ،وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2]

(=) ٤- فى إنجيل يوحنا(١٤:٢٤) قول المسيح عليه السلام هكذا:(الكلام الذى تسمعونه ليس لى، بل للأب الذى أرسلنى) ففيه أيضا تصريح بالرسالة، وبأن الكلام الذى تسمعونه هو وحى من جانب الله.

٥- فى إنجيل متى(٢٣:٩-١٠) قول المسيح عليه السلام فى خطاب تلاميذه هكذا:(ولاتدعوا لكم أبا على الأرض ، لأن أباكم واحد الذى فى السموات، ولا تدعوا معلمين، لأن معلمكم واحد المسيح) فهنا أيضا صرح بأن الله واحد، وإنى معلم لكم.

٦- وقال المسيح:﴿يٰبَنِى إِسْرَائِيْلَ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّىْ وَرَبَّكُمْ؛ إِنَّه مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوٰهُ النَّارُ﴾(سورة المائدة ٧٢)(إظهار الحق ٢:١ - ١٠)

(١) سورة الشعراء ٢٢٧

(٢) سورة النساء ١٥٧ قال ابن كثير فى تفسيره (١:٥٧٤) قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفى البيت اثنا عشررجلاً من الحواريين، يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة بعد أن (=)

وأما ما ذكر فى الإنجيل من قول عيسى عليه السلام فى هذا الباب[1] فمعناه: أنه إخبار بجرأة اليهود، وإقدامهم على قتله ؛ ولكن الله تعالى أنجاه من هذه المهلكة.

وأما كلام الحواريين[2] فإنه ناشٍ عن اشتباه الأمر، وعدم وقوفهم على حقيقة الرفع الذى لم يكن مألوفًا لعقولهم، ولا لأسماعهم.

(=) آمن بى قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال له: اجلس! ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: اجلس! ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال هو أنت ذاك، فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنى عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلث فرق:

فقالت فرقة: كان الله فينا ماشاء، ثم صعد إلى السماء؛ وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ماشاء، ثم رفعه الله إليه؛ وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء الله، ثم رفعه الله إليه؛ وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه اه.

---

(١) راجع إنجيل متى(٢٦: ٣٨-٤٥) ففيها: أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: (إن نفسى حزينة جدًا، امكثوا ههنا، واسهروا معى، ثم تقدم قليلا للصلاة، ثم جاء إليهم فوجدهم نياما، فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معى؟ ساعة واحدة اسهروا وصلوا! فمضى مرة ثانية للصلاة، ثم جاء فوجدهم نيامًا، فتركهم ومضى، ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم: ناموا واستريحوا، انظروا قد اقتربت تلك الساعة، وابن الناس يصلب بأيدى الفجار الظلمة الخ)

(٢) أى إخبار الحواريين بقتل عيسى عليه السلام.

تحريفهم فى بشارة الفار قليط[1]

ومن ضلالاتهم أيضًا: أنهم يقولون: إن الفار قليط الموعودَ هو عيسى عليه

---

(١) فار قليط (Peroclitus) كلمة سريانية، معناها: أحمد (أفعل التفضيل من الحمد) أى الذى يحمد الله تعالى أكثر من كل أحد.

وجاء ذكر الفارقليط فى إنجيل يوحنا (١٤: ١٥-١٧) هكذا: (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى، وأنا أطلب لكم من الأب فيعطيكم فارقليطًا آخر ليثبت معكم إلى الأبد) وفى الآية ٢٦ هكذا: (والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب باسمى هو يعلمكم كل شيئ، وهو يذكركم كلّما قلته لكم) وفى إنجيل يوحنا (١٥: ٢٦) هكذا: (فإذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا إليكم من الأب روحُ الحق الذى من الأب ينبثق، هو يشهد لأجلى، وأنتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء) وفيه أيضًا (١٦: ٧-١٠) هكذا: (لكننى أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن انطلق، لأنى إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطيئة وعلى بروعلى حكم: أما على الخطيئة: فلأنهم لم يؤمنوا بى، وأما على البر فلأنى منطلق إلى الأب، ولستم تروننى بعد، وأما على الحكم فإنى أركون هذا العالم قد دين، وإن لى كلاما كثيرا أقوله لكم، ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن، وإذاجاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بماسيأتى، وهو يمجدنى لأنه يأخذ مما هو لى، ويخبركم جميع ما هو للأب فهو لى، فمن أجل هذا قلت إن مما هو لى يأخذ ويخبركم)

وانتظار هذا الفارقليط كان فى القرون الأولى المسيحية أيضًا، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصادقه، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم، كماادعى منتس المسيحين، الذى كان فى القرن الثانى من الميلاد ذكر حاله وِلْيَم مِيُوْر فى تاريخه فى الباب الثالث فى القسم الثانى، وقال صاحب لُبِّ التواريخ: إن اليهود والمسيحيين من معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبى، فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم، لأنه ادعى أنى هو ذاك المنتظر اه ملخصًا.

فيعلم من كلامه أيضا: أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبى فى (=)

....

(=) زمان النبى صلى الله عليه وسلم وهوالحق، لأن النجاشى لما وصل إليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال: "أشهد بالله أنه لنبى الذى ينتظره أهل الكتاب" وكتب المقوقس فى جواب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم، وفيه: "وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك" فهذان (النجاشى والمقوقس) كانا نصرانيان يشهدان ببقاء النبى.

تاويلهم الباطل:

وبالجملة فأوّلوا بشارة الفار قليط بالروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدّار، الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال، ولكنه باطل لأن روح عيسى عليه السلام لم تمكث عندهم إلا قليلا، على زعمهم، وقد بينه العلامه رحمت الله فى كتابه إظهارالحق (٢:١٩٧- ٢٠١) بمالامزيد عليه، فعليك أن تراجعه.

وصية عيسىٰ:

جاء فى إنجيل متى(٧:١٥) قول المسيح هكذا:(احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحُمْلان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) وقد ظهر الأنبياء الكذبة الكثيرون فى الطبقة الأولى بعد صعوده، كما يظهر من الرسائل الموجودة فى العهد الجديد فى الباب الحادى عشر من الرسالة الثانية إلى أهل قورنثيوس فى الآية الثالث عشرة. وقال آدم كلارك المفسر فى شرح هذاالمقام:(هؤلاء الأشخاص كانوا يدعون كذبا أنهم رسول المسيح،وماكانوا رسل المسيح فى نفس الأمر، وكانوا يعظون ويجتهدون، لكن مقصودهم ماكان إلا جلب المنفعة، وفى الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا:(أيها الأحبة لاتصدقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح، هل هى من الله؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم)

بيان القرآن:

قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يٰبَنِىٓ إِسْرَائِيْلَ إِنِّىْ رَسُوْلُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلٍ يَأْتِىْ مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ (=)

....

(ـــ) ﴿أَحْمَدُ﴾ (سورة الصف ٦) قال ابن كثير فى تفسيره (٤: ٣٥٩) يعنى: التوراة قد بشرت بى، وأنا مصداق ماأخبرت عنه، وأنا مبشربمن بعدى، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى: أحمد اهـ وقال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَتَّبِعُوْنَ الرَّسُوْلَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِيْ يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوْبًا عِنْدَهُمْ فِيْ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ﴾ (سورة الأعراف ١٥٧).

ختام البحث:

وبالجملة فعيسى عليه السلام له أربع خصوصيات، مرعية فى حقه لاتوجد لغيره:

١ – أنه ولد بلا أب، من روح الله تعالى وكلمته.

٢ – وأنه رُفع إلى السماء.

٣ – وينزل عليه السلام فى آخر الزمان عند ظهور الدجال الأكبر.

٤ – وكونه عليه السلام خاتمًا لأنبياء بنى إسرائيل.

ولما انقرض الحواريون من أصحابه وحملة دينه خَلَفَ من بعدهم خَلْف ابتدعوا من الخصوصية الأولى عقيدة الألوهية، وحملوا الألفاظ المستعملة المشتبهة على غير محملها، كما حملوا المحبوبية والشفاعة التى أثبتها الله تعالى فى قاطبة الشرائع لخواص البشر على غير محملها، وكما حملوا صدور خرق العوائد والإشراقات على انتقال العلم.

ولما لم يدركوا حقيقة رفعه إلى السماء، وشُبِّهَ لهم أيضًا، زعموا أنه عليه السلام قد قتل، ولكن لم ترضوا أنفسهم لنبيهم بهذه العاقبة، فلدفع هذا العوار اخترعوا عقيدة الكفارة والفداء، فكان هذا ضِغْثًا على إبالة. ثم لما صلب هو كفارةً وفداءً عن ذنوب بنى آدم كما زعموا فما بقى حاجة إلى الشريعة والناموس، فنسخ الحواريون كما زعموا بعد المشاورة التامة جميع الأحكام العملية للتوارة إلا أربعة: ذبيحة الصنم، والدم، والمخنوق، والزنا، ثم لما رأى مقدسهم بولُس بعد هذا الزمان أن هذه الرعاية ليست بضرورية، نسخ حرمة الثلاثة الأولى بفتوى الإباحة العامة، فما بقى من أحكام التوراة العملية إلا الزنا، ولما لم يكن فيه حد فى الشريعة العيسوية، فكأنه منسوخ أيضًا من هذه الجهة، فقد حصل الفراغ التام من الأحكام العملية، قال الله (ـــ)

السلام نفسُــه، الـذى جـاء بعـد قتلـه إلى الحواريين،وأوصاهم بالتمسك بالإنجيل ويقولون: إن عيسى عليه السلام أوصاهم أيضًا بأن المتنبئين سيكثرون ، فمن سمَّانى فاقبلوا كلامه، وإلا فلا.

وقد بين القرآن العظيم أن بشارة عيسى عليه السلام تصدُق على نبينا صلى الله عليه وسلم ، لاعلى الصورة الروحية لعيسى عليه السلام ؛ لأنه قد صُرِّح فى الإنجيل بأن الفار قليط يمكث فيكم مدة طويلة،ويعلِّم العلم، ويزكى الناس؛ ولايظهر هذا المعنى فى غير نبينا صلى الله عليه وسلم ،

وأما ذكرُ عيسى عليه السلام وتسميتُه، فالغرض منه التصديق بنبوته، لا أن يتخذه ربا، أو يعتقد بأنه ابنُ الله.

ذكر المنافقين

نفاق الاعتقاد ونفاق العمل

أماالمنافقون: فكانوا على قسمين :

(==) تعالى:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(سورة مريم ٥٩)

وكذا حرفوا إخبار نزوله عليه السلام عند ظهور الدجال بنزول روحه يوم الدار، وحرفوا كونه خاتمأنبياء بنى إسرائيل إلى كونه خاتم النبيين مطلقًا فادعوا أن دين المسيحية أبدى، ولايجوز نسخه، ولما عارض ما راموا بشارة عيسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أوّلوها بمجيئ روح عيسى عليه السلام فيا سلام! ثم يا سلام! من غوائل الضلالة. قال الله سبحانه وتعالى:﴿هُوَ الَّذِىْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمٰتٌ ــ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ــ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ؛ فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِىْ قُلُوْبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلاَّ اللهُ، وَالرَّا سِخُوْنَ فِىْ الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ: آمَنَّابِهِ. كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوْاالأَلْبَابِ. رَبَّنَا لاَتُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا،وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ(آمين)﴾(سورة آل عمران ٧و٨)

١- طائفة منهم يقولون بألسنتهم: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وقلوبهم مطمئنة بالكفر، ويُضمرون[1] الجحود الصرف فى أنفسهم، قال الله تعالى فى حقهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[2]

٢- وطائفة دخلوا فى الإسلام مع ضعفٍ فيه.

مظاهر نفاق العمل

١- فمنهم من يعتاد موافقة قومهم: إن ثبت القوم على الإيمان ثبتوا، وإن رجع القوم إلى الكفر رجعوا.

٢- ومنهم من استولى على قلوبهم الانسياقُ[3] وراء اللذات الدنيوية الدنيئة، بحيث لم يذَر فى قلوبهم مكانا لحب الله، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم.

٣- ومنهم من تملَّك قلوبَهم الحرصُ على المال والحسدُ والحِقْدُ، ونحوُ ذلك من الرذائل، بحيث لم يبق فى قلوبهم محل لحلاوة الابتهال والمناجاة، ولا لبركات العبادات.

٤- ومنهم من انغمسوا فى شئون المعاش واشتغلوا بها، حتى لم يبق لديهم فرصة للاهتمام بأمر الآخرة، ولترقُّبها وللتفكير فيها.

٥ - ومنهم من تخطر ببالهم ظنون واهية وشبهات ركيكة فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وإن لم يبلغوا إلى أن يخلعوا رِبْقةَالإسلام عن عنقهم، وينفضُّوا أيديهم منه بتاتا.

وسبب تلك الشكوك: جَريان الأحكام البشرية على نبينا صلى الله عليه وسلم، وظهورالملة الإسلامية فى صورة سَيطرة الملوك على أطراف البلاد،

---

(١) أضمر الشيء: أخفاه وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (سورة البقرة ١٤)

(٢) سورة النساء ٤٥

(٣) الانسياق: مطاوع ساقه أى تبع غيره ومشى خلفه.

وأمثالُ ذلك.

٦- ومنهم من حملتهم مَحبة القبائل والعشائر على أن يبذلوا الجهد البليغ في نصرتهم، وتقويتهم وتأييدهم، ولو كان ذلك على مُناواة أهل الإسلام؛ ويضعّفون أمر الإسلام عند التعارض، ويُلحقون به الضرر[١].

الكلام حول قسمَيِ النفاق:

وهذا القسم من النفاق[٢] هو نفاق الأعمال والأخلاق، ولايمكن الاطلاع على النفاق الأول[٣] بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه من الأمور المَغيبة، ولايمكن الاطلاع على مكنونات القلوب.

والنفاق الثاني كثير الوقوع، لاسيما في عصرنا، وإليه جاءت الإشارة في الحديث الشريف: "أربع من كنَّ فيه كان منافقا خالصاً: إذا اؤْتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجر"[٤] وقال: " هَمُّ المنافق بطنه، وهمُّ المؤمن فرسه"[٥] إلى غير ذلك من الأحاديث[٦].

---

(١) أي: وإن كانت النصرة والتأييد لقومهم مخالفةً لأهل الإسلام، ويضعفون أمر الإسلام عند هذه المقابلة. ونَاوأه مُناواةً: عاداه.

(٢) يعني القسم الثاني بجميع أنواعه.

(٣) يعني نفاق الاعتقاد الذي هو النفاق الأصلي.

(٤) رواه الستة إلا ابن ماجه عن ابن عمرو رضي الله عنهما (مشكوة المصابيح ١: ١٧)

(٥) لم أجده مع الجهد البليغ.

(٦) قال الإمام في حجة الله البالغة (١: ٣٨٥-٣٩٠) اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان مبعوثا إلى الخلق بعثا عاما ليغلُبَ دينُه على الأديان كلّها بِعِزِّ عَزِيْزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ، حصل في دينه أنواع من الناس فوجب التمييز بين الذين يَدِيْنونَ بدين الإسلام وبين غيرهم، ثم بين الذين اهتدوا بالهداية التي بُعث بها، وبين غيرهم ممن لم تدخل بشاشةُ الإيمان قلوبَهم فجعل الإيمانَ على ضربين:

أحدهما: الإيمان الذي يدور عليه أحكام الدنيا من عصمة الدماء (=)

....

(=) والأموال، وضبطه بأمور ظاهرة فى الانقياد.

وثانيهما: الإيمان الذى يدور عليه أحكام الآخرة من النجاة والفوز بالدرجات، وهو متناول لكل اعتقادِ حقٍ، وعمل مرضى، وملكة فاضلة.

ويُسمى مقابل الإيمان الأول بالكفر، وأما مقابل الإيمان الثانى فإن كان تفويتاً للتصديق، وإنما يكون الانقياد بغلبة السيف فهو النفاق الأصلى، والمنافق بهذا المعنى لافرق بينه وبين الكافر فى الآخرة، بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار، وإن كان مصدِّقا مفوِّتًا لوظيفة الجوارح سمى فاسقا، أو مفوّتا لوظيفة الجنان فهو المنافق بنفاق آخر وقد سمَّاه بعض السلف نفاق العمل. وذلك أن يغلِب عليه حجاب الطبع أو الرسم، أوسوء المعرفة فيكون مُمْعِنًا فى محبة الدنيا والعشائر والأولاد فيدب فى قلبه استبعاد المجازاة،والاجتراء على المعاصى من حيث لا يدرى، وإن كان مُعترِفًا بالنظر البرهانى بما ينبغى الاعتراف به؛ أو رأى الشدائد فى الإسلام فكَرِهه، أو أحب الكفار بأعيانهم فَصَدَّ ذلك من إعلاء كلمة الله.

ولما كان نفاق العمل ومايقابله من الإخلاص أمرًا خَفِيًا، وجب بيان علامات كل واحد منهما، وهو قوله صلى الله عليه وسلم:" أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصًا" الخ، وقوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لايحبُه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كمايكره أن يلقى فى النار" وقوله صلى الله عليه وسلم:" إذا رأيتم العبدِ يُلازم المسجدَ فاشهدوا له بالإيمان" وكذا قوله عليه السلام:" حُبُّ عَلِىٍّ آية الإيمان، وبُغض علىٍّ آية النفاق" وقوله صلى الله عليه وسلم:" حبُّ الأنصار آية الإيمان".

والفقه فيه: أن العرب الْمَعْدِيَّة واليمنية ما زالوا يتنازعون بينهم حتى جمعهم الإيمان، فمن كان جامعَ الهمة على إعلاء الكلمة زال عنه الحِقد،ومن لم يكن جامعًا بقى فيه النزاع اه(بحذف)

وقال فى التفيهمات الإلٰهية (١:٣٢-٣٣) النفاق مقول على معنيين — إما باشتراك اللفظ وإما باشتراك المعنى:

أحدهما: إظهار الانقياد، وإسرار الكفر وهو فى الدرك الأسفل من النار (=)

الغرض من ذكر أحوال المنافقين فى القرآن العظيم

وقد كشف الله تعالى فى القرآن العظيم عن معايب المنافقين وأعمالهم(١)، وذكر من أحوال الفريقين أشياء كثيرة، لتحترز الأمة بأسرها منها(٢).

(═) والآخر: إحاطة الخطايا بالعبد أى فناء ه فيها، واطمينانه بها كما قال الله تعالى: ﴿ وَاطْمَئَنُّوْا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ﴾ وكون اللذات غالبة والرسوم مالكة.

ومن العباد من يُظهر كفرًا ويُضمر إيمانا، وهو عندنا من أكبر الكبائر وحكمه حكم من لم يهاجر من مكة مع الاستطاعة، وفيهم نزل ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ تَوَفّٰتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِىْ أَنْفُسِهِمْ، قَالُوْا: فِيْمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوْا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِيْنَ فِىْ الْأَرْضِ! قَالُوْا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّٰهِ وَاسِعَةً ،فَتُهَاجِرُوْا فِيْهَا؟ فَاُوْلٰئِكَ مَأْوٰهُمْ جَهَنَّمُ، وَسَاءَ تْ مَصِيْرًا ﴾

ومنهم من يعمل الصالحات ،ويلابس الخيرات، وهم الذين خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئا.

وكذلك قوم متردد بين النفاق والإيمان، كمن دام حضوره وهو لايصلى أو يشرب الخمر.

وهذا التفصيل مفهوم من الآيات والأحاديث. قال الله تعالى فى المنافقين: ﴿يَقُوْلُوْنَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِيْنَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلّ﴾ وجعل من صفاتهم الخداع، والتكذيب والاستهزاء بآيات الله،وهم فى الدرك الأسفل من النار،وفى الحديث: أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا الخ وقال: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فنقر أربع نقرات وقال الله تعالى:﴿ وَإِذَا قَامُوْا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوْاكُسَالىٰ ، يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَلاَيَذْكُرُوْنَ اللهَ إِلاَّ قَلِيْلاً﴾ وقال:﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِىْ قُلُوْبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾اهـ(ملخصًا)

(١)فى مواضع شتى من القرآن كما فى أول سورة البقرة، وكما فى سورة التوبة وسورة المنافقين.

(٢) قال الله تعالى:﴿ وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلُ الْمُجْرِمِيْنَ﴾(سورة الأنعام ٥٥) أى: بهذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة وأهل الأجرام المصرين منهم والأوابين ، لتستبين سبلهم فيحيىٰ من حَىَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

نموذج المنافقين

وإن شئت أن ترى نموذَجا للمنافقين، فانطلقْ إلى مجالس الأمراء، وانظر إلى مُصاحبيهم وندمائهم، يُؤْثرون رضى الأمراء على رضى الله تعالى. ولافرق عند المنصف بين المنافقين الذين سمعوا كلامَ الرسول صلى الله عليه وسلم مباشَرةً ثم نافقوا،وبين هؤلاء المنافقين الذين وُلدوا فى هذا الزمان، ثم علموا أحكام الشريعة بطريق القطع واليقين، ثم أقدموا على خلافها، وانحرفوا عنها[١].

وكذلك طائفة من المعقوليين الذين تمكّنت فى خواطرهم شكوك وشبهات كثيرة، ونسوا الدار الآخرة[٢]، فهم أيضًا نموذج المنافقين.

القرآن كتاب كل عصر

وعلى كلٍّ ، فإذا قرأت القرآن فلا تحسبْ أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا،كلا، بل مامن بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليومَ بطريق الأنموذج، كما ورد فى الحديث الشريف:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"[٣]فمقصود القرآن الكريم بيان كليات تلك المفاسد، لاخصوص الحوادث.

هذا ماتيسر لى فى هذا الكتاب من بيان عقائد الفرق الضالة، والردود عليها؛ وأظن أن هذا القدر كاف فى فهم معانى آيات الجدل إن شاء الله تعالى.

---

(١) يعنى: أن منافقى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ومنافقى زماننا أشبه من الماء بالماء.

(٢)أى:يضمرون فى خواطرهم شكوكًا وشبهات كثيرة، وجعلواالمعاد نسيا منسيا.

(٣)حديث متفق عليه، وتمامه : " شِبْرا بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ تبعتُموهم " مشكوٰة رقم الحديث ٥٣٦١ كتاب الرقاق، باب تغير الناس.

الفصل الثانى

فى

بقية مباحث العلوم الخمسة[١]

بيان التذكير بآلاء الله

لِيُعْلَمْ أن نزول القرآن الكريم إنما كان لإصلاح النفوس البشرية سواء كانوا عربا أو عجما، بدوا أو حَضَرًا [٢]؛ فلذلك اقتضت الحكمة الإلٰهية أن لا يُخاطب الناسَ فى التذكير بآلاء الله إلا بماتسعه أذهانهم، وتُحيط به مداركُهم، ولايُبالغ فى البحث والتحقيق مبالغة زائدة؛[٣] فسيق الكلام فى أسماء الله تعالى وصفاته[٤] بوجه يمكن فهمه، والإحاطةُ به بإدراك وفَطانة خُلق أكثر أفراد الإنسان عليهما فى أصل خِلقتهم، من دون حاجة إلى ممارسة الفلسفة الإلٰهية ومزاولة علم الكلام.[٥]

---

(١) كان الكلام فى الفصل الأول حول "علم الجدَل" والآن يتحدثنا الإمام المصنف عن العلوم الأربعة الباقية.

(٢) أهل الحضر: سُكّان القُرى والمدن، والبَدْو: سكان البادية من القبائل العربية الرُّحّل، أهل الوبر.

(٣) أى: اقتضت الحكمة الإلٰهية أن لايُبالغ فى البحث والتفتيش بأكثر مما يعلمه أكثر أفراد بنى آدم.

وذلك لأن المقصد الوحيد هو التذكير، وذا لايحصل كما ينبغى بذكر مالا يعلمه المخاطب، فإن ذهنه وقلبه حينئذ يتوجهان إلى تحصيل المجهول، وتصوره وتعلُّمه، فلاتبقى له فرصة التذكُّر بالمذكور، وأما إذا خوطب بمايعلم فيلقى السمع وهوشهيد، فيتذكر حق التذكُّر .

(٤) صفاته تعالى من جملة آلاء ه، كماتقدم فى فاتحة الباب الأول.

(٥) قال الإمام المصنف: علم التوحيد والصفات يجب أن يكون مشروحا بشرح يناله العقل الإنسانى بطبيعته، لامغلقًا لايناله إلا من يَنْدُر وجود مثله اهـ (حجة الله ١ :٤٨)

إثبات الذات وبيان الصفات

فأثبت سبحانه وتعالى ذات المبدأ إجمالاً[١]، إذ أن معرفتَه تعالى مركوزة في فطرة بني آدم؛ لاترى طائفةً منهم في الأقاليم الصالحة، والأماكن القريبة من الاعتدال[٢] ينكرون ذلك.

ولما كان إثبات الصفات الإلهية بطريق الإمعان، وتحقيق الحقائق، مستحيلا بالنسبة الى أفراد الإنسان[٣]؛ ولو لم يطّلعوا على صفاته تعالى إطلاقًا لم يصِلوا إلى معرفة الربوبية التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس[٤]؛ فكان

---

(١) يعني ذاتَ مُبْدِإ الكائنات، وهو الله تعالى شأنه.

(٢) قال الإمام المصنف في الحجة (١:٢٥٥) الأقاليم الصالحة لتولُّد الأمزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت مَلِكين كبيرين يومئذ(يعني زمن النبي صلى الله عليه وسلم) أحدهما: كسرى، والثاني: قيصر اهـ مختصرًا وسننقل النص برمته في الفصل الثاني من الباب الأول في مبحث علم الأحكام فراجعه.

(٣)أي لا بالنسبة إلى الله تعالى. وجه الامتناع لإثبات الصفات بطريق الإمعان وتحقيق الحقائق: أن بيان حقيقة الصفات لوكان بألفاظنا ولغاتنا فهي تقصر عنها ولاتعبر عنها حق التعبير، لأنها من وضعنا، وضعناها حسب فهمنا، فكيف تناولها وتشرحها؟ ولابد من تعريفها إلى الناس (كما سيأتي مفصلاً) ولو كان البيان بما وراء ألفاظنا ولغاتنا لما استطعنا فهمها، فما الفائدة في البيان ؟!.

(٤)أي: إن لم يطلع الناس على الصفات الإلٰهية لم ينالوا معرفة الربوبية، التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس.

قال الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي في الأركان الأربعة (ص ٢٢٤): لأن تهذيب النفوس يتوقف على معرفة الصلة بين العبد وبين الرب: إنها صلة غريبة فريدة، لانظير لها ولامثال ، ولايُفهم هذه الصلة إلا من عرف صفة العبد والرب، والصلةُ دائما تابعة للصفة، نابعة منها، إنك لاتستطيع أن تحدد صلة بين طرفين، وبين اثنين، إلا إذاعرفت صفة كل واحد منهما، وعرفت التفاوت والتفاضل بينهما، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر، وفضل أحدهما على الآخر . (=)

....

(=) ولأن الصفات هى التى تثير الحب، وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، ولو لا هذه الصفات العلياء وأسماء الله الحسنى، التى نطق بها القرآن ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنّى بها العارفون، وسبَّح بها المسبحون، وسبح فى بحارها ونزل فى أعماقها الغوَّاصون، لكان هذا الدين خشبيا جامدًا، لايملك على أتباعه قلبا، ولا يثير فيهم عاطفة، ولايبعث فيهم حماسة ولايحدث فى القلب رقة، ولافى الصلوة خشوعًا، ولا فى العين دموعًا، ولافى الدعاء ابتهالاً، ولافى الحياة تفانيا، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة، ميتة خشبية، لاعاطفة فيها، ولا أشواق، ولا حنان فيها ولا هيام، وإذًا أى فرق بين الحياة والموت وبين الإنسان والجماد؟

ولهذا لهجت الصحف السماوية، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدد الصلاة وتدعوا إلى العبادات، وتسن الفرائض وتحث على الطاعات ولذا سبقت العقيدة فى جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامها وشرائعها ودعا جميع الرسل فى مختلف الأدوار والأعصار إلى العلم الصحيح، والمعرفة الصحيحة، ووَصفِ الله الوصفَ الصحيح ودعوا إلى التقديس والتنزيه قبل أن يَدْعوا إلى شيئ آخر. وشغل هذا الموضوعُ أكبر فراغ فى أوقاتهم، وأكبر قسط من جهودهم، وأكبر مكان فى صحفهم ودعواتهم وجاهدوا فى ذلك الجهاد الأكبر.

والقرآن الذى جاء مهيمنا على هذه الكتب كلها، وكان الكتاب الأخير الخالد أكبر شاهد على ذلك، فهو الموضوع المكرر المنوع، الذى احتل المكان الرئيسى فى هذا الكتاب المعجز اهـ (بتعديل وحذف كثير)

وقال الإمام ولى الله فى التفهيمات (١: ٢٢٩) إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما، هى أسماء الصفات، وواحدًا هو اسم الذات ويمكن للعبد أن يتحقق بكل ذلك؛ والمراد بالتحقق: أن يَفْنى العبد عن نفسه، ويبقى بالله، ويعطى الوجود الموهوب، ثم يتداخله أسماء الله عزوجل، فيظهر له فى نفسه قوى تلك الأسماء، وينقاد العالم له حسب تلك القوى.

والتحقق بأسماء الصفات على أنواع:

منها: التحقق بوجه الانفعال وقبول الأثر، كالمغنى والمعطى، والمنعم، (=)

....

(=) والوهاب، والرزاق فكثيرا ما يوجه العارف وجه مرآة قلبه إلى هذه الأسماء بكثرة تلاوتها، أو بالتوجه إلى حقائقها المتمثلة فى الأمثال. أو بالوجهين جميعا، فتنفعل نفسه وتطاوع لهذه الصفة خاصة فينطبع فيها لون هذه الصفة، فيكون حكمة الله تعالى حينئذ أن يسخر الأسباب حتى يكون مرزوقا ومنعما عليه ومعطى له وموهوبا له ليطابق النظام النفسى والخارجىاه (باختصار)

وقال العارف فقير الله بن عبد الرحمٰن الجلال آبادى فى كتابه" قطب الإرشاد": إن فى أسماء الله الحسنى ثلاثة أمور:

الأول: أن يتحقق العبد معانى هذه الأسماء على ما اتصف الله تعالى بها.

والثانى: التعلق بهذه الأسماء أن يستغرق العبد فى جلال صفاته وجمال أسماء ه بحيث يستشعر بها قلبه كل حين وينقاد لآثارها وأنوارها.

والثالث: التخلق بها أى:ينصبغ العبد بأمثال تلك الصفات ، فيعامل المخلوق بحيث يلوح فيه آثار الاستخلاف والنيابة.

وخذلك مثالا ليتضح منه هذه المراتب الثلاث: فمرتبة التحقق فى " الرحمن" معرفته بأن لله رحمة عظيمة ، ومرتبة التعلق أن يخضع له العبد بقواه وجوارحه، ومرتبة التخلق به أن يرحم المرأ على عباده، ويواسيه فى مصائبه، ويُعينه فى نوائبه وينفق عليه من يده اه. وراجع لمزيد البيان يتيمة البيان ص ٦٣-٦٥.

وبعد ما تحدثنا العلامة الندوى عن حاجة الناس إلى معرفة صفات الله تعالى شأنه، وأفاض علينا الإمام ولى الله علومَه الخاصة أدق من الأول، وأرشدنا العارف فقير الله إلى تفصيل ما أجمله الإمام المصنف، نريد أن نشرح المقام بأسهل من هذا فنقول:

تهذيب النفوس يتوقف على معرفة الله تعالى بصفاته الكاملة، لأن من يؤمن بالله ولكن لايعرفه بكونه " رزاقا" فهو مع إيمانه بالله يؤمن بارزاقِ كثير من الناس: يعتقد أن الوالد رزَّاقٌ، ومالك المصنع رزاق، والزوج رزاق والسلطان رزاق كما قال فرعون:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾لأنى أرزقكم قال الله تعالى﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ: يٰقَوْمِ! أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ،وَهٰذِهِ الأَنْهَارِ تَجْرِىْ مِنْ تَحْتِىْ؟ أَفَلاَ تُبْصِرُوْنَ؟!﴾ (الزخرف ٥١)؛ وكذا من يؤمن بالله ولكن لايعرفه بكونه ربًّا، (=)

من حكمة الله تعالى: أنه اختار شيئا من الصفات البشرية الكاملة التى يعرفونها، ويجرى التمدُّح بوجودها فيما بينهم، فاستعملها بإزاء المعانى الدقيقة الغامضة التى لا مدخل للعقول البشرية فى ساحة جلالها(١)؛ وجعل (٢)الأصل المصرَّح بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٣) ترياقا للداء الْعُضال(٤) من الجهل المركب؛ ومنع من إثبات الصفات البشرية التى تثير(٥) الأوهام إلى العقائد الباطلة، كإثبات الولد والبكاء والجزع له تعالى شأنه.

صفاته تعالى توقيفية

وإن أمعنتَ النظر فى مسئلة الصفات الإلٰهية تجلى لك أن الجرى على مِسْطرة (٦)العلوم الإنسانية، غير المكتسبة، وتمييزَ صفات يجوز أن تُنسب إلى الله تعالى، ولايقع بها خلل، عن الصفات التى يؤدى إثباتُها إلى الأوهام الباطلة، أمر دقيق خطير للغاية، لايُدرك غورَه جمهور الناس(٧)؛ فلا جرم كان هذا العلم

(=) فهو مع إيمانه يتخذ أربابًا كثيرة من دون الله: يتخذ البقرة الغزيرة اللبن ربَّةً، ويعتقد أن النهر الفياض ربٌ أكبر منها، ويزعم بربوبية الشمس المفيضة النور، كما نرى كل ذلك فى الهنود؛ وكذا من يؤمن بالله ولكن لايعرفه بكونه شديد العقاب ذى الطول، فهو مع إيمانه يرتكب المعاصى، وينتهك الحدود، ولايبالى.

فالحاصل: أن إصلاح النفوس يبتنى على معرفة الله تعالى بصفاته الكاملة.

---

(١) أى: فاستعمل الله سبحانه وتعالى تلك الصفات البشرية بإزاء صفاتها الكاملة.

(٢) أى: جعل الله تعالى. (٣) سورة الشورى ١١

(٤) الداء العضال الذى أعجز و أعيا الأطباء.

(٥) أثار الشيئ: صيره يثور ويهيج.

(٦) المِسْطَر: ما يَسَطِّر به الكتَّاب، والمراد ههنا: الخطوط والمناهج والطرق.

(٧) أى: رعاية الأمرين معًا (:رعاية العلوم الإنسانية الخلقية، وإثبات صفات يمكن إثباتها ونفى صفات تثير الأوهام) أمرٌ دقيقٌ، لاتكاد تفهمه أذهان العامة فلا جرم كان علم الأسماء والصفات توقيفيًا.

توقيفيا، لم يُسمح فيه بالبحث بحرِّية وإطلاق(١).

(١) تكلم الإمام ولى الله فى حجة الله البالغة(١: ١٢٨- ١٣٢) على الصفات مبسوطًا، فأحببت أن أتيه برمته، فهذا نصه:

باب الإيمان بصفات الله تعالى: اعلم أن من أعظم أنواع البر الإيمانَ بصفات الله تعالى، واعتقاد اتصافه بها، فإنه يفتتح بابًا بين هذا العبد وبينه تعالى، ويُعِدّه لانكشاف ماهنالك من المجد والكبرياء.

واعلم أن الحق تعالى أجلّ من أن يقاس بمعقول، أو محسوس، أو يَحُلّ فيه صفاتٌ، كحلول الأعراض فى محالّها، أو تعالجه العقول العامية، أو يتناوله الألفاظ العرفية؛ ولابد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكن لهم؛ فوجب أن تُسْتَعْمَل الصفاتُ بمعنى وجودِ غاياتها، لابمعنى وجود مباديها، فمعنى الرحمة: إفاضة النّعم ، لاانعطافُ القلب والرقة و(وجب) أن تُستعار ألفاظ تَدُلُّ على تسخير المَلِك لمَدينته، لتسخيره(تعالى) لجميع الموجودات؛ إذ لاعبارة فى هذا المعنى أفصح من هذه؛ و(وجب) أن تُسْتَعْمَلَ تشبيهاتٌ؛ بشرط أن لايُقصد إلى أنفسها بل إلى معانٍ مناسبةٍ لها فى العرف، فيُراد ببسط اليدِ الجُودُ ــــ مثلاً ــــ وبشرط أن لايُوهِمَ المخاطبين إيهامًا صريحا أنه تعالى فى ألواث البهيمية وذلك يختلف باختلاف المخاطبين فُيقال: يَرى ويَسْمَع، ولايقال: يَذُوْقُ وَيَلْمَسُ؛ و(وجب) أن يُسَمىَّ إفاضة كل معانٍ متفقة فى أمر باسم كالرزاق والمصوّر؛ و(وجب) أن يُسْلَبَ عنه كل مالا يَليق به، لاسيما مالهج به الظالمون فى حقه(تعالى) مثل لم يلد ولم يولد.

وقد أجمعت الملل السماوية قاطبتها على بيان الصفات على هذا الوجه وعلى أن تُسْتَعْمَلَ تلك العبارات على وجهها، ولا يُبْحث عنها أكثر من استعمالها وعلى هذا مضت القرونُ المشهودُ لها بالخير، ثم خاض طائفة من المسلمين فى البحث عنها، وتحقيق معانيها، من غير نص ولا برهان قاطع، قال النبى صلى الله عليه وسلم: " تَفكّروا فى الخلق ولاتفكروا فى الخالق" وقال فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾: لافكرة فى الرب؛ والصفات لَيْستْ بمخلوقات محدثاتٍ، والتفكر فيها إنما هو: أن الحق كيف اتصف بها، فكان تفكرًا فى الخالق ، قال الترمذى فى حديث: " يَدُ اللهِ مَلاَىٰ" (٢: ١٣٠) قال الأئمة: نؤمن كما جاء من (=)

....

(=) غير أن يُفَسَّرَ، أو يُتَوَهَّم، هكذا قال غيرُ واحد من الأئمة، منهم : سفيان الثورى، ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك: إنه تُروى هذه الأشياء، ويؤمَن بها، ولا يقال: كيف؟ (انتهى)

وقال فى موضع آخر:(١: ٨٤فى باب فضل الصدقة من أبواب الزكوة): إن إجراء هذه الصفات كما هى ليس بتشبيه، إنما التشبيه أن يقال: سمعٌ كسمعٍ، وبصر كبصرٍ(انتهى) وقال الحافظ ابن حجر: لم يُنْقل عن النبى صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحدٍ من الصحابة، من طريق صحيح، التصريحُ بوجوب تأويل شيئ من ذلك ـــ يعنى المتشابهات ـــ ولا المنع من ذكره، ومن المحال: أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أُنزل إليه من ربه ويُنزل عليه﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾ ثم يُترك هذا الباب، فلا يُمَيِّز مايجوزُ نسبته إليه تعالى مما لايجوز، مع حثه على التبليغ عنه بقوله:" ليبلغ الشاهد الغائب" حتى نقلوا أقواله وأفعاله، وأحواله، وما فُعِل بحضرته، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان به على الوجه الذى أراد الله تعالى منها، وأوجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْئٌ﴾ فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقدخالف سبيلَهم اھ.

أقول: ولافرق بين السمع والبصر والقدرة والضحك والكلام والاستواء، فإن المفهوم عند أهل اللسان من كل ذلك، غير مايَليق بجناب القُدْسِ، وهل فى الضَّحكِ استحالة إلا من جهة أنه يستدعى الفم، وكذلك الكلام، وهل فى الْبَطْش والنزول استحالة إلا من جهة أنهما يستدعيان اليد والرجل، وكذلك السمع والبصر يستدعيان الأذن والعين، والله أعلم.

واستطال هٰؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث، وسمّوهم مجسِّمة ومشبِّهة، وقالوا: هم المتَسَتِّرُوْنَ بالْبَلْكَفَةِ، وقد وضح علىّ وضوحابينا، أن استطالتهم هذه ليست بشيئ، وإنهم مخطئون فى مقالتهم رواية ودراية، وخاطئون فى طعنهم أئمة الهدى.

تفصيل ذلك: أن ههنا مقامين:

أحدهما: أن الله تبارك وتعالى كيف اتصف بهذه الصفات؟ وهل هى (=)

....

(=) زائدة على ذاته أو عين ذاته؟ وماحقيقة السمع والبصر والكلام وغيرها؟ فإن المفهوم من هذه الألفاظ بادئ الرأى غير لائق بجناب القدس.

والحق في هذا المقام: أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فيه بشيئ، بل حجر أمته عن التكلم فيه، والبحث عنه، فليس لأحد أن يُقدم على ماحجره.

والثانى: أنه أى شيئ يجوز فى الشرع أن نَصِفه تعالى به؟ وأى شيئ لايجوز أن نصفه به؟.

والحق: أن صفاته وَأسماء ه توقيفية، بمعنى: إنا وإن عرفنا القوعد التى بنى الشرع بيان صفاته تعالى عليها ـــ كما حرَّرنا فى صدر الباب ـــ لكن كثيرًا من الناس لو أبيح لهم الخوض فى الصفات لضَلُّوا وأضَلُّوا؛ وكثيرًا من الصفات وإن كان الوصف بها جائزًا فى الأصل، لكن قومًا من الكفار حملوا تلك الألفاظ على غير محملها، وشاع ذلك فيما بينهم فكان حكم الشرع النهىُ عن استعمالها، دفعا لتلك المفسدة؛ وكثير من الصفات يُوهم استعمالها على ظواهرهاخلاف المراد، فوجب الاحتراز عنها،فلهذه الحِكم جعلها الشرع توقيفية، ولم يُبح الخوض فيها بالرأى.

وبالجملة: فالضحك والفرح والتبشبش والغضب والرضا يجوز لنا استعمالها، والبكاء والخوف، ونحو ذلك لايجوز لنا استعمالها، وإن كان المأخذان متقاربين،والمسئلة على ما حققنا معتضدة بالعقل والنقل، لايحوم الباطل بين يديها، ولامن خلفها، والإطالة فى إبطال أقوالهم ومذاهبهم لهاموضع آخر غير هذا الموضع.

وقال أيضًا(١:٤٨): أثبت لنفسه صفات يعرفونها، ويستعملونها بينهم من الحياة والسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام والغضب والسخط والرحمة والملك والغنا، وأثبت مع ذلك: أنه ليس كمثله شيئ فى هذه الصفات، فهو حى لا كحيوتنا، بصير لا كبصرنا، قدير لاكقدرتنا، مريد لاكإرادتنا، متكلم لا ككلامنا، ونحو ذلك؛ ثم فُسِّر عدم المماثلة بأمور مستبعدة فى جنسنا، مثل أن يقال: يعلم عدد قطرالأمطار، وعدد رمل الفيافى، وعدد أوراق الأشجار،وعدد أنفاس الحيوانات، ويبصر دبيب النمل فى الليلة الظلماء، ويَسمع ما يتوسوس به (=)

بيان آلآئه تعالى وآيات قدرته:

واختارسبحانه وتعالى من آلآئه وآيات قدرته ما يستوى فى فهمه الحَضَرِىُّ والبدوى، والعربى والعجمى؛ ولأجل ذلك لم يذكر النِّعَم الروحانية المخصوصة بالعلماء والأولياء،[١] ولم يُخبربالنعم الارتفاقية المخصوصة بالملوك[٢]؛ وإنما ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغى ذكره، مثلُ خلق السمٰوات والأرض، وإنزال المطر من السحاب، وتفجير الينابيع فى الأرض،وإخراج أنواع الثمار والحبوب والأزهار بالماء، وإلهام الصنائع والْحِرَف الضرورية[٣] وخلق القدرة لممارستها ومزاولتها.

وقد نبَّه فى مواضع كثيرة على اختلاف أحوال الناس عندهجوم المصائب، وانكشافها ببيان الأمراض النفسانية الكثيرة الوقوع .[٤]

(=) تحت اللحف ، فى بيوت مغلقة عليها أبوابها، ونحو ذلك اهـ.

ولقد طال بنا النفَس فى هذا التعليق ولكن بقى أشياء فنحن ذاكروها بعد هذا الموضع(فى الفصل الثانى من الباب الرابع) وراجع حجة الله البالغة ١:١١٦ والتفهيمات الإلٰهية ١:٢١٢.

(١)كفرح كشف النكات النافعة، ومسرَّة حل المعضلات، وكحلاوة العبادة، والانبساط برؤية الأنوار الإلٰهية.

(٢) النِّعَم الارتفاقية : هى التى يحتاج إليها الرجل، ليقضى بها حاجاته النوعية من الأكل والشرب والجماع والاستظلال من الشمس والمطر، والاستدفاء فى الشتاء ، وغيرها.

(٣)قال الله تعالى فى حق داود عليه السلام:﴿ وَعَلَّمْنٰهُ صَنْعَةَ لَبُوْسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُوْنَ؟﴾

(٤)أى تتغير مواقف الناس عند السَّراء والضَّراء،وأوضح سبحانه وتعالى ذلك بأمثلة الأمراض النفسانية الكثيرةالوقوع ليفهمها جميع الناس ، كما قال تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوْعًا(المعارج ١٩–٢١)

وقال تعالى:﴿ أُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾(سورة النساء ١٢٨) وما إلى ذلك من الآيات الكثيرة، ولم يذكر الأمراض، القليلة الوقوع، أو المخصوصة بموضع دون موضع، أو بصنف دون صنف، لأنه لايستوى فى فهمها جميعُ الناس.

بيان التذكير بأيام الله

واختار سبحانه وتعالى من أيام الله ــــ أى من الوقائع التى أحدثها الله تعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين ــــ ما قرع أسماعهم[1] من قبلُ وكانوا قد سمعوا عنه بالإجمال، مثلُ قِصَصِ قوم نوح وعاد وثمود التى تتلقاها العرب أباعن جد؛ ومثل قصَصِ إبراهيم، وقصص أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام التى أَلِفَتْها أسماعُهم لطول اختلاط العرب مع اليهود؛ولم يذكرالقصَصَ الغريبةَ، غيرَ المألوفةِ للعرب، ولاأخبار مجازاة الفارس والهنود.[2]

ذُكرمن القصص ماهوالغرض منها

وانتزع سبحانه وتعالى من القصص المشهورة جِمَاعًا[3]تنفع فى التذكير والموعظة، ولم يَسْرُد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها.

والحكمة فى ذلك: أن العوامَّ إذا سمعوا قصة نادرة غايةَ النُّدرة، أو ذُكرت القصةُ عندهم بجميع خصوصياتها وتفاصيلها، فإن طباعهم تميل إلى نفس القصة، ويفوتهم الغرض الأساسى الذى هو التذكُّر.

ومثال ذلك: ماقاله بعض العارفين: "إن الناس لما حفِظوا قواعدَ التجويد شُغلوا عن الخشوع فى التلاوة، ولما بدأ المفسرون يتكلمون فى الوجوه البعيدة فى التفسير،أصبح علم التفسير نادرًا كالمعدوم".

(١) قرع سمعه أى دَقَّ ووقع الكلام فى أذنه.

(٢)المراد بأخبار مجازاة الفارس:حروبهم وملاحمهم، كقصص رستم، وإسكندر، ودارا وغيرها؛ والمراد بأخبار مجازاة الهنود أيامهم الشهيرة، كحرب مها بهارت، وغيرها؛ والمجازاة والجزاء: المكافأة على الشيئ.

(٣)الجِمَاع:مجتمَع أصله، يقال: هذا الباب جِمَاعُ هذه الأبواب أى الجامع لها،الشامل لمافيها.

القصص المتكرِّرة فى القرآن:

ومماتكرر من القصص فى القرآن العظيم:

- قصة خلق آدم من الطين، وسجود الملائكة له، واستكبار الشيطان عنه، وكونه ملعونا ،وسعيه بعد ذلك فى إضلال بنى آدم (١).
- وقِصَصُ مُحاجَّةِ نوح وهود وصالح وإبراهيم(٢) ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام مع شعوبهم وأقوامهم فى توحيد الله تعالى،والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،واستكبار الأقوام عن الإيمان، وإدلائهم(٣)بشبهات ركيكة، وردود الأنبياء عليها،وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهية ، وظهور نصرة الله تعالى فى حق الأنبياء وأتباعهم(٤).
- وقِصَص موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَأِهِ، ومع سفهاء بنى إسرائيل ومكابرتهم معه عليه السلام، وعقاب الله تعالى لأولئك الأشقياء، وظهور نصرة الله تعالى متتالية لنجيِّه عليه السلام(٥).
- وقصص داود وسليمان عليهما السلام، وخلافتهما وآياتهما وكراماتهما.(٦)

---

(١)ذكرت فى سورة البقرة ٣٠- ٣٩، وسورة الأعراف ١١- ٢٥وسورة الإسراء ٦١- ٦٥ وسورة الكهف ٥٠ وسورة طه ١١٦-١٢٣وسورة صٓ ٧١-٨٥ وسورة الحجر ٢٦-٤٤.

(٢)ليس ذكر سيدنا إبراهيم فى الأصل الفارسى الذى عندنا.

(٣) أدلى فلان بحجته أى أحضرها.

(٤) كما ذكر ذلك فى سورة الأعراف ٥٩- ٩٣ وسورة هود ٢٥- ٩٥ وسورة الحجر ٥١- ٨٤ وسورة الشعراء ٦٩- ١٩١ وسورة الذاريات ٢٤- ٤٦ وسورة القمر ٩- ٤٠.

(٥)كما ذكر ذلك فى سورة البقرة ٤٩- ٧٣ وسورة الأعراف ١٠٣- ١٦٢ وسورة الشعراء ١٠- ٦٨ وسورة القصص ٣-٦

(٦)كما ذكر فى سورة النمل ١٥- ٤٤ وسورة سبأ ١٠- ١٤ وسورة ص ١٧- ٤٠

●وقصص مِحنة[1] أيوب ويونس عليهما السلام، وظهور رحمة الله تعالى لهما[2]

●وقصة دعاء زكريا عليه السلام، واستجابة الله تعالى إياه[3].

●وقصص سيدنا عيسى العجيبةُ: من ولادته من غير أب، وتكلمه فى المهد، وظهور الخوارق على يده[4].

فذكرت هذه القِصَص فى القرآن العظيم بأساليبَ متنوعةٍ من الإيجاز والإطناب حسب مقتضَى الأساليب المرعية فى السور[5].

ماذكرت من القصص مرة أو مرتين فقط

وأما القصص التى لم تتكرر فى القرآن ، بل وردت فى موضع أو موضعين فحسب، فهى:

●قصة رفع سيدنا إدريس عليه السلام مكانا عليا.[6]

(١) المحنة: البلاء والشدَّة ج مِحَنٌ.

(٢) كماذكر فى سورة الأنبياء ٨٣- ٨٨ وسورة الصافات ١٣٩- ١٤٨.

(٣) كماذكر فى سورة آل عمران ٣٨- ٤١ وسورة مريم ٢-١١ وسورة الأنبياء ٨٩- ٩٠

(٤) كما ذكر فى سورة آل عمران ٤٥-٥١ وسورة مريم ١٦-٣٦ وسورة الأنبياء ٩١

(٥) إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدى معنىً واحدًا ، من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة؛ فأعاد الله تعالى كثيرا من القصص، فى مواضع مختلفة،على ترتيبات متفاوتة، ونبَّه بذلك على عَجزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأً به ومكررًا.

(٦) وذلك فى سورة مريم ٥٧ قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فسره كعب الأحبار برفعه عليه السلام إلى السماء الرابعة فى كلام طويل مذكورفى التفاسير؛ ولكنه من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة قاله ابن كثير فى تفسيره (٣:١٢٦) وقال فى تاريخه (١:١٠٠) فالصحيح: أنه شرف النبوة والزلفى عند الله، وعلو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا.

• وقصة مُحاجَّة سيدنا إبراهيم عليه السلام لنمروذ [1]، ومشاهدته لإحياء الطير [2]، وقصة ذبح ولده الوحيد.[3]

• وقصة سيدنا يوسف عليه السلام[4].

• وقصة ولادة سيدنا موسى عليه السلام، وإلقائه في اليَمِّ وقتله القبطى، وتوجُّهه إلى مَدْيَنَ، وتزوجه هناك، ورؤيته النار على الشجرة، وسَماع الكلام منها[5].

• وقصة ذبح البقرة[6].

• وقصة لقاء موسى مع الْخَضِر عليهما السلام[7].

• وقصة طالوت وجالوت[8].

• وقصة بِلْقِيْسَ [9]

• وقصة ذى القرنين[10]

• وقصة أصحاب الْكَهْف[11]

• وقصة الرجلين المتحاوِرَيْن[12].

• وقصة أصحاب الجنة [13].

---

(١) فى سورة البقرة ٢٥٨ (٢) فى سورة البقرة ٢٦٠

(٣) فى سورة الصافات ١٠١ - ١١١ والوحيد: المنفرد

(٤) فى سورة يوسف ٤-١٠١

(٥) فى سورة القصص ٧ - ٣٥ ،وسورة طهٰ ٣٨ - ٤٠، وقال الشيخ أحمد الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين (٣: ٢٠٣): وليس المراد أنه سمع الكلام من جهة الشجرة فقط، بل المحققون على أنه سمع الكلام بجميع أجزائه ـــ بلاحرف ولا صوت ـــ من جميع جهاته، كما يكون لنافى الآخرة عند رؤية ذاته جلّ شانه، بلاكيف ولا انحصار اهـ.

(٦) فى سورة البقرة ٦٧ - ٧٣ (٧) فى سورة الكهف ٦٠ - ٨٢

(٨) فى سورة البقرة ٢٤٦ - ٢٥١ (٩) فى سورة النمل ٢٣ - ٤٤

(١٠) فى سورة الكهف ٨٣-٩٩ (١١) فى سورة الكهف ٩-٢٦

(١٢) فى سورة الكهف ٣٢ - ٤٤ (١٣) فى سورة القلم ١٧ - ٣٣ والجنة: الحديقة.

•وقصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليه السلام لدعوة الدين[1]، وقصة المؤمن الذى قتله الكفار شهيدا[2].

•وقصة أصحاب الفيل[3].

فليس الغرض من سرد هذه القصص فى القرآن الكريم معرفتَها بأنفسها[4] بل الغرض الأساسى: هو أن ينتقل ذهن القارئ والسامع إلى شناعةِ الشرك والمعاصى، ومعاقبةِ الله تعالى عليها، واطْمئنان المؤمنين بنصرة الله تعالى وتأييده، وظهور ألطافه وأفضاله تعالى فى حق عباده المخلصين[5].

---

(١)فى سورة يٰسٓ ١٣-١٩ (٢) فى سورة يٰسٓ ٢٠- ٢٩ (٣)فى سورة الفيل

(٤)أى الاطلاع عليها، والتعرف على جزئياتها فحسب.

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَانُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ،وَجَاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ، وَمَوْعِظَةٌ وَّذِكْرٰى لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾(سورة هود ١٢٠) ففى هذه الآية: أن المقصود من سرد قصص الأنبياء أمور أربعة:

الأول: يذكر من القصص والأخبار مايزداد بها فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأفئدة أمته ثباتا وطمأنينة على أداء الرسالة، وتبليغ الدين، واحتمال أذية الكفار، بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال، ومالقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق بمقتضى ماقيل: إن المصيبة إذا عمّت سهلت.

والثانى: جاء نا فى غضون هذه الأنباء المقصوصة علينا الأمرُ الحق من أنباء هم، أى: لو وقع الخلط والتحريف فى حالاتهم فالقرآن الكريم يرشدنا إلى ما هو الحق منها، ولوإشارةً.

والثالث: ليتّعظ بها الكفار.

والرابع: ليتذكر بها أولو الألباب والإيمان.

فالقرآن العظيم لايسرد قصص الأنبياء بتمامها، بل يجتنى من بينها مايوفى بالأغراض المذكورة؛ وأما القصص الأخر، ماسوى قصص الأنبياء فلها أغراض شتى سوى ماذكرنا، وقد أشار الإمام ولى الله إلى بعض منها، وليس هذا موضع استقصاء ها.

بيان التذكير بالموت وما بعدَه

وقد ذكرجلّ شأنه من الموت وما بعدَه: كيفيةَ الإنسان عند موته، وعَجْزِه فى تلك الساعة،[1] وعرضَ الجنة والنارعليه بعد الموت [2]، وظهورَ ملائكة العذاب أمامَه[3]، وأشراط[4] الساعة من نزول سيدنا عيسى عليه السلام وخروج الدجال[5] وخروج دابة الأرض[6] وخروج يأجوجَ

(١) كماذكرت فى سورة القيٰمة ٢٦- ٣٠.

(٢) قال تعالى فى حق آل فرعون: ﴿اَلنَّارُ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (سورة المؤمن ٤٦)

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْمَلٰئِكَةُ يَضْرِبُوْنَ وُجُوْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، وَذُوْقُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ﴾ (سورة الأنفال ٥٠)

(٤) الأشراط: جمع الشَرَط: العلامةُ وأوّل الشيئ.

(٥) قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهٗ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ (سورة الزخرف ٦١) قال ابن عباس: هو خروج عيسى ابن مريم ــــ عليه الصلوٰة والسلام ــــ قبل يوم القيامة اھ وقال ابن كثير فى تفسيره (٤: ١٣٢): الصحيح أن الضمير فى (وإنه) عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ــــ وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيٰمة، إمامًا عادلا وحكما مقسطا اھ. وقد ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى ابن مريم فى تفسيره (١: ٥٧٨- ٥٨٤) ولشيخ مشايخنا العلامة الكشميرى كتاب ممتع رائق حول الأحاديث الواردة فى نزول عيسى، أسماه: "التصريح بما تواتر فى نزول المسيح"؛ وقُرِئ (لَعَلَم) بالتحريك أى: أمارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه؛ وليس لخروج الدجال ذكر فى القرآن أصرحُ من ذلك.

(٦) ذكرها الله تعالى فى سورة النمل فى الآية ٨٢ وهذه الدابة تخرج فى آخر الزمان، عند فساد الناس، وورد فى حديث صحيح: " إن أول الآيات (ـــ)

وماجوجَ،[١] ونفخةَ الصعق، ونفخة القيام[٢]، والحشر والنشر، والسؤال والجواب، والميزان،[٣] وأخذَ صحائف الأعمال بالأيمان والشمائل، ودخولَ المؤمنين الجنة، ودخول الكفار النار، وتخاصم أهل النار من التابعين والمتبوعين فيما بينهم، وإنكارَ بعضهم على بعض، ولعنَ بعضهم بعضا[٤]، واختصاصَ المؤمنين برؤية الله تعالى[٥]، وأنواعَ العذاب من السلاسل والأغلال والحميم والغسَّاق والزقوم[٦] وأنواعَ النعم من الحور والقصور

(=) خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحًى، وأيُّهما ماكانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا" (مسلم ٢: ٤٠٤ باب ذكر الدجال) وروى أبو داود الطيالسى عن أبى هريرة مرفوعًا: تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان ــ عليهما السلام ــ الحديث، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنه ــ أن الجَسَّاسة هى دابة الأرض المذكورة فى القرآن (شرح النووى على الصحيح لمسلم ٢: ٤٠٤) وقال الراغب: لاسبيل لنا إلى الوقوف على حقائقها وأزمانها (قاله فى مقدمة التفسير له ص ٦٠١ المطبوع فى آخر مفرداته) وليس فى الأصل الفارسى ذكر خروج دابة الأرض.

---

(١) سورة الأنبياء ٩٦ (٢) سورة الزمر ٦٨ (٣) سورة الأعراف ٨

(٤) كماذكر فى سورة الأعراف ٣٨- ٣٩ وسورة الصافات ٢٧- ٣٣

(٥) قال تعالى: ﴿وُجُوْهٌ يَّوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة ٢٢ و ٢٣) وقال فى المكذبين: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوْبُوْنَ﴾ (سورة التطفيف ١٥) فإنه لماحُجب الكفار عن رؤيته خزيا لهم دلّ ذلك على إثباتها للأبرار وارتفع به الإجمال فى قوله: ﴿لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (سورة الأنعام ١٠٣) (البرهان ٢: ٢١٦)

(٦) السلاسل جمع السلسلة: حبل الحديد والأغلال جمع الغل: طوق من حديد أوجلد يُجعل فى اليد والعنق؛ والحميم: من الأضداد: الماء الحار والماء البارد؛ والغسَّاق: البارد أو المنتن أو مايسيل من صديد أهل النار؛ والزقوم: شجرة ذات شوكة، تنبت فى أصل الجحيم.

والأنهـار،والمطـاعم الهنيئة والملابس الناعمة[1] والنساء الجميلات، ومجالسَ أهل الجنة الفَكِهَة الطيبة المفرِّحةِ للقلوب.

ففرَّق سبحـانه وتعـالى هـذه المطـالب في مختلف السور بالإجمال والتفصيل، مراعيًا أساليبها الخاصة.

بيان علم الأحكام

والقاعدة الكلية في مباحث الأحكام: أن سيدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث بالملة الإبراهيمية الحنيفية، فلزم إبقاءُ شرائع تلك الملّة، وأن لايُحدَثَ أيُّ تغير في أمهات مسائلها؛ اللهم إلا تخصيصا لعموماتها، وزيادةً للتوقيتات والتحديدات فيها، وأمثالَ ذلك.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يزكِّيَ العرب بنبينا صلى الله عليه وسلم، ويزكِّيَ سائر الأقاليم بالعرب لزم أن تتكوَّن مادَّةُ[2] شريعته صلى الله عليه وسلم من رسوم العرب وعاداتهم[3].

فإذا أنعمتَ النظر في مجموع شرائع الملة الحنيفية، ولاحظتَ عاداتِ العرب ورسومَهم، وتأملتَ في تشريعه صلى الله عليه وسلم ــــ الذى هو بمنزلة الإصلاح والتهذيب لها[4] ــــ علمتَ أن لكل حكم سببا، وفهمتَ

---

(١) الحور جمع الحوراء: البيضاء؛ والقصور جمع القصر: المكان المرتفع؛ والهنيئة: المرغوبة؛ والناعمة: اللينة.

(٢) مادَّة الشيء: أصوله وعناصره التي يتكوَّن منها، حسِّية كانت أو معنوية، كمادَّة الخشب ومادة البحث العلمي.

(٣) أى مما توارثوها من الملة الحنيفية، وانحرفوا عن جادَّتها في كثيرمنها.

(٤) أى لعادات العرب ورسومهم. وحاصل ماقال الإمام المصنف: أنك إذا لاحظت ثلاثةً من الأمور: الملةَ الإبراهيمية، ورسومَ العرب وتشريعَ النبى صلى الله عليه وسلم علمتَ لكل شيئ سببا.

أن لكل أمر ونهى مصلحة ،وتفصيل ذلك يطول[1].

(١)وقد اقتبست من مواضع شتى من حجة الله البالغة، فإليك المقتبسات، وما بين الهلالين زيادة منى:

معنى قوله: بُعث بالملة الحنيفية:

واعلم أن النبوة كثيرا ما تكون من تحت الملة كما قال الله تعالى:﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ وكما قال:﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾

وسِرُّ ذلك: أنه تنشأ قرونٌ كثيرةٌ على التَدَيُّن بدين، وعلى تعظيم شعائره وتصير أحكامُه من المشهورات الذائعة،اللاحقة بالبديهيات الأولية ـــ التى لاتكاد تنكر ـــ فتجيئ نبوةٌ أخرى لإقامة ما اعوجَّ منها، وصلاح ما فسد منها بعد اختلاط رواية نَبِيِّها، فتفتش عن الأحكام المشهورة عندهم، فما كان صحيحا موافقا لقواعد السياسة الملية لاتُغَيِّره، بل تدعو إليه، وتحث عليه؛ وما كان سَقِيْمًا قد دخله التحريفُ، فإنها تغيره بقدر الحاجة، وما كان حريًا أن يُزاد فإنهاتزيده على ما كان عندهم؛ وكثيرا ما يَستدلّ هذا النبىّ فى مطالبه بما بقى عندهم من الشريعة الأولى، فيقال عند ذلك:" هذا النبى فى ملة فلان النبى "أو " من شيعته" (ج ١ ص ١٩١)

أراد الله أن يزكى به صلى الله عليه وسلم العرب ثم يزكى بهم العالم جميعاً

الإمام الأكبر: الذى يجمع الأمم على ملة واحدة يحتاج إلى أن يدعو قوما إلى السنة الراشدة، ويزكيهم ويصلح شأنهم، ثم يتخذهم بمنزلة جوارحه فيجاهد أهل الأديان ويفرقهم فى الآفاق، وهو قوله تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وذلك لأن هذا الإمام نفسه لايتأتى منه مجاهدة أمم غير محصورة.

لزم أن تكون مادة شريعته على رسوم العرب:

وإذا كان كذلك وجب أن تكون مادة شريعته ماهو بمنزلة المذهب الطبيعى لأهل الأقاليم الصالحة، وعربهم وعجمهم، ثم (وجب أن تكون مادة شريعته) ماعند قومه من العلم والارتفاقات، ويراعى فيه حالهم أكثر من غيرهم، ثم يحمل الناس جميعًا على اتباع تلك الشريعة؛ لأنه لاسبيل إلى أن يُفَوِّضَ الأمرُ إلى كل قوم، أو إلى أئمة كل عصر، إذ لايحصل منه فائدة التشريع أصلاً، ولا (سبيل) إلى أن ينظر ما عند كل قومٍ قومٍ، ويمارس كلا منهم، فيجعل لكلٍ شريعة، إذ (=)

....

(←) الإحاطة بعاداتهم وماعندهم على اختلاف بُلدانهم وتباين أديانهم كالممتنع وقد عجز جمهور الرواة عن رواية شريعة واحدة ، فما ظنك بشرائع مختلفة؟!.

والأكثر أنه لايكون انقياد الآخرين إلا بعد عُدَدٍ ومُدَدٍ(العدد جمع العُدَّة: الاستعداد؛ والمُدد جمع المدة: برهة من الزمان) لايطول عُمُرُ النبى إليها، كما وقع فى الشرائع الموجودة الآن، فإن اليهود والنصارى والمسلمين ما آمن من أوائلهم إلا جمعٌ، ثم أصبحوا ظاهرين بعد ذلك، فلا أحسن ولاأيسر من أن يُعتبر فى الشرائع، والحدود، والارتفاقات عادةُ قومه المبعوث فيهم، ولايُضَيِّق كل التضييق على الآخرين الذين يأتون بعد، ويُبقى عليهم (أى:يَرْحمهم ويشفق عليهم) فى الجملة،والأوَّلون يتيسر لهم الأخذُ بتلك الشريعة بشهادة قلوبهم وعاداتهم، والآخرون يتيسر لهم ذلك بالرغبة فى سِيَر أئمة الملة والخلفاء، فإنها كالأمر الطبيعى لكل قوم فى كل عصر، قديمًا أو حديثًا.

الأقاليم الصالحة:

والأقاليم الصالحة لتولّد الأمزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت مَلِكين كبيرين يومئذ:

أحدهما: كسرى، وكان متسلطا على العراق واليمن وخراسان وماوَلِيَها وكانت ملوك ماوراء النهر والهند تحت حكمه، يُجْبٰى إليه منهم الخراج كلَّ سنة .

والثانى:قَيْصَر، وكان متسلطا على الشام والروم وما وَلِيَهما،وكان ملوك مصرو المغرب والإفريقية تحت حكمه، يُجبٰى إليه منهم الخراج، وكان كَسْرُدولة هذين الملكين،والتسلط على ملكهما بمنزلة الغلبة على جميع الأرض، وكانت عاداتهم فى التَرَفُّه سارية فى جميع البلاد التى هى تحت حكمهما وتَغَيُّر تلك العادات وصَدُّهم عنها مفضيا فى الجملة إلى تنبيه جميع البلاد على ذلك، وإن اختلفتْ أمورهم بعده، وقد ذكر الهُرْمُزَانُ شيئًا من ذلك حين استشاره عمر رضى الله عنه فى غزوة العجم.

أما سائر النواحى البعيدة عن اعتدال المزاج فليس بها كبير اعتدادٍ فى المصلحة الكلية، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم:"اتركو التُرْكَ (←)

....

(=) ماتركوكم،ودَعُوا الحبشة ما ودعوكم".

وبالجملة: فلما أراد الله تعالى إقامة الملّة العوجاء ،وأن يُخرجَ الناس أمة تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتُغيّر رسومَهم الفاسدة كان ذلك موقوفا على زوال دولة هذين متيسّرا بالتعرض لحالهما، فإن حالهما يَسرى فى جميع الأقاليم الصالحة، أو يكاد يَسْرى، فقضى الله بزوال دولتهما فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأن هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وهلك قيصر فلا قيصر بعده، ونَزَلَ الحق الدامغ لباطل جميع الأرض فى دمغ باطل العرب بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودمغ باطل هذَين المَلِكين بالعرب، ودمغ سائر البلاد بِملأهما، ولله الحجة البالغة (ج١ ص٢٥٤- ٢٥٧)

تفصيل ماذكرنا:

إن كنت تريد النظر فى معانى شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتَحَقَّقْ:

أولاً: حال الأميين الذين بعث فيهم، التى هى مادة تشريعه.

وثانيًا: كيفية إصلاحه لها بالمقاصد المذكورة فى باب التشريع، والتيسير، وأحكام الملة.

فاعلم أنهُ صلى الله عليه وسلم بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية، لإقامة عِوَجها، وإزالة تحريفها وإشاعة نورها، وذلك قوله تعالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ولما كان الأمر على ذلك وجب أن يكون أصول تلك الملة مسلَّمَةً وسننها مقرَّرة، إذ النبى إذابُعث إلى قوم، فيهم بقية سنةٍ راشدةٍ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها، بل الواجب تقريرها، لأنه أطوعُ لنفوسهم، وأثبتُ عند الاحتجاج عليهم.

وكان بنو إسماعيل تَوَارَثوا منهاج أبيهم إسماعيل ،فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وُجد عمرو بن لحيّ، فأدخل فيها أشياءً برأيه الكاسد،فَضَلَّ وأَضَلَّ وَشَرَعَ عبادةَ الأوثان، وسيَّب السوائب، وبَحَّر البحائر، فهناك بطلَ الدين واختلط الصحيح بالفاسد، وغلبت عليهم الجهلُ والشرك والكفر، فبعث الله سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم مقيمًا لعوجهم، ومصلحًا لفسادهم، فنظر صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم ،فماكان منها موافقًا لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه، وماكان منها تحريفًا أو إفسادًا أو من شعائر الشرك والكفر أبطله، (=)

....

(=) وسجّل على إبطاله، وما كان من باب العادات وغيرها فبيَّن آدابها ومكروهاتها مما يُحترز به عن غوائل الرسوم، ونهى عن الرسوم الفاسدة، وأمر بالصالحة، وما كان من مسئلة أصليةٍ أو عمليةٍ تُركَتْ فى الفَتْرَةِ أعادَهَا غَضَّةً طريةً كما كانت فَتَمَّت بذلك نعمة الله، واستقام دينهُ(ج ١ص ٢٧١و ٢٧٢)

وكان من المعلوم عندهم: (أى عند أهل الجاهلية فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم): أن كمال الإنسان أن يُسْلِم وجههُ لربّه،ويعبده بأقصى مجهوده، وأن من أبواب العبادة: الطهارة، ومازال الغسل من الجنابة سنة معمولة عندهم، وكذلك الختان وسائر خصال الفطرة، وفى التوراة أن الله جعلَ الختان مِيْسَمَةً على إبراهيم وذريته، وهذا الوضوء يفعله المجوس واليهود وغيرهم، وكان يفعله حكماء العرب، وكانت فيهم الصلوة،وكان أبو ذر رضى الله عنه يصلى قبل أن يقْدِم على النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، وكان قُسّ بن ساعدة الأيادى يصلى، والمحفوظ من الصلاة فى أمم اليهود والمجوس وبقية العرب أفعال تعظيمية، لاسيما السجود وأقوال من الدعاء والذكر، وكانت فيهم الزكوٰةُ، وكان المعمول عندهم منها، قِرى الضيف وابن السبيل،وحملُ الكلّ، والصدقة على المساكين، وصلة الأرحام، والإعانة فى نوائب الحق، وكانوا يُمْدَحون بها ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته ـــ وكان فيهم الصوم من الفجر إلى غروب الشمس،وكانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية، وكان الجِوار فى المسجد(أى الاعتكاف) وكان عمر نذر اعتكاف ليلة فى الجاهلية، فاستفتى فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عاص بن الوائل أوصى أن يعتق عنه كذا وكذا من العبيد.

وبالجملة كان أهل الجاهلية يتحنَّثون بأنواع التحنثات، وأما حج بيت الله وتعظيم شعائره والأشهر الحُرُم فأمره أظهر من أن يخفى، وكان لهم أنواع من الرقى والعَوْذات، وكانوا أدخلوا فيهاالإشراك، ولم تَزَلْ سنتهم الذبح فى الحلق والنَحْر فى اللبّة، ماكانوا يَخْنقون ولايَبْعَجُوْن، وكانوا على بقية دين إبراهيم عليه السلام فى ترك النجوم، وترك الخوض فى دقائق الطبيعيات،غيرما ألجأ إليه البداهة.

وكان العمدة عندهم فى تقدمة المعرفة الرؤيا وبشارات الأنبياء من (=)

....

(=) قبلهم، ثم دخل فيهم الكهانة والاستقسام بالأزلام والطِيَرة، وكانوا يَعْرِفون أن هذه لم تكن فى أصل الملة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم حين رأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى أيديهما الأزلام:" لَقَدْ عَلِمُوْا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا قَطُّ"

وكان بنو إسماعيل على منهاج أبيهم إلى أن وُجد فيهم عمرو بن لحىّ، وذلك قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم قريبًا من ثلاث مائة سنة، وكانت لهم سَنَنٌ متأكدة يتلاومون على تركها فى مأكلهم ومشربهم، ولباسهم، وولائمهم، وأعيادهم، ودفن موتاهم، ونكاحهم، وطلاقهم، وعدتهم، وإحدادهم، وبيوعهم ومعاملاتهم، وما زالوا يحرمون المحارم، كالبنات والأمهات والأخوات وغيرها وكانت لهم مزاجر فى مظالمهم كالقصاص، والديات والقسامة، وعقوبات على الزنا، والسرقة،ودخلت فيهم من الأكاسرة، والقياصرة، علوم الارتفاق الثالث والرابع؛ قال الإمام فى الحجة(١: ٨١):للارتفاقات حدان: الأول: هوالذى لايمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات القاصرة، كأهل البَدْوِ وسكّان شواهق الجبال والنواحى البعيدة من الأقاليم الصالحة، وهو الذى نُسَمِّيه بالارتفاق الأول. والثانى: ما عليه أهل الحضر والقرى العامرة، من الأقاليم الصالحة، المستوجبة أن ينشأ فيها أهل الأخلاق الفاضلة والحُكماء، فإنه كثرهنالك الاجتماعاتُ، وازدحمت الحاجاتُ، وكثرت التجارب، فاستنبطت سننٌ جزيلةٌ وعضُّوا عليها بالنواجذ، والطرف الأعلى من هذا الحد: مايتعامله الملوك، أهل الرفاهية الكاملة، الذين يَرِدُ عليهم حكماء الأمم، فَيَنْتَحِلُوْنَ منهم سُننًا صالحة وهو الذى نسميه بالارتفاق الثانى. ولما كمل الارتفاق الثانى أوجب ارتفاقا ثالثا، وذلك: أنهم لما دارت بينهم المعاملات وداخلها الشُحّ والحسد والمطل والتجاحد نشأت بينهم اختلافات ومنازعاتٌ، وأنهم نشأ فيهم من تغلب عليه الشهوات الرديئة،أو يُجْبَلُ على الجرأة فى القتل والنهب، وأنهم كانت لهم ارتفاقات مشتركة النفع لايُطيق واحد منهم إقامتها، ولا تسهل عليه، أولا تسمح نفسه بها فاضطروا إلى إقامة ملك، يقضى بينهم بالعدل، ويَزْجُر عاصِيَهم،ويقاوم جَرِيَّهم، ويَجْبِى منهم الخراج، ويَصرِفُه فى مصرفه، وأوجب الارتفاق الثالث ارتفاقا رابعا: (=)

....

(=) وذلك أنه لما انفرد كل مَلك بمدينته وجُبى إليه الأموال وانضَمّ إليه الأبطال وداخلهم الشحُّ والحِرْصُ والحِقْدُ تشاجروا فيما بينهم، وتقاتلوا، فاضطروا إلى إقامة الخليفة أو الانقياد لمن تسلَّطَ عليهم تسلُّط الخلافة الكبرى، لكن داخلهم الفسوق والتظالم بالسبْى والنهب، وشيوع الزنا،والنكاحات الفاسدة، والربوا، وكانوا تركوا الصلاة والذكروا عرضوا عنهما، فبُعث النبى صلى الله عليه وسلم فيهم، وهذا حالهم،فنظر فى جميع ما عند القوم؛ فماكان بقية الملة الصحيحة أبقاه وسَجَّل على الأخذ به، وضبط لهم العبادات بشرع الأسباب والأوقات، والشروط والأركان، والآداب والمفسدات، والرخصة، والعزيمة، والأداء والقضاء ، وضبط لهم المعاصى ببيان الأركان والشروط، وشرع فيها حدودًا ومزاجر وكفارات، ويَسّر لهم الدين ببيان الترغيب والترهيب، وسَدّ ذرائع الإثم والحث على مكملات الخير، إلى غير ذلك مماسبق ذكره، وبالغ فى إشاعة الملة الحنيفية وتغليبها على المِلَلِ كلها، وماكان من تحريفاتهم نفاه وبالغ فى نفيه. وماكان من الارتفاقات الصحيحة سجَّل عليه وأمر به، وما كان من رسومهم الفاسدة مَنَعَهُمْ عنه ، وقبض على أيديهم، وقام بالخلافة الكبرى، وجاهد بمن معه من دُوْنَهُم، حتى تمّ أمر الله وهم كارهون.

وجاء فى بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" بُعثتُ بالملةِ السَّمْحَةِ الحنيفية البيضاء" يريد بـ(السمحة) ماليس فيه مَشاقّ الطاعاتِ، كما ابتدعه الرهبان، بل فيها لكل عذر رخصة، يتأتى العمل بها للقوى والضعيف، والمكتسب والفارغ، وبـ(الحنيفية) ماذكرنا من إنها ملة إبراهيم ــــ صلوات الله عليه ــــ فيها إقامة شعائر الله، وكبتُ شعائر الشرك، وإبطال التحريف والرسوم الفاسدة، وبـ (البيضاء) أن عِلَلَها وحِكَمها والمقاصد التى بُنيت عليها واضحة: لايريب فيه من تأمّل وكان سليمَ العقل، غير مكابر، والله أعلم (ج١ ص٢٧٧ - ٢٨١)

ولقد أطنبنا الكلام فى هذا المقام لأن رموز الإمام كانت فى حاجة شديدة إلى هذا التفصيل الطويل العميق، ولقد آثرنا أن نشرح المقام بكلام الإمام نفسه، لأنه رحمه الله ركب غضنفرًا فمن الرديف له ؟!

دَورالتشريع الإسلامى[1] فى إصلاح الملة الحنيفية المحرَّفة:

وبالجملة فقدكان تَطرَّق إلى العبادات من الطهارة والصلاة والصوم والزكوة والحج والذكر فتورٌعظيم، من جهة التساهل فى إقامتها، واختلاف الناس فيها بسبب عدم معرفةِ أكثرِها، وتَسَرُّب التحريفات الجاهلية إليها، فأصلح القرآن العظيم ذلك الاختلال كلَّه، وسوَّاها حتى استقام أمرُها.

وأما تدبيرِ المنزل[2] فقد كانت حدثت فيه رسوم ضارَّة، وأنواعُ تعدّ وعتوّ؛ وهكذا اختلّت أحكام السياسة المدنية؛ فضبطَ القرآن العظيم لهما أصولاً، وحدد لهما حدودًا، وذكر من هذا الباب [3] أنواعا من الكبائر، وكثيرًا من الصغائر، لتحترز الأمة عنها.

وذكر مسائلَ الصلاة إجمالاً،واستعمل فيها لفظ " إقامة الصلاة " ففصَّلها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالأذان وبناء المساجد والجماعة والأوقات، وكذلك ذكر مسائل الزكاة بالاختصار، وفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أيَّما تفصيلٍ[4]، وذكر الصومَ فى سورة البقرة؛[5] وذكر الحج

---

(١) الدور: النوبة. وشَرَّع مبالغة فى شرَعَ؛ وَشَرَعْ الدينَ: سَنَّه وَبيَّنَه.

(٢) أى الحياة العائلية.

(٣)أى: من باب تدبير المنزل والسياسة المدنية.

(٤)قال الإمام فى التفهيمات الإلٰهية(١٤٩:١): كُشف لى عن أصل الشريعة، وعن تبيانها الحاصل على لسان النبى صلى الله عليه وسلم، كما قال عز من قائل ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

مثاله: قال الله تعالى: أقيموا الصلوة وآتوا الزكوة، فالإقامة مأخوذة من "قامت السوق": إذا وُجد فيها البيع والشراء.

ومعناها ههنا: الترويج والإشاعة؛ فبيَّن النبى صلى الله عليه وسلم الترويج المقصود بتوقيت الأوقات،وتعيين عدد الركعات، وتعليم صفة الصلوة،وتشريع الأذان،وتأكيد أمرالجماعة والجُمُع، والنُدب إلى بناء المساجد وحضورها فكل هذه الأبواب تبيان لإقامة الصلوة، ولولابيانه الواضحُ المفصلُ لم نعلم شيئًا (=)

أيضًا فيها وفى سورة الحج؛[1] وذكر الجهاد فى سورة البقرة والأنفال وفى مواضع متفرقة أخرى [2]؛ وذكر الحدود فى المائدة والنور[3]؛ وذكر

⟸) من ذلك أبدًا وكذلك بين إيتاء الزكوة بتعيين النصاب والمقدار الواجب إخراجه، والجنس الواجب إخراجها منه إلى غير ذلك.

ثم عن تبيان تبيانها على ألسنة الصحابة والتابعين، كما أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال:" اقتدُوا بالذَيْن من بعدى أبى بكر وعمر" وقال:" أصحابى كالنجوم ،بأيهم اقتديتم اهتديتم".

مثاله: قصر النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فى السفر،والسفر عندنا أمرمبهم فلحق به فعل ابن عمروابن عباس بيانا أنه أربعة برد.

ثم عن إيضاحها وتدوين أصولها وفروعها الحاصل على أيدى المجتهدين المتقدمين.

مثاله:قال الله تعالى:﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلٰوةِ فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ،وَامْسَحُوْا بِرُءُوْسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾فتكلم المجتهدون أن الغسل معناه إسالة الماء فقط أو يشترط معها الدلك؟ والوجه حده من كذا وكذا إلى كذا وكذا، وإلى المرافق معناه مع المرافق وهل يكفى مسمى المسح، ولو على شعرة أو شعرتين، أولابد من مسح ربع الرأس أو من مسح كله؟

ثم عن شرح مذاهبهم وأقاويلهم، والتخريج على قواعدهم، الحاصل على أيدى المتأخرين من الفقهاء فى كل مذهب.

وما أصدق ماقيل فى ذلك: إن مَثَله كمثل دَوْحَة نبتت منها غصون كبار، ومن تلك الغصون غصون أخرى صغار، ونبتت فى الغصون الصغار أوراق وأزهار.

أومثله كمثل عين، نبع منها جداول كِبَار، ومن تلك الجداول جداول أخرى صغار، واغْتُرِفَ من الجداول الصغار فى الأوانى، ووقع منها شيئ فى المهاون ومنابت الأشجار اهـ.

(٥) اقرأ الآيات ١٨٣- ١٨٧

(١)سورة البقرة ١٩٧- ٢٠٣، وسورة الحج ٢٦- ٣٧.

(٢) سورة البقرة ١٩٠- ١٩٥ و٢١٧ و٢٤٤ وسورة الأنفال ١٢- ١٩و٦٥- ٦٩ وسورة الحج ٣٨-٤١ وفى مواضع كثيرة من سورة البراءة.

(٣)سورة المائدة ٣٢- ٤٠ وسورة النور ١-١٠.

المواريث فى سورة النساء؛[١] وبَيَّنَ أحكام النكاح والطلاق فى سورة البقرة والنساء والطلاق وغيرها من السور[٢].

التعريضات التى تحتاج إلى البيان

وإذا عرفتَ هذا القسم الذى تَعُمُّ فائدته جميعَ الأمة[٣] فههنا قسم آخر وهو:

- أنه كان يُعْرَض عليه صلى الله عليه وسلم سؤال، فيجيب عنه[٤]:
- أو تقع حادثة يجود[٥] فيها المؤمنون بأنفسهم وأموالهم، ويُمسك المنافقون ويتبعون الهوى، فيمدح الله تعالى المؤمنين، ويذم المنافقين ويتوعدهم.[٦]
- أو تقع حادثة من قبيل الغلبة على الأعداء، وكف ضررهم، فَيَمُنَّ الله تعالى بذلك على المؤمنين، ويذكِّرهم بتلك النعمة[٧]
- أو تحدث حالة تحتاج إلى تنبيه أو زجر أو إشارة أو إيماء[٨] أو أمر، أو نهى، فينزل الله تعالى فى ذلك الباب.

فما كان من هذا القبيل فلا بد للمفسر من ذكر تلك القصص بطريق الإجمال

أمثلتها:

وقدوردت التعريضات بقصة غزوة بدر فى سورة الأنفال،[٩] وبقصة

(١) سورة النساء ١١ – ١٤ وفى الآية ١٧٦.

(٢) سورة البقرة ٢٢٦ – ٢٤٢ وسورة النساء ١٩–٢٥ و٣٤–٣٥.و ١٢٧ – ١٣٠ وسورة الطلاق ١–٧

(٣) أى عرفت القسم الذى فيه خطاب عام، ولايحتاج إلى معرفة شأن نزوله،

(٤) كما سألوا عن الأهلة، وعن القتال فى الأشهرالحرم وعن الكلالة فأجيب عنه فى القرآن.

(٥) جاد فلانٌ جُودًا: سَخَاوبَذَلَ، ويقال: جَادَ بماله.

(٦) كماوقع ذلك فى غزوة تبوك.

(٧) كما وقع ذلك فى غزوة بدر والأحزاب.

(٨) الإيماء: هوالإشارة الدقيقة.

(٩) فى الآيات ٥–١١.

غزوة أُحُدٍ فى سورة آل عمران،[١] وبقصة غزوة الخندق فى سورة الأحزاب[٢] ، وبقصة صلح الحديبية فى سورة الفتح،[٣] وبغزوة بنى النضير فى سورة الحشر[٤]، وجاء الحث والتحريض على فتح مكة وغزوة تبوك فى سورة البــراء ة[٥]، ووردت الإشارة إلى حجة الوداع فى سورة المائدة[٦]، وجاء ت الإشارة إلى قصة زواج زينب رضى الله عنها فى سورة الأحزاب[٧]، وإلى تحريم السُّرِّيَّة[٨] فى سورة التحريم[٩]، وإلى قصة الإفك فى سورة النور،[١٠] وجاء ذكر استماع وفد الجن تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم فى سورة الجن والأحقاف[١١]،وذكرت قصة مسجد الضِّرار فى سورة البراء ة[١٢] وأشير إلى قصة الإسراء فى أول سورة بنى إسرائيل[١٣].

هذه الآيات من التذكير بأيام الله

وهذا القسم من الآيات الكريمة فى الحقيقة نوع من أنواع التذكير بأيام الله ؛ ولكن لما كان حل الإشارات فيها متوقفا على سماع القصة ميزت عن سائر أقسامها.

---

(١) فى الآيات ١٥٢– ١٦٨ (٢) فى الآيات ٩–٢٥.

(٣)فى الآيات ١–١٠ (٤)فى الآيات ١–١٤

(٥) فى الآيات ٣٨– ٦٦ وما بعدها.

(٦)فى الآية ٣٠. (٧) فى الآية ٣٦

(٨)السُّرِّيَّةُ والجمع سَرَارِىّ: الأمة التى تقام فى البيت؛ والأغلب أن اشتقاقها من السِّر.

(٩)فى الآية ١–٤ (١٠)فى الآيات ١١–٢٠.

(١١)سورة الجن ١–١٩ وسورة الأحقاف ٢٩– ٣٢.

(١٢) فى الآيات ١٠٢–١١٠

(١٣) فى الآية الأولى.

الباب الثانى

فى

بيان وجوه الْخَفاء فى معانى نظم القرآن بالنسبة إلى أهل هذا العصر[1]، وإزالة ذلك الْخَفاء بأوضحِ بيان

لِيُعلم أن القرآن العظيم قد نزل فى لغة العرب القُحَّة[2] المبيَّنة الواضحة[3] وَفَهِمَ العرب معنى منطوقه بسليقتهم التى جُبلوا عليها، كما قال تعالى: ﴿والْكِتَابِ الْمُبِيْنِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ﴾[6]

وكان من مرضِيِّ الشارع الحكيم عدمُ الخوض فى تأويل المتشابهات القرآنية، وتصويرِ حقائق الصفات الإلٰهية، وتسمية المبهم[7]، واستقصاء الْقِصَصِ، وما أشبه ذلك؛ ولذلك قَلَّما كانوا يسئلونه صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك[8]

---

(١) أى: بالنسبة إلى أهالى زماننا؛ واحترز به عن زمان النزول، لأن الخَفاء لم يكن حينذاك.

(٢) القُحَّة تأنيث القُحّ: الخالص الخالى من الشوائب الغريبة.

(٣) أى: نزل القرآن بمناهجهم، ولغاتهم ومطابقا لمحاوراتهم.

(٤) سورة الزخرف ٢ (٥) سورة يوسف ٢ (٦) سورة هود ١

(٧) كأسماء أصحاب الكهف ، ولونِ كلبهم، وعصا موسى من أى الشجر كان؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضُرب به القتيلُ من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، وتعيين التى جاء ت لتدعو موسى إلى أبيها فى مدين أهى الصغرى أو الكبرى؟ إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن مما لافائدة فى تعيينه، تعود على المكلفين فى دينهم ولا دنياهم.

(٨) روى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أنه قال: ماكان قوم أقلَّ سؤالا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، سألوه عن أربعة عشر حرفا، فأجيبوا (البرهان ٤: ٥٢)

ولهذا لم يُرفع[1] فى هذا الباب من الأحاديث إلاشيء قليل.

ولكن لما مضت تلك الطبقة وتَدَخَّل [2] العجمُ، وتُركت تلك اللغة الأصيلة،[3] واستُصْعِب فهمُ المراد فى بعض المواضع ،ومست الحاجة إلى تفتيش اللغة والنحو، وجرت الأسئلة والأجوبة فيما بين الناس، وصُنِّفَتْ كتب التفسير،لزم أن نذكر هذه المواضع الصعبة إجمالاً، ونوردَ لها أمثلة حتى لايَحتاج المفسرعند الخوض فيها إلى زيادة بيان، ولا يضطر إلى المبالغة فى الكشف عنها وشرحها[4].

أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام

فنقول: إن عدم الوصول إلى المراد من اللفظ يكون:

- أحيانا بسبب استعمال لفظ غريب[5]؛ وعلاجه : نقلُ معنى اللفظ عن الصحابة والتابعين ،وسائر أهل المعانى[6].
- وأحيانا لقلة الاطلاع على الناسخ والمنسوخ.
- وأحيانا للغفلة عن أسباب النزول.

---

(١)أى: لم يُرْوَ

(٢) أى: اعتنق العَجَمُ الإسلامَ. ومعنى تَدَخَّل أى دخل قليلاً قليلاً.

(٣) الأصلية: الثابتة القديمة.

(٤) أى: لئلا يحتاج الباحث إلى زيادة بيان فى شرح تلك المقام وقت تدريس القرآن الكريم.

(٥) غَرُبَ الكلام: غَمُض وخفى، وغَرُبَ الشيء: كان غير مألوف. فالغريب من الكلام: البعيد الفهم.

(٦) أهل المعانى: هم الذين لهم باع طويل وقدم راسخ فى بيان معنى اللفظ القرآنى،قال ابن الصلاح: وحيث رأيتَ فى كتاب التفسير" قال: أهل المعانى" فالمراد به: مصنفو الكتب فى معانى القرآن، كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنبارى اه (الإتقان ١: ١٤١ فى النوع ٣٦ والبرهان ١: ٢٩١)

● وأحيانا بسبب حذف المضاف أو الموصوف أو غيرهما.

● وأحيانا لإبدال شيئ بشيئ، أو إبدال حرف بحرف، أو اسم باسم، أو فعل بفعل، أو لذكر الجمع مكان المفرد، أو بالعكس، أو للالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

● وأحيانا لتقديم ما حقُّه التأخير أوبالعكس.

● وأحيانا بسبب انتشار الضمائر، أو تعدُّد المراد من اللفظة الواحدة.

● وأحيانا بسبب التكرار والإطناب.

● وأحيانا بسبب الاختصار والإيجاز

● وأحيانا بسبب استعمال الكناية والتعريض والمتشابه والمجاز العقلى.

فينبغى للإخوة السعداء أن يطلعوا فى مبدأ الكلام[1] على حقيقة هذه الأمور، وعلى شيئ من أمثلتها، ويكتفوا بالرمز والإشارة فى مواضع التفصيل.

الفصل الأول

فى

شرح غريب القرآن[2]

وأحسن الطرق فى شرح الغريب ما صَحَّ عن ترجُمان القرآن عبدالله بن عباس رضى اللّه عنهما[3]، عن طريق ابن أبى طلحة[4] واعتمد

(١) يعنى الكلام فى تفسير القرآن الكريم ؛ واطلّع على الأمر أى عَلِمَه.

(٢) قال الزركشى فى البرهان (١: ٢٩٢): معرفة هذا الفن للمفسر ضرورى، وإلا فلا يحل له الإقدام على كتاب الله تعالى اهـ، وقد صُنف فى غريب القرآن كتب عديدة ومن أشهرها وأحسنها "كتاب المفردات" للراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ.

(٣) هو صحابى جليل، حِبْر هذه الأمة، ترجمان القرآن، ولقَّبه بهذا ابن مسعود رضى الله عنه، فإنه قال: "نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس" رواه ابن جرير، وقد مات ابن مسعود رضى الله عنه فى سنة اثنتين وثلاثين، على الصحيح: وعُمِّر بعده عبد الله بن عباس ستا وثلاثين سنة، فماظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ؟! (=)

عليه البخارى[1] فى صحيحه غالباً[2]، ثم طريق

(═) (التفسير لابن كثير ١:٣) وقال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل " وحسبك بهذه الدعوة!.

ولد رضى الله عنه بمكة سنة ٣ ق هـ وتوفى بالطائف سنة ٦٨هـ

(٤) هو على بن أبى طلحة سالم بن المخارق الهاشمى ولاءً، ولم يصلنا عن نشأته وحياته شئ.

(١) هوأبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخارى: إمام الدنياوجبل الحفظ،صاحب الصحيح، وُلد سنة ١٩٤هـ وتوفى سنة ٢٥٦هـ

(٢) قال السيوطى فى كتابه " الإتقان فى علوم القرآن " (النوع السادس والثلاثون) فى معرفة غريبه: أفرده بالتأليف خلائق لايحصون وأولى ما يُرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة. وما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة، فإنها من أصح الطرق وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه اهـ.

وقال فى موضع آخر:" وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير مالا يُحصى كثرة، وفيه روايات وطرق مختلفة؛ فمن جيدها طريق على بن أبى طلحة الهاشمى، قال أحمد بن حنبل:" بمصر صحيفة فى التفسير، رواها على بن أبى طلحة، لو رَحَل رجل فيها إلى مصر، قاصدًا ما كان كثيرًا"، أسنده أبو جعفر النحاس فى ناسخه.

قال ابن حجر: هذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس.

وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيرًا، فيما يعلّقه عن ابن عباس. وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر كثيرًا، بوسائط بينهم وبين أبى صالح. وقال قوم: لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد وسعيد بن جبير، قال ابن حجر: بعد أن عُرِفت الواسطة، وهو ثقة، فلاضَيْرَ فى ذلك.

هذا، وليُعلم أن الإمام البخارى لم يرو فى صحيحه كلَّ الصحيفة، وإنما روى ما يتعلق بشرح معنى اللفظ الغريب فقط.

وليعلم أيضا أن ما رواه من شرح اللفظ الغريب ليس كله مما جاء من (═)

....

(⟸) الصحيفة فقد روى كثيرًا من غير ابن عباس (ملتقاة من تقدمة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى على كتابه " معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخارى").

وقد كتب الأستاذ محمد كامل حسين بحثا رائقًا فى فاتحة المعجم المذكور، وهاهو غَيْضٌ من فيضه:

" من أقدم الروايات التى وصلتنا عن ابن عباس فى تفسير القرآن الكريم، تلك الصحيفة، التى عُرفت بين المفسرين المتأخرين بصحيفة على بن أبى طلحه.

ابن أبى طلحة:

أما ابن أبى طلحة الذى نعرف به هذه الصحيفة، فهو على بن أبى طلحة سالم بن المخارق، الهاشمى ولاءً، ويكنى بأبى الحسن، وقيل غير ذلك ــــ لم يَصِلْنا عن نشأته وحياته شيئ. وكل الذى وصلَنا عنه إنما هو فى الحديث عن شيوخه الذين أخذ عنهم، وعن هؤلاء الذين رووا عنه؛ ثم عن توثيقه أو تجريحه، ويكاد يجمع الذين تحدثوا عنه من المؤرخين والمحدثين أنه لم يَرو عن ابن عباس مباشرة، إنما أخذ رواية ابن عباس بواسطة بينهما، واختلف المؤرخون فى من كان بينه وبين ابن عباس، فأبوجعفر النحاس يذهب إلى أنه مجاهد أحيانا وعكرمة أحيانا أخرى. أى: إن سلسلة الرواية هى على بن أبى طلحة عن مجاهد عن ابن عباس أحيانا، وعلى بن أبى طلحة عن عكرمة عن ابن عباس أحيانا أخرى؛ وجعل السيوطى الواسطة هو مجاهد طورًا، وسعيد بن جبير طورًا آخر، ولانستطيع أن نتبين الحقيقة، لأن الذين رووا عن أبى طلحة أغفلوا ذكر من كان بينه وبين ابن عباس، ومن ههنا جاء الطعن فى إسناده، وقد دافع عنه أبوجعفر النحاس؛ وعدّله فى رواية هذه الصيحفة أحمد بن حنبل على النحو الذى رأيناه فى النص الذى نقله عنه أبوجعفر النحاس، غير أن ابن حنبل كان يقول عنه: " له أشياء منكرات" وذكره ابن حبان فى الثقات، وقال: " روى عن ابن عباس ولم يَرَه " وروى له مسلم حديثا واحدًا فى ذكر العزل (فى كتاب النكاح فى باب حكم العزل) وروى له المحدثون حديثا آخر فى الفرائض، وقد ذكرنا أن (⟸)

الضحَّاك[1] عن ابن عباس، وأجوبةُ ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق[2]؛

(═) البخارى نقل من صحيفته فى التفسير الذى رواه عن ابن عباس شيئا كثيرًا فى التراجم وغيرها، بالرغم من أنه لايُسميه.

وهناك عدد من العلماء أنكروا الرواية عن ابن أبى طلحة بجانب هؤلاء الذين عدَّلوه فمن الذين لم يوثقوه: يعقوب بن سفيان الذى قال عنه: ضعيف الحديث منكر، ليس محمود المذهب وقال فى موضع آخر: شامى ليس هو بمتروك ولاهو حجة. ولعل هذا هو السبب الذى من أجله لم يروالبخارى شيئًا من الأحاديث عن طريقه، بل لم يذكره فى إسناده حينما أخذ من صحيفته فى التفسير، على أن الذين وثقوه، والذين جرحوه اتفقوا جميعا على صحة رواية الصحيفة التى عرفت به فى التفسير.

والذى نقله البخارى من صحيفته لم يتجاوز مفردات غريب القرآن حتى وهم السيوطى فى إتقانه أن ما نقله البخارى هو كل ما فى صحيفة على بن أبى طلحة، بينما نرى ابن جرير لم يرو معانى مفردات الغريب، كما فعل البخارى بل نرى فى روايته عن طريق ابن أبى طلحة تفسيرا تاما للآيات،فهو يذكر ناسخ الآيات ومنسوخها، وأسباب النزول.

فصحيفته إذن لم تكن فى تفسير مفردات غريب القرآن، كالذى نفهمه من كلام السيوطى فى الإتقان، أو ما نقله البخارى فى صحيحه فإن التفسير فى تلك الصحيفة كان أشمل وأعم مما وهم السيوطى أو ما نقله البخارى اهـ.

---

(١) الضحاك: هو ابن مزاحم الهلالى ولاءً، البلخى الخراسانى ، أبو القاسم مفسر، قال سعيد بن جبير؛ لم يلق ابن عباس، ووثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة، وقال ابن عدى: فى جميع مارَوى نظر، إنما اشتهر بالتفسير مات سنة ١٠٥هـ، قال ابن حجر: ذكر البخارى عنه شيئًا موقوفًا، وهو تفسير قوله تعالى:﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ فقال فى كتاب اللعان: وقال الضحاك: إلارمزًا أى إشارة(من تهذيب التهذيب ٤ :٤٥٣)

(٢)نافع بن الأزرق الحرورى، من رؤس الخوارج وإليه تنسب طائفة الأزارقة، قتل فى جمادى الأخرى سنة ٦٥هـ وروى السيوطى بالسند المتصل: بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس ،يسألونه عن تفسير القرآن، (═)

وقد ذكر السُّيُوطي[١] هذه الطرق الثلاث في كتابه: " الإتقان في علوم القرآن "[٢].

ثم مانقله البخاري من شرح الغريب عن أئمة التفسير[٣]، ثم مارواه سائر المفسرين عن الصحابة والتابعين وأتباعهم رضي الله عنهم من شرح غريب القرآن.

وأرى من المناسب أن أجمع في الباب الخامس من هذه الرسالة جملة صالحة[٤] من شرح غريب القرآن مع بيان أسباب النزل، وأجعلها رسالة مستقلة[٥] فمن شاء ضمَّها إلى هذه الرسالة، ومن شاء أفردها على حدة :[٦]

وللناس فيما يعشقون مذاهب

(=) فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لاعلم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

ثم سرد الإمام السيوطي مسائل نافع، مسئلة مسئلة، وجواب ابن عباس عن كل مسئلة منها.

---

(١) هوعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين: إمام حافظ، ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفي سنة ٩١١هـ له نحو ٦٠٠ مصنَّف.

(٢)الإتقان في علوم القرآن: كتاب ماتع رائع جامع مطبوع، وضعه السيوطي كمقدمة لتفسيره:" مجمع البحرين ومطلع البدرين" ذكر فيه علوم القرآن في ثمانين نوعًا، وشرح الغريب في النوع ٣٦ فنقل شرح الغريب أولا بطريق ابن أبي طلحة، ثم أكمله بطريق الضحاك، ثم ساق في فصل مستقل أسئلة نافع بحذف بضعة عشر سؤالا.

(٣) كمجاهد والحسن وقتادة وابن المسيب وابن عيينة ومعمر وغيرهم.

(٤)أي: مقدارًا كافيًا.

(٥) سماها الإمام بـ" فتح الخبير بمالابد من حفظه في علوم التفسير"

(٦)لم نَضُم فتحَ الخبير مع الفوز الكبير في شرحنا هذا، لعدم شموله في الدرس في المدارس الإسلامية بالهند.

القدماء ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه

ومما ينبغى أن يُعلم هنا: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ربما يفسِّرون اللفظ بلازم معناه[١]؛ وقد يتعقَّب المفسرون المتأخرون ذلك التفسير القديم، من جهة تتبُّع اللغة، وتفحُّص موارد الاستعمال[٢].

والغرض المطلوب فى هذه الرسالة :[٣] سَرْدُ تفسيراتِ السلف بعينها، ولنقدها وتنقيحها موضِع آخَرُغيرُ هذا الموضع:

فلكل مقام مقال، ولكل نكتة مجال

---

(١)قال ابن كثير فى تفسيره(١:٥) تُذكر أقوالُهم(يعنى المتقدمين من المفسرين) فى الآية فيقع فى عبارتهم تباين فى الألفاظ، يحسبهامن لاعلم عنده اختلافا، فيحكيها أقوالا، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيئ بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيئ بعينه، والكل بمعنى واحد فى أكثر الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادى اه وقال الزركشى فى البرهان (٢: ١٥٩) يكثر فى معنى الآية أقوالهم واختلافهم ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظن من لافهم عنده أن فى ذلك اختلافا فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية،وإنما اقتصر عليه لأنه أظهرُ عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل. وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيئ بلازمه ونظيره،والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالبًا، والمراد الجميع فَلْيَتَفَطَّنْ لذلك؛ ولايفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات كما قيل:

عباراتنا شتّى وحسنُك واحد ... وكلٌّ إلى ذلك الجمال يشير

(٢) مع أن تعقيبَه غير ملائم بل هو من قبيل:

كم من عائب قولا صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

(٣) يعنى: فتح الخبير.

الفصل الثانى
فى
معرفة الناسخ والمنسوخ(١)

من المواضع الصَّعبة فى علم التفسير التى مباحثهَا كثيرة، والاختلاف فيها واسع: معرفة الناسخ والمنسوخ ؛ ومن أقوى وجوه الصُّعوبة: اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

معنى النسخ عند المتقدمين:

والذى وضح لنا باستقراء(٢) كلام الصحابة والتابعين: أنهم كانوا

(١) والعلم به عظيم الشأن، بل هو من تتمة الاجتهاد؛ وقال الأئمة: لايجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ، وقد مر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه على قاصّ (: خطيب) فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا! قال: هلكت! وأهلكت! (أسنده الحازمى فى الاعتبار ص ٤) والآثار فى هذا الباب تكثر جدًا، وقد صنف فيه خلائق لايحصون، منهم أبو جعفر النحاس، أحد أئمة العلم واللغة بمصر (المتوفى سنة ٣٣٨هـ) وكتابه الناسخ والمنسوخ مطبوع بمصر ، وصنف الشيخ هبة الله بن سلامة الضرير (م ٤١٠هـ) وكتابه أيضًا مطبوع بمصر على هامش أسباب النزول للواحدى، وكذا صنَّف أبو الفرج ابن الجوزى (م ٥٩٧هـ) وكتابه " اخبار الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ" مطبوع بمصر، مع مراتب المدلسين لابن حجر العسقلانى، وكذا صنف ابن حزم، وكتابه "معرفة الناسخ والمنسوخ" مطبوع على هامش تفسير الجلالين؛ وصنف الشيخ صديق بن حسن خان البوفالى رسالة بالفارسى، أسماها: إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ، وهى مطبوعة بالهند؛ وكذا صنف ابن العربى المالكى والعلامة السيوطى وغيرهم، وأخيرًا بذل الدكتور مصطفى زيد جهدَه، فصنف: النسخ فى القرآن الكريم (دراسة تشريعية تاريخية نقدية) فى مجلدين.

(٢) استقرأ الأمور: تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها.

سمى الترمذي النسخ علة

يستعملون "النسخ" فى معناه اللغوى، الذى هو " إزالة شئ بشئ "(١) لا بمعنى مصطلح الأ صوليين(٢) فمعنى النسخ عندهم: " إزالة بعض أوصاف الآية باية أخرى"(٣) سواء كان ذلك:

---

(١) النسخ لغةً يُطلق على معنيين:

أحدهما: "الإزالة"، ومنه قوله تعالى﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ وَلَانَبِيٍّ، إِلاَّ إِذَا تَمَنّٰى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيْ أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَايُلْقِى الشَّيْطَانُ،ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ (سورة الحج ٥٢ وراجع تفسيره من حجة الله ٢: ٥٦٩) ومنه قولهم:نَسَخَتِ الشمسُ الظلَ، ومنه "النسخة" للطبيب، سمى بها تفاؤلاً؛ أى الأدوية التى تُزيل المرض.

والآخر:" النقل" و"التحويل" ومنه نَسَخْتُ الكتابَ أى: نقلته، والمناسَخات: لانتقال الملك من وارث إلى وارث.

وهل هو حقيقة فى الإزالة، مجاز فى النقل ، أوبالعكس، أو مشترك بينهما؟ فيه مذاهب،حكاها ابن الحاجب من غير ترجيح، ورجح الإمام الرازى الأول، قال: لأن النقل أخص من الزوال، فإن النقل إعدام صفة وإحداث أخرى، وأما الزوال فمطلق الإعدام، وكون اللفظ حقيقة فى العام، مجازًا فى الخاص أولى من العكس، لتكثير الفائدة اه(نهاية السؤل فى شرح منهاج الأصول ٢: ٢٣ بهامش التقرير والتحبير لابن أمير الحاج)

(٢)النسخ عند الأصوليين: بيان انتهاء حكمٍ شرعى،بطريق شرعيٍ، متراخ عنه حتى لايجوز امتثاله، ولك أن تقول: إنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم، على وجه لولاه لكان ثابتابه، مع تراخيه عنه. ومغزى الحدَّين الصحيحين: أن المنسوخ يكون بحيث لايبقى حكمه فى وجه من الوجوه، ولايكون له محمل من المحامل.

(راجع مقدمة الإمام الراغب ص ٦٠٠ والإتقان النوع ٤٧ ونهاية السؤل ٢: ٢٣ويتيمة البيان ص٧٩ و كتاب الاعتبار للحازمى ص ٦)

(٣)يعنى: عند المتقدمين(الصحابة والتابعون من بعدهم) فإنهم كانوا يرون أن النسخ هو مطلق التغيير الذى يطرأ على بعض الأحكام فيرفعها ليحُلَّ غيرها محلها.

• ببيان انتهاء مدة العمل[1].

•أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر[2].

• أو ببيانِ كونِ القيد إتفاقيا[3].

---

(١)وذلك كما قيل (فى الآية ١٠٩ من سورة البقرة) ﴿فَاعْفُوْا وَاصْفَحُوْا حَتّٰى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية منسوخة،وناسخها قوله تعالى:﴿قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ لاَيُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَلاَبِالْيَوْمِ الآخِرِ (إلى قوله) حَتّٰى يُعْطُوْا الْجِزْيَةَ عَنْ يَّدٍ وَهُمْ صَاغِرُوْنَ﴾(التوبة ٢٩) وقال مكى: ذكر جماعة أنها محكم غير منسوخ،لأنه مؤجل بأجل،والمؤجل بأجل لانسخ فيه اهـ (معرفة الناسخ والمنسوخ لابن حزم والإتقان)

ومن هذا القبيل: ماأمربه لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح،ثم نُسخ بإيجاب القتال، وهذا فى الحقيقة ليس نسخًا بل هو من قسم المَنْسَأِ كما قال الله تعالى:أو نَنْسَاها (سورة البقرة ١٠٦ كما فى قراءة ابن كثير) والمنسئ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون ، وفى حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى،وبهذا يضعف مالهج به كثيرون من أن الآيات فى ذلك منسوخة، بآية السيف، وليس كذلك بل هى من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما،لعلة يقتضى ذلك الحكم، ثم ينقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لايجوز امتثاله اهـ (الإتقان نوع ٤٧)

(٢)وذلك كقوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ أَمْوَالَ الْيَتَامٰى ظُلْمًا؛﴾ (النساء ١٠) وذلك: أنه لما نزلت هذه الآية امتنعوا من أموال اليتامى وعزلوهم،فدخل الضرر على الأيتام، ثم أنزل الله تعالى:﴿وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الْيَتَامٰى؟ قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة ٢٢٠)فرخص فى المخالطة، ولم يرخص فى أكل الأموال بالظلم، وأدخلوه فى المنسوخ(معرفة الناسخ والمنسوخ ص ١٥٤)وليس نسخا، بل هو من قسم صرف الكلام عن المعنى المفهوم إلى المعنى الحقيقى الغير المتبادر.

(٣)كما قيل فى قوله تعالى:﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِىْ الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ، إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾الآية(سورة النساء ١٠١) (=)

• أو بتخصيص عام(1).

• أوببيان الفارق بين المنصوص وبين ماقيس عليه ظاهراً(2).

• أو بإزالة عادة من العادات الجاهلية(3)

(=) قال أبو جعفر النحّاس: أما الذين قالوا: إن الآية منسوخة فقد قالوا إن المراد بها المنع من قصر الصلاة إلا فى الخوف، وقدصح عن النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أنه قصر فى غير الخوف، آمن ماكان فى السفر، ففعله إذن ناسخ للآية اهـ(النسخ فى القرآن ٢:٦٠٦)

(١)قال السيوطى، وقسم هو من قسم المخصوص، لامن قسم المنسوخ، وقد اعتنى ابن العربى بتحريره فأجاد كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا﴾ ﴿وَ الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنْ، إِلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا﴾ ﴿ فَاعْفُوْا وَاصْفَحُوْا حَتّٰى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِه،﴾ وغير ذلك من الآيات التى خصت باستثناء، أوغاية،وقد أخطأ من أدخلها فى المنسوخ(الإتقان نوع ٤٧)

(٢) كقياس أهل الجاهلية جواز الربوا على البيع قال الله تعالى: ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰوا﴾(سورة البقرة ٢٧٥) وقياسهم هذاباطل قال الله تعالى بيانا للفارق بين المقيس والمقيس عليه: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبٰوا﴾

وكقياس أهل الجاهلية جواز البحائر والسوائب على الضحايا والقرابين فرد الله تعالى عليهم فى قوله: ﴿مَاجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ وَلاَسَائِبَةٍ﴾الآية

قال الإمام المصنف فى الخير الكثير (ص ١٢٦): النسخ كان فى اصطلاح الصدر الاول بإزاء معنى الإزالة فقط، أعم من أن يكون زوالا لزوال العلماء كنسخ النجوم والخط، أو رفعا لقياس باطل كنسخ البحائر والسوائب، أو بيانا لأنتهاء مدة الحكم اهـ.

(٣)قال السيوطى: وقسم(هو) رفع ماكان عليه الأمر فى الجاهلية، أو فى شرائع من قبلنا: أوفى أول الإسلام، ولم ينزل فى القرآن، كإبطال نكاح نساء الآباء، ومشروعية القصاص والدية، وحصر الطلاق فى الثلاث،وهذا إدخاله فى قسم الناسخ قريب، ولكن عدم إدخاله أقرب، وهو الذى رجحه مكى وغيره،ووجهوه بأن ذلك لوعدَّ فى الناسخ لعد جميع القرآن منه، إذكله أو أكثره رافع لما كان عليه الكفار وأهل الكتاب الخ (الإتقان نوع ٤٧)

•أو برفع شريعة[1] من الشرائع السابقة.

عدد الآيات المنسوخة عند المتقدمين:

فاتَّسع باب النسخ عندهم، وكثر جَولان العقل فيه، واتَّسعت دائرة الاختلاف لديهم، ولذلك بلغت الآيات المنسوخة عندهم إلى خمسِ مِائة آية؛ بل إذا حققت النظر تجدها غير محصورة؛[2] وأما المنسوخ حسب اصطلاح المتأخرين فلايتجاوز العددَ القليل، لاسيما حسب ما اخترناه من التوجيه[3].

---

(١) الشريعة: القانون والحكم من الأحكام.

(٢) إذ لو عُدَّ مثلُ ذلك فى الناسخ والمنسوخ لعدَّ جميع القرآن منه؛ إذ كلُّه أو أكثره تغيير لما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من قبل.

(٣) اعلم أن فى النسخ مسائل:

الأولى: نسخ شرائع الأنبياء بعضها ببعض، وهذا النسخ جائز عقلاً وواقع سمعًا خلافًا لليهود، وهم ـــ لعنهم الله ـــ تَوَسَّلوا بذلك إلى إبقاء دين اليهودية.

والثانية: وقوع النسخ فى جزئيات الشريعة الغراء، وهذا أيضا جائز عقلاً، وواقع سمعًا، واتفقت الأمة عليهما.

والثالثة: وجود الآيات المنسوخة فى هذا القرآن الذى هو بأيدينا، فذهب الجمهور إلى وجودها، واختلفوا فى إحصاء مانسخ منه، فأكثر منه القدماء لتوسعهم فى إطلاق النسخ، ومازال المتأخرون يَسْعَوْن فى تقليله حتى جعله الشيخ السيوطى نحو عشرين، وزاد عليه فى التقليل صاحبنا الإمام حجة الهند ونابغتها فى كتابه هذا حتى حصره فى خسمة، وذهب جماعة فى القديم والحديث إلى إنكار وجود الآيات المنسوخة فى القرآن، حتى قال الشيخ عبيد الله بن الإسلام السندى (تلميذ شيخ الهند) فى كتابه: شاه ولی اللہ اور ان کا فلسفہ بالأردية ماتعريبه: ظنى: أن أصل مقصود الإمام ولى الله أن لاوجود للآيات المنسوخة بالكلية فى القرآن الكريم؛ ولكنه رحمه الله لم يصرح بذلك للمصلحة، لأن صراحته يشبه قَوله بقول المعتزلة، فيطرح عامةُ أهل العلم قولَه، ويفوت الغرض الأصلى الذى يروم، فاختار (=)

الآيات المنسوخة عند المتأخرين:

وقدذكر الشيخ جلال الدين السُّيُوطى فى " الإتقان " عن بعض العلماء ما ذكرناه آنفا، بتقريرٍمبسوط كما ينبغى؛ ثم حَرَّر[1] المنسوخ طَبْق رأىِ

(=) أسلوبا حكيميًّا فبين توجيه الآيات المشكلة، وسلّم النسخ فى الآيات السهلة اه (ص٧٥) ويؤيد ماقاله ابن الإسلام صنيع الإمام فى هذا الكتاب فإنه أشار إلى أن هذا الاختلاف ليس اختلافا حقيقيا؛ بل هو اختلاف لفظى، راجع إلى اختلاف اصطلاح القوم فى معنى النسخ، وكتب المصنف فى التفهيمات الإلٰهية(٢:١٧٣): للمفسرين فيما بينهم اختلاف كثير،ولما فتشنا أقاويلهم، وحذقنا النظر فيها وجدناها على صنوف ...... ومنها:اختلافهم فى النسخ، والحق عندى: أن ذلك باجتهاد واستنباط، ولذلك قال أئمة الأصول: لايعض بالنواجذ على قولهم بالنسخ حتى يُكْشفوا جلية الحال، وبينوا أن الآية الأولى نزلت يوم كذا، والثانيةَ يوم كذا، بشيئ يسكن إليه القلب اه فيميل القلب إلى قول الإمام المحدث الكبيرالشيخ محمد أنور شاه الكشميرى :لايكاد يوجد شيئ فى القرآن المتلو منسوخًا فى الحكم، بحيث لايبقى حكمه فى وجه من الوجوه، أو مَحْمل من المحامل، بل لاجرم يوجد حكمه مشروعًا فى مرتبة من المراتب، وحال من الأحوال وزمانٍ من الأزمان اه (حكاه تلميذه العلامة محمد يوسف البنورى فى يتيمة البيان تقدمة مشكلات القرآن ص ٧٩) وادعى فى أماليه: أن النسخ لم يرد فى القرآن رأسًا، أعنى بالنسخ: كون الآية منسوخة فى جميع ماحوته، بحيث لاتبقى معمولة فى جزئى من جزئياتها، فذلك عندى غير واقع، وما من آية منسوخة إلا وهى معمولة بوجه من الوجوه، وجهة من الجهات اه(فيض البارى بشرح صحيح البخارى ٣:١٤٧ وراجع البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى (٢:٤٢-٤٣)

(١)هوعبد الرحمٰن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخِضْيرى، السيُوطى جلال الدين: إمام ، حافظ، مؤرخ، فقيه، أديب،محدث، مفسر ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفى سنة ٩١١هـ.

---

(١) حَرَّر الكتاب: حسَّنه وأصلحه.

المتأخرين، موافقا لرأى الشيخ ابن العربى[1] فعدّه قريبًا من عشرين آية، وللفقير في أكثرها نظر، فلنورد كلامه مع التعقيب[2].

فمن البقرة

١- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾الآية[3] منسوخة، قيل: بآية المواريث[4] وقيل: بحديث :لاوصيّة لوارث[5] وقيل بالإجماع، حكاه ابن العربى.

قلت:بل هى منسوخة بآية:﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ﴾وحديث "لاوصية" مبيّن للنسخ[6].

---

(١)هوأبوبكر محمد بن عبد الله القاضى المالكى، المعروف بابن العربى المعافرى الأندلسى ولد سنة ٤٦٨هـ وتوفى سنة ٥٤٣هـ؛ وصنف أحكام القرآن فى أربع مجلدات كبار(مطبوع بمصر) وعارضة الأحوذى على سنن الترمذى (مطبوع) وغيرهما من الكتب المفيدة؛ وهو غير الشيخ ابن عربى الصوفى.

(٢)عقّب على كلامه تعقيبًا: أى علق عليه، فإما أن ينقضه أو يرد عليه أو يؤيده؛ وعقّب على فلان: بيّن عيوبه وأغلاطه؛ وعقّب الشيئَ: أتى بشيئ بعده.

(٣)رقم الآية ١٨٠ وتمام الآية:﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوْفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِيْنَ﴾

(٤)المراد بآية المواريث قوله تعالى:﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ ﴾ الآيات ١١-١٤ من سورة النساء.

(٥)رواه عشرة من الصحابة، وخرّجه أصحاب السنن غير النسائى عن أبى أمامة وغير أبى داود عن عمرو بن خارجة وقال الترمذى : حديث حسن صحيح اه وتلقته الأئمة بالقبول،واحتج به من ذهب إلى جواز نسخ القرآن بالسنّة، ولو آحادًا وراجع لتخريج الحديث نصب الراية للزيلعى (٤:٤٠٣-٤٠٥)

(٦) لعل المصنف لايجوّز نسخ القرآن بالآحاد،فقال: بل منسوخة الخ وقال قتادة وطاؤس وحسن البصرى وغيرهم: ليس بمنسوخ ، بل يمكن الجمع بين الوصية والميراث، وقال الشوكانى: الآية وإن كانت عامة، لكنها خاصة معنى، والمراد (=

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[١] قيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٢] وقيل: محكمة، ولا مقدرة[٣]

قلت: عندى وجه آخر: وهو أن المعنى: وعلى الذين يطيقون الطعام [٤] فدية، هى طعام مسكين؛ فأضمر قبل الذكر لأنه متقدم رتبة[٥]؛ وذكّر الضمير، لأن المراد من الفدية هو الطعام[٦]؛ والمراد منه صدقة الفطر؛ عقّب الله تعالى الأمر

=) بالوالدين: الذين ليسوا بوارث لكفرهم أورقهم، وبالأقربين سوى الورثة ؛وروى عن الشعبى والنخعى ومالك أن الوجوب منسوخ والندبية باق.

قلت: عندى وجه آخر: وهوأن الآية معمولة فى بعض الوجوه، أى إذا خاف المورث أن أولاده لايقسمون الميراث حسب ما أمر الله تعالى سبحانه، ويَظُنّ أن بعضهم يظلمون بعضا بعد موته، فح يجب عليه الوصية لجميع الورثة حسب ما قدرالله أنصبائهم، ويُشهد على وصيته ذلك، بل يُسَجّله فى محكمة القضاء لئلايظلم بعضهم بعضًا بعد موته، وعلى هذا فلا تعارض بين هذه الآية وآية المواريث؛ وأما حديث: " لاوصية" فهو بمعزل عن هذا المبحث؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وح تكون للآية مناسبة بماقبلها أيضًا، فإن قبلها آية القصاص فلماذكر سبحانه القصاص ذكر بعده أن على الناس أن يَسُدّوا مواضع الفساد ويغلقوا أبواب القتال بتدابير صحيحة كالوصية مثلاً إذا خاف المورث وترك مالاً عظيمًا وخيرًا كثيرًا والله أعلم بأسرار كتابه.

(١)سورة البقرة رقم الآية ١٨٤ (٢)سورة البقرة رقم الآية ١٨٥

(٣)وتكون الآية للشيخ الفانى، وضمير يطيقونه يرجع إلى الصوم.

(٤) أى: يطيقون الإطعام، لكونهم أصحاب نُصُب بقدرة ممكنة.

(٥)أى: أتى بالضمير فى قوله: يطيقونه قبل ذكر المرجع، وهو الطعام، لكونه متقدما رتبة، لأن قوله: فدية هى طعام مسكين مبتدأ مؤخر، وقوله:وعلى الذين يطيقونه خبر مقدم.

(٦)فإن قيل: كيف أرجع الضمير المذكر إلى الفدية؟ فقال: هى فى تأويل الطعام، فيجوز تذكير الضمير.

بالصيام فى هذه الآية بصدقة الفطر، كما عقَّب الآية الثانية بتكبيرات العيد[1].

(١)أى: أمر الله تعالى أولاً فى الآية ١٨٣ بالصيام، ثم فى الآية ١٨٤ بصدقة الفطر، ثم فى الآية ١٨٥ بصلاة العيد بقوله تعالى:﴿ وَلِتُكَبِّرُوْا اللهَ عَلٰى مَا هَدَاكُمْ﴾ وهكذا الترتيب فى نفس الأمر، فإنا نصوم أولاً، ثم نؤدى صدقة الفطر قبل الرواح إلى صلاة العيد، ثم نؤدى الصلاة، وقال الشيخ عبيد الله السندى رحمه الله، شارح فلسفة الإمام المصنف فى تفسيره:" إلهام الرحمن" (١: ٢٣٤) الصائم يترك الطعام والشراب ،فلربما يكون هذا سببا لحدوث الشح والبخل فى الطبيعة، لايأكل ليجمع،ولذلك أوجب عليهم أن يتصدقوا بالطعام تتميما للصوم، وإلى ذلك يشير قوله:﴿وَعَلَى الَّذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ﴾ وقد تخبط المفسرون فى تفسيره من قديم الزمان إلاالإمام ولى الله الدهلوى فإنه فَسَّره وأزال الإشكال، هو يقول: إن أصل التركيب هكذا فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ عَلَىَ الَّذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ والضمير راجع إلى الطعام وإنما أخر المبتدأ لكونه نكرة؛ وقدذكر ذلك الإمام الفراء فى معانى القرآن وقال: إنه لايرجع الضمير إلى الصيام، فصار المعنى أن من كان يطيق الإطعام يجب عليه ذلك ليتم صيامه ولئلايتعود على البخل والشح، فإن زاد على طعام مسكين فهو خير له. هذا هو أصل المصلحة اهـ.

وأنت ترى أن توجيه المصنف فى غاية من البعد، وإن اختاره الشيخ الإمام أبو مسعودرشيد أحمد الجنجوهى فى لطائف رشيدية(ص٣) بل الحق ماقاله الجمهور واختاره المحققون، قال العلامة أبوالحسن على الندوى فى الأركان الأربعة (ص ١٩٠- ١٩٣):

يعرف المستقرئ للغة العرب، ومناهج كلامهم، أن لهم تعبيرات مختلفةً عن معنى" القدرة على الشيئ" والإتيان بفعله، تتصاعد وترتقى باعتبار التعسر. أولها: الاستطاعة وآخرها: الإطاقة، فلا تلجئ إلى هذا الأخير إلا إذا كان الفعل شاقا مجهدًا يستنفد القوة ويستفرغ الجهد، فلايقول أحد: إنى أطيق أن أرفع اللقمة إلى فمى ، أوهذا القلم إلى أذنى أونحو ذلك مما لاعسر فيه، بل يقول: إنى أطيق أن أحمل هذا الحجر الثقيل، أوأن أسرد فى الصيام أو أن أصلى الليلة كلها ــــمثلاــــ فكان معنى الآية: الذين يطيقونه مع شدة وتعب، ومشقة عظيمة، وهما الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة، لايطيقان الصيام إلا مع جهد وإرهاق، وتعريض للنفس للهلاك والمرض الشديد. (=)

٣ - قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَاءِ كُمْ﴾[١] ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٢] لأن مقتضاها[٣] الموافقةُ فيما كان عليهم (اهل الكتاب) من تحريم الأكل والوطء بعد النوم[٤]؛ ذكره ابن العربي؛ وحكى[٥] قولاً آخر: أنه نسخ لما كان بالسنَّة[٦]

(=) وعلى هذا فهم ابن عباس رضى الله عنه، فقال: إن الآية نزلت فى الشيخ الكبير الهرم، والعجوز الكبيرة الهرمة فهما يطعمان كل يوم مسكينا، ولا يقضيان، فمن تطوع خيرًا، قال: زاد مسكينا آخر فهو خير له.

فكان الذين توجه إليهم الخطاب فى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ على أقسام ثلاثة.

الأول: المقيم الصحيح، فيتحتم عليه الصوم.

والثاني: المريض والمسافر فيباح لهما الإفطار مع وجوب القضاء.

والثالث: من يشق عليه الصوم بسبب لايرجى زواله، كالهرم والمرض المزمن، فيفطران ويطعمان لكل يوم مسكينا، وكذلك الحامل والمرضع، فتفطران وتقضيان.

وهكذا تبقى الآية محكمة لانسخ فيها، ولاتقدير لكلمة زائدة أو حذف أو تكلف شديد، وقد ذهب إلى ذلك بعض كبار الصحابة من الراسخين فى العلم، وآثر هذا القول واختاره بعض كبار العلماء فى عصرنا، والمتضلعين من علوم الدين، كالعلامة المحقق الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى، والعلامة الشيخ شمس الحق الديانوى والأستاذ العلامة السيد سليمان الندوى رحمهم الله تعالى اهـ (وراجع فيض البارى ٣: ١٤٦ و ١٦٦)

(١) رقم الآية ١٨٧ (٢) سورة البقرة ١٨٣

(٣) أى: مقتضى الآية الثانية.

(٤) أخرج أحمد وجماعة عن كعب بن مالك قال: كان الناس فى رمضان، إذا صام الرجل فنام، حَرُم عليه الطعامُ والشراب والنساء حتى يُفطِرَ من الغد ـــ الحديث وقوله: فيما كان عليهم أى على الذين من قبلكم..

(٥) أى: حكى ابن العربى.

(٦) أى: نسخ لما كان معمولا به وثابتا عندهم بالسنَّة.

قلت: معنى "كما كتب" التشبيه فى نفس الوجوب[1] فلا نسخ، إنما هو[2] تغيير لما كان عندهم قبل الشرع[3]؛ ولم نجد دليلا على أن النبى صلى الله عليه وسلم شرع لهم ذلك[4]؛ ولو سُلّم فإنما كان ذلك بالسنة[5]

٤ـ قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية[6] منسوخة بقوله تعالى:

---

(١) أنت تعلم أن التشبيه لايجب أن يكون من كل وجه، وإذن فالتشبيه فى الآية الأولى لايقتضى بماذكروه من وجوب موافقة أهل الكتاب فيما كانوا عليه فى صومهم، استدلالاً بالتشبيه، بل المعنى: كتب وفرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم من الأنبياء والأمم، من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا، كما هوظاهر عموم الموصول؛ فالتشبيه والمماثلة فى نفس الفرضية والوجوب، وليست المماثلة فى طريق الأداء وتحديد الأوقات.

(٢) يعنى قوله تعالى: "أُحِلَّ لَكُمْ" الآية

(٣) أى: كانت العرب قبل الإسلام يصومون، لأن الصوم كان فى أصل الملة، وكان ابتداء صيامهم بعد النوم، فلما جاء الإسلام وأمروا بالصيام صاموا حسب ماتعورف عندهم، ثم لما وقعت الخيانات منهم، غير الشرع هذاالطريق، وجعل ابتداءَ الصوم من الفجر المستنير، فالآية مغيرلعادة الجاهلية، وليس نسخا لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ الآية.

(٤) أى: ماحكى ابن العربى من أنه نسخ لما كان معمولاً به وثابتا عندهم بالسنة النبوية، فهو ليس بصحيح فإننا لم نجد دليلاً الخ.

(٥) أى: وإن سلمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم شرع لهم هذا الطريق، فإنما كان ذلك ثابتا بالسنة النبوية، فقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ناسخ للحكم الذى كان ثابتا بالسنة، وليس بناسخ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾

قال السيد الآلوسى: وفى هذه الأوامر دليل على جواز نسخ السنة بالكتاب بل على وقوعه بناءً على القول بأن الحكم المنسوخ من حرمة الوقاع، والأكل والشرب كانت ثابتة بالسنة، وليس فى القرآن مايدل عليها اهـ (روح المعانى ٢ : ٦٧)

(٦) سورة البقرة ٢١٧ وتمام الآية: " يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيْهِ قُلْ: قِتَالٌ فِيْهِ كَبِيْرٌ؛ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؛ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَايَزَالُوْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ حَتّٰى يَرُدُّوْكُمْ عَنْ دِيْنِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوْا" الآية.

﴿وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً﴾ الآية[١] أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة[٢]، قلت: هذه الآية لا تدل على تحريم القتال، بل تدل على تجويزه، وهى من قبيل تسليم العلة وإظهار المانع؛ فالمعنى: أن القتال فى الشهر الحرام كبير شديد، ولكن الفتنةَ أشدُّ منه، فجاز فى مقابلتها؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياقها، كما لايخفى[٣].

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْن ـ إلى قوله ـ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ الآية[٤] منسوخة بآية: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَّعَشْرًا﴾[٥] والوصيةُ منسوخة بالميراث؛ والسكنى

---

(١) سورة التوبة ٣٦ والآية بتمامها: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُوْرِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِىْ كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوْا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوْنَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِيْنَ﴾

(٢) أى: أخرجه ابن جرير فى تفسيره "جامع البيان"

(٣) وسياق الآية: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيْهِ كَبِيْرٌ﴾ اى سلمنا أن القتال فى الأشهر الحرم ذنب كبير ولكن ﴿صَدٌّ﴾ اى صرف ومنع ﴿عَنْ سَبِيْلِ اللهِ﴾ اى الإسلام ﴿وَكُفْرٌ بِه﴾ اى بالله ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ اى صد عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ اى من المسجد الحرام باضطرارهم إلى الهجرة ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ ذنبا من القتال فى الأشهر الحرم ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ اى الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ اى القتال، ودفع الأشد لازم، فيجوز القتال لقمع الفتنة فى الأشهر الحرم، وإن كان ذنبا فى نفسه.

(٤) سورة البقرة ٢٤٠ والآية بتمامها: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجًا وَّصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إلى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ؛ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِىْ أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوْفٍ ؛ وَاللهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾

(٥) سورة البقرة ٢٣٤ والآية بتمامها: ﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجًا يَّتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَّعَشْرًا ؛ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِىْ أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ﴾

ثابتة عند قوم، منسوخة عند آخرين [1] بحديث :" ولاسكنى"[2].

قلت:هي كما قال منسوخة عند جمهور المفسرين؛ ويمكن أن يقال: يستحب أو يجوز للميت الوصية[3]، ولايجب على المرأة أن تسكن فى وصيته؛ وعليه ابن عباس [4]؛ وهذا التوجيه ظاهر من الآية[5].

---

(١)قال الآلوسي: والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى، وكان ذلك على الصحيح فى أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾وهو وإن كان متقدما فى التلاوة فهو متأخر فى النزول، وكذا النفقة بتوريثهن الربع أو الثمن؛ واختلف فى سقوط السكنى وعدمه، والذى عليه ساداتنا الحنفية الأول، وحجتهم أن مال الزوج صار ميراثا للوارث وانقطع ملكه بالموت، وذهب الشافعية إلى الثاني، لقوله صلى الله عليه وسلم: امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله (روح المعاني ٢: ١٥٩)

(٢)لعله أشار إلى قول عطاء فإنه قال: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاء ت، ولاسكنى لها(الصحيح للإمام البخارى ٢: ٨٠٤) ولم أظفر فى حديث مرفوع بهذا اللفظ.

(٣)يعنى الوصية بالسكنى والنفقة إلى الحول.

(٤) قال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية (يعنى فإن خرجن) عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاء ت (الصحيح للبخارى ٢: ٨٠٤)

(٥)قلت :يمكن أن تكون الآية معمولة بها، إماسنة موسعة وإما وجوبا فى حال من الأحوال حينما تكون المرأة بائسة لامأوى لهاولاقرابة ولا ميراث، والنكاح بزوج أخر ربما لايتيسرعلى فور انقضاء العدة،ففى مثل هذه الحالة أوجب الشرع على الزوج الإيصاء لها إلى تمام الحول، فهى تتربص بأربعة أشهر وعشرا ثم تتهيئ للزواج، فهى مخيرة فى الأشهر الباقية، إن شاءت سكنت فى هذا البيت، وإن شاء ت خرجت؛ ثم إن اختارت أن تمكث فى البيت حتى تتم حولاً كاملاً، فلايجوز للورثة أن يخرجوها إلى مدتها.

(=)

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوْا مَا فِيْ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ﴾ الآية[1] منسوخة بقوله بعده: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[2]

قلت: هومن باب تخصيص العام: بينت الآية المتأخرة أن المراد مافى أنفسكم من الإخلاص والنفاق، لامن أحاديث النفس التى لا اختيار فيها[3]،

(=) وبالجملة فالنسخ ليس بمتعين، ونظيره حكم المؤلفة قلوبهم فقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز التأليف إن احتيج إليه، قال القاضى أبوبكر بن العربى: والذى عندى: إن قوى الإسلام زالوا، وإن احتيج إليه أعطوا سهمهم، كما يعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الصحيح قدروى فيه: بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ اهـ (أحكام القرآن ٢: ٣٨٥)

وراجع لمذهب مجاهد الصحيح للبخارى (٢: ٨٠٤) ولشرح مذهبه فيض البارى للإمام الكشميرى (٤: ١٦٤) والأركان الأربعة لحكم المؤلفة قلوبهم (ص ١١٠)

(١) رقم الآية ٢٨٤.

(٢) رقم الآية ٢٨٦، ويدل على النسخ ماروى عن أبى هريرة قال: لمانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِلّٰهِ مَافِيْ السَّمٰوَاتِ وَمَا فِيْ الأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوْا مَافِيْ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أى رسولَ اللّٰهِ! كُلِّفْنا من الأعمال مانطيق: الصلوة والصيام والجهاد، والصدقة، وقد أنزِلت عليك هذه الآية، ولانطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا! بل قولوا: سمعنا وأطعنا! غفرانك ربَّنا وإليك المصير! فلما اقترأها القوم، وذلّت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى فى أثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله عزوجل، فأنزل الله تعالى: ﴿لاَيُكَلِّفُ اللّٰهُ﴾ الآية أخرجه الإمام مسلم اهـ (لباب التأويل للخازن ١: ٤٤٧)

(٣) أى الخواطر الفاسدة والوساوس الباطلة التى تَرِدُ وتَهْجُمُ على القلب، ولايتمكن الإنسان من دفعها.

فإن التكليف لايكون إلا فيما هو فى وُسْع الإنسان[١].

ومن آل عمران:

٧ ـ قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٢] قيل: إنه منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٣] وقيل: لا، بل هو محكم.

وليس فيها[٤] آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

قلت: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فى الشرك والكفر وما يرجع إلى الاعتقاد، ﴿وَمَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فى الأعمال: من لم يستطع الوضوء يتيمم، ومن لم يستطع القيام يصلى قاعداً؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٥]

ومن النساء

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الآية[٦] منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[٧]

---

(١) وليس فى وسع الإنسان دفع الخواطر الفاسدة، فكيف يؤاخذ بها! قال النبى صلى الله عليه وسلم: إن الله تجاوز عن أمتى ماوَسْوَسَتْ به صدورُها، مالم تعمل به أو تتكلم (رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة)

(٢) رقم الآية ١٠٢ (٣) سورة التغابن ١٦

(٤) أى فى سورة آل عمران .

(٥) أى : مخلصون نفوسكم لله عزوجل لاتجعلون فيها شركة لسواه أصلا، وذكر بعض المحققين: أن " الإسلام " فى مثل هذا الموضع لايراد به الأعمال، بل الإيمان القلبى لأن الأعمال حال الموت ممالاتكاد تتأتى اهـ (روح المعانى ٤:١٨)

وحكى الزركشى فى البرهان (٢:٥٢) هذا التوجيه عن الشيخ العارف أبى الحسن الشاذلى، فإنه جمع بينهما، فحمل الآية الأولى على التوحيد، والثانية على الأعمال، والمقام يقتضى ذلك: لأنه قال بعد الأولى: ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون اهـ.

(٦) رقم الآية ٣٣ جلالين ١/٣١٣

(٧) سورة الأنفال ٧٥ وسورة الأحزاب ٦

قلت: ظاهر الآية[١] أن الميراث للموالى[٢] والبر والصلة لمولى الموالاة[٣] فلا نسخ[٤].

٩ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية[٥] قيل منسوخة[٦] وقيل: لا[٧] ولكن تهاون الناس فى العمل بها.

قلت: قال ابن عباس: هى محكمة، والأمر للاستحباب[٨] وهذا أظهر.

(١) أى: ظاهر آية سورة النسآء.

(٢) جمع المولى بمعنى القريب أى الميراث للأقرباء.

(٣) إذا أسلم الرجل على يد آخر ووالاه أى تعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه، فهو مولى الموالاة. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أى: من البر والصلة والنصر والنصيحة والوصية.

(٣) قلت: الظاهر من النصيب هو الميراث؛ ولكن لانسخ فى جميع الأحوال، بل فى بعض الأحوال أى الآية منسوخة عند وجود الأقرباء لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ﴾ الآية، وأما فى صورة عدم الأقرباء فالحكم باق عند أبى حنيفة رحمه الله، فإنه قال: إذا أسلم الرجل على يد رجل، وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه، صح وعليه عقله، وله إرثه إن لم يكن له وارث من ذوى الفروض والعصبات وذوى الأرحام.

(٥) رقم الآية ٨ وحاصل الآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أى قسمة التركة بين أربابها ﴿أُوْلُوا الْقُرْبَى﴾ ممن لايرث ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ﴾ أى أعطوهم شيئًا من المال، تطييبا لقلوبهم، وتصدقا عليهم ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾.

(٦) أى: بآية المواريث، يعنى كان هذا الحكم قبل نزول آيات المواريث، فلما نزلت وجُعلت المال لأهله، صارت هذه الآية منسوخة.

(٧) والأمر للوجوب.

(٨) قال ابن عباس: هى محكمة وليست بمنسوخة اه رواه عكرمة عنه (الصحيح للبخارى ص ٦٥٨) وروى سعيد بن جبير عنه، أنه قال: إن ناسا يزعمون أن هذا الآية نُسخت، ولا، والله! مانسخت، ولكنها مماتهاون الناس الخ (الصحيح للبخارى ص ٣٨٦) فعلم أن كون الأمر للاستحباب ليس من قول ابن عباس بل هو من (=)

١٠- قوله تعالى: ﴿ والّٰتِى يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ﴾ الآية[١] منسوخة بآية النور[٢]
قلت: لانسخ فى ذلك، بل هو ممتد إلى الغاية، فلما جاء ت الغاية بين النبى صلى الله عليه وسلم أن السبيل الموعو د كذا و كذا، فلانسخ[٣].

(=) اختيار المصنف، وما اختاره المصنف هو الأصح، الذى عليه العمل اليوم، قال الخازن: واحتجوا لهذا القول بأنه لو كان لهٰولاء حق معين، لبينه الله تعالى، كما بين سائر الحقوق، فحيث لم يبين علمنا أن ذلك غير واجب اھ (لباب التأويل للخازن)

(١) سورة النساء ١٥ والآية بتمامها: ﴿وَالّٰتِىْ يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوْا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوْا فَأَمْسِكُوْهُنَّ فِىْ الْبُيُوْتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً﴾

(٢) أى بآية الْجَلْدِ، وهى قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِىْ فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية (سورة النور ٢)

(٣) قال الخطابى: لم يحصل النسخ فى هذه الآية، لأن قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوْهُنَّ فِىْ الْبُيُوْتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰهُنَّ الْمَوْتُ، أَوْيَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً﴾ يدل على إمساكهن فى البيوت ممدودًا إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلا؛ وأن ذلك السبيل كان مجملاً، فلما قال صلى الله عليه وسلم " خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلا الحديث صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية المجملة لاناسخا لها اھ (معالم السنن)

والحديث رواه مسلم، مشكوة كتاب الحدود الفصل الأول، رقم الحديث ٣٥٥٨.

ولكن المصنف لم يفصل الأمر، هل يعمل بآية النساء؟ وكيف العمل بها؟ فأقول: يجب العمل بآية النساء حيث لايستطيع المسلمون بإجراء الحدود لعدم شوكتهم، والدليل على ذلك أن آية النساء أنزلت أولاً حينما كان الإسلام غريبا، فلما حصل للإسلام شوكة أنزلت آيات الحدود، فما قال الزمخشرى معارض للحديث المذكور، فإنه قال: من الجائز ان لاتكون الآية منسوخة، بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة، ويوصى بإمساكهن فى البيوت، بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ماجرى عليهن بسبب الخروج من البيوت، والتعرض للرجال، ويكون السبيل على هذا: النكاح المغنى عن السفاح (روح المعانى ٤: ٢٣٥)

Well
fathers
for their
under [illegible]

ومن المائدة

١١- قوله تعالى: ﴿وَلاَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية [١] منسوخة بإباحة القتال فيه [٢].

قلت: لانجد فى القرآن ناسخا له، ولافى السنة الصحيحة؛ ولكن المعنى: أن القتالَ المحرَّم يكون فى الشهر الحرام أشدُّ تغليظا، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطبة:" إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا" [٣]

١٢- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ، اَوْ أَعْرِضْ عَنهُمْ﴾ الآية [٤] منسوخة بقوله: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ ﴾ [٥]

---

(١) رقم الآية ٢ قال تعالى: ﴿يٰاَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَتُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللّٰهِ وَلاَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أى لاتحلوه بأن تقاتلوا فيه أعداء كم من المشركين.

(٢) أى بقوله تعالى: ﴿اُقْتُلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوْهُمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوْكُمْ كَافَّةً﴾

(٣) روى الإمام البخارى فى صحيحه (١: ٢٣٤) وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر، فقال: يٰأيها الناس! أى يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، فقال: أى بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأى شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا، فأعادها مرارا ثم رفع رأسه، فقال: اللهم هل بلغت؟! اللهم هل بَلَّغْتُ؟! الحديث.

(٤) سورة المائدة ٤٢ وتمام الآية: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَّضُرُّوْكَ شَيْئًا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ﴾

(٥) سورة المائده ٤٩ وتمام الآية: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ اَهْوَاءَ هُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَّفْتِنُوْكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللّٰه إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيْبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوْبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ النَّاسِ لَفٰسِقُوْنَ﴾

قلت: معناه:[1] إن اخترتَ الحُكمَ فاحكُمْ بِمَا أنزَلَ اللّٰهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أهْوَائَهُمْ؛ فالحاصل:[2] أنه لنا أن نترك أهل الذمة أن يرفعوا القضية إلى زعمائهم، فيحكموا بما عندهم[3]، ولنا أن نحكم بما أنزل الله علينا[4].

١٣- قوله تعالى: ﴿أوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[5] منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوْا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾[6].

قلت: قال أحمد بظاهر الآية[7] ومعناها عند غيره: أو آخران من غير أقاربكم، فيكونانِ من سائر المسلمين[8].

---

(١) أى: معنى الآية الثانية.

(٢) أى حاصل الآيتين والضمير فى " أنه " للشأن.

(٣) أى: وفقا لدينهم.

(٤) أى: نحن مخيرون بين أن نحكم بينهم بالحق أو نعرض عنهم ونتركهم ليرفعوا القضية إلى زعمائهم.

(٥) سورة المائدة ١٠٦ والآية بتمامها: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِيْنَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ، أوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةُ الْمَوْتِ؛ تَحْبِسُوْنَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلٰوةِ فَيُقْسِمٰنِ بِاللّٰهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَانَشْتَرِىْ بِهٖ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبىٰ ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّٰهِ ، إِنَّاإِذًا لَّمِنَ الْآثِمِيْنَ ﴾

(٦) سورة الطلاق٢ والآية بتمامها: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوْهُنَّ بِمَعْرُوْفٍ أوْ فَارِقُوْهُنَّ بِمَعْرُوْفٍ ، وَأَشْهِدُوْا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ ، وَأَقِيْمُوْا الشَّهَادَةَ لِلّٰهِ، ذٰلِكُمْ يُوْعَظُ بِهٖ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

(٧) قال أحمد: إذا لم يجد مسلمَيْن يُشهدان على وصيته، وهو فى أرض غربة، فليشهد كافرين أو ذميين، أو من أى دين كانا، لأن هذا موضع ضرورة.

(٨) أى: معنى الآية عند غير أحمد: غير الأقربين من الأجانب، لأنهم قالوا: لاتجوز شهادة كافر فى شيئ من الأحكام على المسلم.

وقال الآلوسى واختار الأول(أى ماذهب إليه أحمد رحمه الله) جماعة (=)

ومن الأنفال:

١٤- قوله تعالى:﴿إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ﴾الآية(١) منسوخة بالآية بعدها (٢).

قلت: هي كما قال منسوخة(٣).

ومن البراء ة

١٥- قوله تعالى:﴿إِنْفِرُوْا خِفَافًاوَثِقَالاً ﴾(٤) منسوخة بآيات العذر، وهي قوله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمىٰ حَرَجٌ﴾ الآية(٥)وقوله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾

(⟸) من المتأخرين حتى قال الجصاص: إن التفسير الثاني لاوجه له لأن الخطاب توجه أولا إلى أهل الإيمان فالمغايرة تعتبر فيه ولم يجرللقرابة ذكر، ويدل لذلك أيضا سبب النزول اهـ(روح المعاني ٧:٤٨)

(١)سورة الأنفال ٦٥ وتمام الآية :﴿ يٰاَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَّغْلِبُوْا أَلْفًا مِّنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُوْنَ﴾

(٢)وهي قوله تعالى :﴿اَلْئٰنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ ،وَعَلِمَ أَنَّ فِيْكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَّغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوْٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّٰهِ،وَ اللّٰهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾(سورة الأنفال ٦٦)

(٣)قلت: كان المطلوب من المسلمين في أول الأمر أن يقفوا في وجه عدوهم، وهم أكثرمنهم عشر مرات، ثم كان التيسير والمسامحة، فطلب منهم أن يقاوموهم في وجوههم، وهم ضعفهم، فإن عاد حال الإسلام ــ لاقدر الله له ذلك ــ إلى الغربة كما كان في أول الأمر يكون المطلوب من المسلمين حين ذاك أن يقفوا في وجه عدوهم ، وهم أكثر منهم عشر مرات، فالحاصل أن النسخ ليس بمتعين.

(٤) سورة البراء ة ٤١ وتمام الآية:﴿ وَجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾

(٥)سورة الفتح ١٧

الآيتين ،[1] وبقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُوْنَ لِيَنفِرُوْا كَافَّةً﴾[2]

قلت: خفافا أى مع أقل مايَتَأتّى به الجهادُ من مركوب وعبدللخدمة ، ونفقة يقنع بها؛ وثقالاً أى مع الْخَدَم الكثيرين، والمراكب الكثيرة، فلا نسخ؛ أو نقول: ليس النسخ متعينا[3]

ومن النور

١٦- قوله تعالى: ﴿الزَّانِىْ لَايَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً﴾ الآية[4] منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوْا الأَيَامىٰ مِنكُمْ﴾[5].

قلت: قال أحمد بظاهر الآية؛[6] ومعناها عند غيره: أن مرتكب الكبيرة[7] ليس بكفء إلا للزانية؛ أو لايستحب له[8] اختيار الزانية؛ وقوله: ﴿وَحُرِّمَ

---

(١) سورة التوبة ٩١ و ٩٢ (٢) سورة التوبة ١٢٢

(٣) وحاصل التوجيه الأول: أن الآية ليس فيها حكم عام للمعذورين وغيرهم، بل فيه حكم للقادرين بقدرة ممكنة أو ميسرة فلانسخ بآيات العذر.

وحاصل التوجيه الثانى: أن النسخ ليس بمتعين، بل حينما يكون هجوم العدو شديدًا، وكان النفير عاما، فعلى كل واحد أن ينفر على أى حال كان من يسر أو عسر، حاصلَين بأى سبب كان، من الصحة والمرض أو الغنى والفقر، أو قلة العيال وكثرتهم، أو الكبر والحداثة، أو السمن والهزال، أو غير ذلك مما ينتظم فى مساعدة الأسباب وعدمها، بعد الإمكان والقدرة فى الجملة.

(٤) سورة النور ٣ والآية بتمامها: ﴿الزَّانِىْ لَايَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَايَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ﴾

(٥) سورة النور ٣٢ والآية بتمامها: ﴿وَأَنْكِحُوْا الأَيَامىٰ مِنْكُمْ وَالصّٰلِحِيْنَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَّكُوْنُوْا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ﴾

(٦) قال أحمد: لايجوز نكاح الزانى ولاالزانية حتى يتوبا، فإذا تابا فلا يسميان زانيين، وعند الأئمة الثلاثة: نكاح الزانى والزانية صحيح (تفسير المظهرى ٦ : ٤٤٢)

(٧) يعنى الوقاح والزنا. (٨) أى للمسلم العفيف.

ذٰلِكَ﴾إشارة إلى الزنا والشرك، فلا نسخ، وأما قوله:﴿وَأَنْكِحُوْا الْأَيَامىٰ﴾ فعامٌّ لاينسخ الخاص.

١٧- قوله تعالى:﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِيْنَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾الآية[١] قيل: منسوخة، وقيل: لا ،ولكن تهاون الناس فى العمل بها[٢].

قلت:مذهب ابن عباس رضى الله عنه : أنها ليست بمنسوخة؛ وهذا أوجه وأولى بالاعتماد[٣].

ومن الأحزاب

١٨- قوله تعالى:﴿ لَايَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾الآية[٤]منسوخة بقوله تعالى:

---

(١)سورة النور٥٨ والآية بتمامها:﴿يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِيْنَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِيْنَ لَمْ يَبْلُغُوْا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلٰثَ مَرّٰاتٍ: مِنْ قَبْلِ صَلٰوةِ الْفَجْرِ، وَحِيْنَ تَضَعُوْنَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيْرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلٰوةِ الْعِشَاءِ ،ثَلٰثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُوْنَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الآيٰتِ وَاللّٰه عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ﴾

(٢)قال سعيد بن جبير فى هذه الآية:إن ناسا يقولون: نُسخت؛ والله! مانُسخت، ولكنها مماتهاون به الناس (المظهرى ٦: ٥٥٧)

(٣)قال ابن عباس: لم يكن للقوم ستور ولاحجاب، وكان الولائد والخدم، يدخلون، فربما يرون مالا يحبون، فأمروا بالاستئذان، ثم بسط الله الرزق،واتخذوا الستور، فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان.

وقال العلامة القاضى ثناء الله الفانى فتى فى تفسيره: قلت: والصحيح أنها غير منسوخة،لكن الحكم بالاستئذان معلول باختلال التستر فى تلك الأوقات كمايدل عليه قوله تعالى:﴿ثَلٰثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ وهو الفارق بين تلك الأوقات وغيرها،وعدمُ الحكم عند عدم العلة لايكون نسخا فعلم أنه إذا كان من شأن الناس عدم اختلال التستر فى تلك الأوقات لايستلزمهم الاستئذان والله أعلم (المظهرى ٦: ٥٥٧)

(٤)سورة الأحزاب ٥٢ وتمام الآية :﴿ لَايَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ،وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلاَّ مَامَلَكَتْ يَمِيْنُكَ ، وَكَانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيْبًا﴾

﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية[1].

قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدما فى التلاوة، وهو الأظهر عندى[2].

ومن المجادلة

١٩ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُوْلَ فَقَدِّمُوْا﴾ الآية[3] منسوخة بالآية بعدها[4]

قلت: هذا كما قال[5].

ومن الممتحنة

٢٠- قوله تعالى: ﴿فَآتُوا الَّذِيْنَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠ وتمام الآية: ﴿يٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الّٰتِىْ آتَيْتَ أُجُوْرَهُنَّ وَمَامَلَكَتْ يَمِيْنُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَيْكَ،وَبَنٰتِ عَمِّكَ وَبَنٰتِ عَمّٰتِكَ وَبَنٰتِ خَالِكَ وَبَنٰتِ خٰلٰتِكَ الّٰتِىْ هَاجَرْنَ مَعَكَ، وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَنْ يَّسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىْ أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ كَيْلَا يَكُوْنَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ؛ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا﴾

(٢) أقول: لانسخ، فقد قال ابن عباس ومجاهد: لايحل لك النساء من بعد ما بينت لك من هذه الأصناف: بنات عمك ألخ فأحل له من هذه الأصناف ماشاء وتفصيل الكلام طويل ،فراجع بيان القرآن للعلامة محمد أشرف على التهانوى(٩:٥٨- ٦٢)

(٣) سورة المجادلة ١٢ والآية بتمامها: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُوْلَ فَقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰكُمْ صَدَقَةً، ذٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ؛ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوْا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾

(٤) وهى قوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰكُمْ صَدَقٰتٍ؛ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوْا وَتَابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيْمُوْا الصَّلٰوةَ وَآتُوْا الزَّكَاةَ وَأَطِيْعُوْا اللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ، وَاللّٰهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ (المجادلة ١٣)

(٥) قلت: كان تقديم الصدقة واجبا بمقتضى أولى الآيتين، ثم خير بين تقديم الصدقة وعدمه فصار الأمر للندب ، ففيه تغيير للوصف فقط فلانسخ.

أَنفَقُوْا﴾[1] قيل: منسوخ بآية السيف[2]، وقيل :بآية الغنيمة[3] وقيل : محكم. قلت: الأظهر أنها محكمة، ولكن الحكم في المهادنة[4] وعند قوة الكفار.

ومن المزمل:

٢١ـ قوله تعالى﴿ قُمِ الَّيْلَ إِلاَّ قَلِيْلاً ﴾[5] منسوخ باخر السورة ،[6] ثم نُسخ

---

(١)سورة الممتحنة ١١ وتمام الآية : ﴿وإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوْا الَّذِيْنَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَاأَنْفَقُوْا، واتَّقُوْا اللَّهَ الَّذِىْ أَنْتُم بِه مُؤْمِنُوْنَ﴾

(٢)يعنى بآية السيف قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَما يُقَاتِلُوْنَكُمْ كَافَّة﴾ (التوبة ٣٦)

وبيان ذلك: أن الحكم الأصلى كان:﴿وَاسْئَلُوْا مَاأَنْفَقْتُمْ ، وَلْيَسْئَلُوْا مَا أَنفَقُوْا﴾ أى واسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم، ويسألكم الكفار مهور نسائهم المهاجرات إليكم، فإن فاتكم شيئ من أزواجكم إلى الكفار، ولم يؤدوا مهور نسائكم،فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولاتؤتوه زوجها الكافر، ليكون قصاصا، فلما نزلت آية القتال نسخ ذلك الحكم ، بل نأخذ منهم مهور نسائنا بقوة السيف.

(٣) يعنى بآية الغنيمة قوله تعالى:﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُوْلِ وَلِذِىْ الْقُرْبىٰ وَالْيَتٰمٰى والْمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ﴾الآية(الأنفال ٤١)

وبيان ذلك: أن الآية الأولى تُفيد أن زوجات المسلمين اللاحقات بالكفار يجب أن يدفع إلى أزواجهن مثل مهورهن، من الغنائم التى يغنمها المسلمون، ويعاقبون العدو بأخذها، والآية الثانية تفيد أن الغنائم تخمس أخماسا، ثم تصرف كمارسم الشارع.

(٤)المهادنة: المصالحة، هَادَنَه مهادنة: صالحه ووَادَعَه. (٥)سورة المزمل ٢

(٦) أى بقوله تعالى:﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوْه فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُ وْا مَاتَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾(المزمل ٢٠)

وبيان ذلك:أن الآية الأولى أفادت وجوب قيامه صلى الله عليه وسلم من الليل:نصفه، أوأنقص منه قليلاً أو أزيد عليه، والآية الثانية أفادت أن الله تاب (=)

الآخِر بالصلوات الخمس.

قلت: دعوى النسخ بالصلوات الخمس غير مُتَّجِهَةٍ[1] بل الحق: أن أولَ السورة فى تـأكيـد النُّدب إلى قيـام الليـل، وآخِرَهـا فى نسخ التأكيد إلى مجرد الندب.

قال السُّيوطى موافقا لابن العربى: فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة، على خلاف فى بعضها؛ ولايصح دعوى النسخ فى غيرها؛ والأصح فى آيَتَيِ الاستئذان والقسمة الإحكامُ وعدمُ النسخ،[2] فصارت تسع عشرة آية؛ وعلى ما حرَّرنا لايتعين النسخ إلا فى خمس آيات[3].

الفصل الثالث

فى

معرفة أسباب النزول[4]

ومن المواضع الصَّعبة أيضًا معرفة أسباب النزول؛ ووجهُ الصُّعوبة أيضًا

(=) على النبى وأصحابه فى هذا، بأن رخص لهم فى ترك هذا القيام المقدور ورفع عنهم كل تبعة فى ذلك.

(١) غير متجهة: غير موجَّهٍ أى ليس له وجه الصحة.

(٢) قوله: والأصح مبتدأ وقوله: الإحكام الخ خبر، وآية القسمة هى الآية التاسعة، وآية الاستئذان هى الآيةالسابعة عشر.

(٣)وهى: الآية الأولى والخامسة، والرابعة عشر، والثامنة عشر والتاسعة عشر.

(٤)لمعرفة أسباب النزول فوائد:

منها: الوقوف على المعنى، أو إزالة الإشكال، قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

ومنها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ولهذا الغرض كانت الآيات تُنْزَل بعد الأسباب والواقعات، وظهور الحوادث والاتفاقات، وماإلى (=)

اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين(١).

═) ذلك من الفوائد راجع لمزيد البيان (البرهان للزركشی ١: ٢٢ من النوع الأول فی معرفة أسباب النزول)

وقد اعتنى المفسرون بذكر أسباب النزول فی كتبهم، وأفردوا فيه تصانيف فمن أشهرها: تصنيف الواحدی وقد طبع بمصر سنة ١٣١٥هـ وللإمام جلال الدين السيوطی كتاب سمّاه: " لباب النقول فی أسباب النزول" وهو مطبوع بهامش تفسير الجلالين.

(١)قال الإمام ولی الله فی التفهيمات (٢: ١٧٣) للمفسرين فيما بينهم اختلاف كثير، ولما فَتَشْنا أقاويلهم، وحذقنا النظر فيها، وجدناها على صنوف:

منها:شرح غريب القرآن؛ واختلافهم فی ذلك يرجع إلى تتبع لغة العرب واستعمالاتهم، فكل رجل فسر الكلمة بمعنى ثبت عنده من قبل محاوراتهم، ودلالة السياق والسباق.

ومنها: القراءة واختلافهم فيها قبل أن يجمع القرآن فی زمن عثمان رضی الله عنه يرجع إلى جواز الأحرف السبعة، والمختارأن الأحرف السبعة تعبيرات عن معنى واحد بجمل متقاربة، مثل:قُلْ يٰأَيُّهَا الْكَافِرُوْنَ؛ وَقُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا؛وَقُلْ لِلْكَافِرِيْنَ؛ ومثل: قل هو الله أحد، وأنا الأحد الصمد، الذی لم ألد، وبعد أن جُمع القرآن واتفق على إسقاط باقی الأحرف،صونا للدين عن الاختلاف الفاحش المخرج عن الملة،يرجع إلى اختلاف التلفظ تفخيما،وإمالة وروما وإشماما، أوإلى اختلاف التلفظ بما كتب فی المصحف العثمانی.

ومنها:اختلافهم فی شأن النزول، والحق عندی: أن ذلك بالاجتهاد والاستنباط، وذلك كما أنّا لما رأينا اليهود قديما وحديثا ينكرون على النسخ، والآية مسوقة فی تضاعيف قصصهم، جزمنا بأنها نزلت دفعا لشرهم، وكبحا للمسلمين عن إصغاء ما يلقون فی أسماعهم من الشكوك، وكل من استظهر إليه أمكن له أن يوجه الآية بتوجيه ويذكر لها شأنا بعد ملاحظة السياق والسباق،بل عسى أن يكون رأی المتأخرين الذين نشأوا بعد أن يتأسس الأصول والسير والحديث أوكدَ وأوثقَ من رأی المتقدمين الذين كانوا من قبل أن يتأسس العلوم والصناعات اهـ.

معنى: " نَزَلَتْ فى كذا" عند المتقدمين

والذى يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم: أنهم كانوا لايستعملون:" نزلتْ فى كذا" لمجرد بيان الحادث الذى وقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم، وكان سببا لنزول الآية ؛بل:

●ربما يذكرون بعضَ ماصدقتْ عليه الآية، مماحدث فى زمنه صلى الله عليه وسلم، أوحدث بعده صلى الله عليه وسلم،فيقولون:"نَزَلَتْ فِىْ كَذَا"؛ ولايلزم فى هذه الصورة انطباق جميع القيود المذكورة فى الآية، بل يكفى انطباق أصل الحكم فحسب(١).

---

(١)قال السيوطى رحمه الله تعالى: معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا، وربما لم يجزم بعضهم، فقال: أحسب هذه الآية نزلت فى كذا وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: قولهم ـــ يعنى الصحابة ـــ: نزلت الآية فى كذا يُراد به تارة أنها سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عنى بهذه الآية كذا.

وقال الزركشى فى البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع اهـ (لباب النقول ص ٣و٤)

وخذلك مثالاً: قال عامر بن ربيعة رضى الله عنه: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر،فى ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت:﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾رواه الترمذى فى سننه فى أبواب التفسير، ورُوى أيضا عن ابن عمر، قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته تطوعًا حيثما توجهت به، وهو جاءٍ من مكة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقال ابن عمر: فى هذا أنزلت هذه الآية (السنن للترمذى ٢: ١٢٠)

وهذا مع أن الآية فى تضاعيف قصص بنى إسرائيل جوابًا عن إلقاء هم الشكوك فى قلوب المؤمنين فى أمر تحويل القبلة.

•وقد يُبيِّنون سؤالاً سُئل عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أو حادثةً حدثت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، واستنبط صلى الله عليه وسلم حكمَها من الآية، وتلاها عليهم فى ذلك الباب، فيقولون: " نزلت فى كذا" ؛ وربما يقولون فى هذه الصُّوَرِ "فأنزل الله تعالى قوله كذا" أو " فنزِّلتْ".

وكأنَّه إشارة إلى أن استنباطه صلى الله عليه وسلم ذلك الحكمَ من الآية،وإلقاؤَها فى تلك الساعة فى خاطره المبارك أيضًا نوعٌ من الوحى والنَّفْث فى الرُّوْع ،فلذلك يمكن أن يقال:" فأُنزلتْ" ؛ولو عبَّر أحد عن ذلك بتكرار نزول الآية لكان له مساغ أيضاً[١].

روايات المحدثين التى لاعَلاقة لها بأسباب النزول:

ويذكر المحدثون تحت آيات القرآن الكريم كثيرًا من الأشياء، ليست هى فى الحقيقة من قسم سبب النزول، مثلُ: اسْتشهادِ الصحابة رضى الله عنهم فى مناظراتهم[٢] بآية، أو تمثُّلِهم بها[٣]،أوتلاوتِه صلى الله عليه وسلم آيةً للاستشهاد فى كلامه الشريف،أو روايةِ حديث يوافق الآية فى أصل الغرض ، أو تعيينِ موضع النزول ، أوتعيين أسماء المذكورين فى الآية بطريق الإبهام، أو بيانِ طريق التلفظ بكلمة قرآنية، أو فضل سُور وآيات من القرآن ، أو بيان طريقة امتثاله صلى الله عليه وسلم بأمر من أوامر القرآن الكريم ؛ فليس شيٌ من هذا فى الحقيقة من أسباب النزول، وليس من شروط المفسر الإحاطة بها.

شرط المفسر فى باب أسباب النزول:

إنما شرط المفسر معرفة أمرين:

---

(١)وراجع للتفصيل الإتقان من النوع التاسع فإنه قد أبدع وأسهب .

(٢)المناظرة: المباحثة العلمية.

(٣) تمثل بالشيٌ: ضربه مثلاً.

الأول : معرفة تلك القِصص التى تعرِّض[1] الآيات لها؛ فإنه لايتيسرفهم إيماء الآيات إلابمعرفتها.

والثاني: معرفة تلك القصة التى تخصِّص العامَّ، أو نحوِ ذلك من وجوه صرفِ الكلام عن الظاهر؛ فإنه لايتأتى فهمُ المقصود من الآيات بدونها.

قِصَص الأنبياء من روايات أهل الكتاب

ومما ينبغى أن يُعلم هنا: أن قصص الأنبياء السابقين لم تُذكر فى الأحاديث إلا قليلاً؛ فالقِصص الطويلةالعريضة التى يتجشم[2] المفسرون روايتَها، كلُّها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى[3]، وقد جاء فى صحيح البخارى مرفوعًا: "لاتُصدِّقوا أهل الكتاب ولاتكذِّبوهم"[4]

---

(١) عرَّض له بالقول: قال قولا وهو يعنيه ويريده، ولكن لم يصرِّح به ولم يبينه.

(٢) تَجَشَّم الأمر: تكلَّفه على مشقة.

(٣) كقصة موسى والخضر عليهما السلام المروية فى صحيح البخارى.

(٤) روى الإمام البخارى فى كتاب التفسير، فى باب قول الله تعالى: ﴿قُولُوا: آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ (ص ٦٤٤ و ١٠٩٣) عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل.

قلت: لكن يعارضه ماجاء فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: بَلِّغوا عنى ولو آية، وحَدِّثُوا عن بنى إسرائيل ولاحرج ومن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار أخرجه فى كتاب العلم ص ٢١ وفى كتاب الأنبياء ص ٤٩١

فقال ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسيره (١: ٤) الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لاللاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ماعلمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا ممايخالفه. (=)

معنى آخر لقولهم: "نزلت فى كذا"

ولْيُعْلم أيضًا أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كانوا يذكرون قِصَصا جزئية لبيان مذاهب المشركين واليهود ، وعاداتهم الجاهلية، لتتضح بها عقائدهم وتقاليدهم ويقولون:" نزلت الآية فى كذا" ويريدون بذلك: أنها نزلت فى مثل هذه سواء كانت تلك بعينها، أو ماشابَهَهَا، أوماقاربها، ويقصدون إظهارتلك الصورة، لاخصوصَ القصص ، بل يذكرونها لأجل أن هذه صورة صادقة لتلك الأمور الكلية؛ ولهذا تختلف أقوالهم فى كثير من المواضع، وكل يَجُرُّ الكلام إلى جانبه، وقصدُهم فى الحقيقة واحد؛ وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضى الله عنه حيث قال:" لايكون الرجل فقيها حتى

(=) والثالث: ماهو مسكوت عنه، لامن هذا القبيل، ولامن هذا القبيل، فلا نؤمن به ولانكذبه، ويجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لافائدة فيه تعود إلى إمر دينى اهـ.

وقال شيخ مشايخنا العلامة المحدث الكبير إمام العصر محمد أنور شاه الكشميرى: والحال فيه مختلف، فإن مايُنقل عنهم إن صح ووافق شرعَنا نصدقه ونعمل به أيضا؛ وإن صح ولكن لم يوافقه شرعُنا نصدق به، ولانعمل به ونحمله على النسخ أو التحريف؛ وإن لم يصح، أو لم ينكشف أصله فإذن لانصدقه ولانكذبه، ونؤمن إجمالاً بما هوالحق عند الله العظيم اهـ(فيض البارى ٤ : ٤٨)

وقال الإمام المصنف فى حجة الله البالغة (١: ١١٤): أقول: الرواية عن أهل الكتاب تجوز فيما سبيله سبيل الاعتبار، وحيث يكون الأمن عن الاختلاط فى شرائع الدين، ولاتجوز فيما سوى ذلك، ومما ينبغى أن يعلم: أن غالب الإسرائيليات المدسوسة فى كتب التفسير والأخبار، منقولة عن أحبار أهل الكتاب لاينبغى أن يُبنى عليها حكم واعتقاد، فتدبر.

وسيتكلم الإمام المصنف على هذا فى الباب الرابع فى الفصل الأول .

يُحمل الآيةَ الواحدة على محامل متعددة"[1]

صورةُ قصة ولا قصةَ لها

وعلى هذا الأسلوب كثيرًا ما يُذكر فى القرآن العظيم صورتان: صورةُ سعيدٍ، ويُذكر فيها بعض أوصاف السعادة؛ وصورةُ شَقِيٍّ، ويُذكر فيها بعض أوصاف الشقاوة؛ ويكون الغرض من ذلك: بيان أحكام تلك الأوصاف والأعمال،لاالتعريض بشخص معين،كما قال سبحانه وتعالى:﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[2]ثم ذكر صورتين: صورةَ سعيد وصورةَ شقي؛ وكذلك قوله تعالى:﴿وَإِذَاقِيلَ لَهُمْ: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوْا:أَسَاطِيْرُ الأَوَّلِيْنَ﴾[3]،وقوله تعالى:﴿وَقِيْلَ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوْا : خَيْرًا ﴾[4].

وعلى مثل هذا يُحمل قوله تعالى:﴿وَضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾[5]وقوله تعالى:﴿هُوَالَّذِىْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَّاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيهَا، فَلَمَا تَغشَّاهَا﴾الآية[6] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ، الَّذِيْنَ هُم

---

(١)قال الزركشى فى البرهان (١٠٢:١) وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تُنصرف إلى عشرين وجهًا أو أكثر أو أقل، ولايوجد ذلك فى كلام البشر، وذكر مقاتل فى صدر كتابه حديثا مرفوعًا:"لايكون الرجل فقيها كل الفقه، حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة".

وقال السيوطى : أخرجه ابن سعد وغيره عن أبى الدرداء موقوفا، ولفظه:" لايفقه الرجل كل الفقه " وقد فسره بعضهم بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معانى متعددة، فيحمله عليها، إذا كانت غير متضادة، ولايقتصر به على معنى واحد اه

(٢)سورة الأحقاف ١٥ (٣) سورة النحل ٢٤

(٤) سورة النحل ٣٠ (٥) سورة النحل ١١٢

(٦) سورة الأعراف ١٨٩فلا تصغ إلى ماذكره المفسرون من قصة آدم عليه السلام، وتسميته ابنه بعبد الحارث فى تفسير هذه الآية .

فِيْ صَلٰوتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَلاَتُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِيْنٍ﴾[٢].

ولايلزم فى هذه الصور أن تتوفَّر تلك الخصوصياتُ بعينها فى شخص، كمالا يلزم فى قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِيْ كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[٣]أن توجد حبَّة بهذه الصفة؛ إنما المقصود: تصوير زيادة الأجر لاغير[٤]؛ فإن وُجدت صورةٌ توافق ذلك فى أكثر الخصوصيات، أو فى كلها، كان ذلك من قبيل: " لزوم مالم يَلْتزم" [٥].

قد يَفْرُضون السؤال والجواب فى التفسير:

وفى بعض الأحيان يُرَدُّ فى القرآن على شبهة ظاهرة الورود، أو يجاب عن سؤال مَطْوِيٍّ مفهومٍ بسهولة ، لقصد إيضاح الكلام السابق، لا لأجل أن أحدًا وجَّه هذا السؤالَ بعينه، أوأورد هذه الشبهة بعينها؛ وكثيرا ما يفترض[٦] الصحابة رضى الله عنهم فى تقرير ذلك المقام سؤالاً ويشرحون الكلام فى صورة السؤال والجواب؛ ولكن لونظرنا بإمعان النظر فالكل كلام واحد منسَّق[٧]، لايحتمل نزول بعضٍ عقيب بعض، وجملةٌواحدة منتظِمة[٨]لاتُفَكُّ

---

(١)سورة المؤمنون ١ و٢ (٢) سورة القلم ١٠ (٣) سورة البقرة ٢٦١

(٤)أى فى التمثيل تصوير للأضعاف، ويدل عليه ماروى عن غيرواحد من الصحابة مرفوعا: من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته، فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزابنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك، فله بكل درهم يوم القيٰمة سبعمائة ألف درهم؛ ثم تلاهذه الآية.

(٥) التزم الشيْ : أوجبه على نفسه ولزِم الشيُ: ثبت ودام فمعنى قوله: " لزوم مالم يَلْتزم":ثبت وتحقق مالم يعتنق به.

(٦)افترض الباحثُ: اتَّخذ فرضًا لِيصل إلى حَلِّ مسئلة.

(٧)مُنَسَّق: مُنَظَّم، نَسَقَ الشيئَ: نظمه، يقال: نَسَقَ الدُّرَّ،ونَسَقَ الكلامَ: عطَف بعضَه على بعض.

(٨) انتظم الشيُ : تألَّف واتَّسق.

قيودها على أصل من الأصول[١].

قد يريدون التقدم والتأخر الرُّتْبى لا الزمانى

وقد يذكر الصحابة رضى الله عنهم التقدُّم والتأخر، ويريدون بذلك: التقدم والتأخر الرُّتبى، لا الزمانى، كما قال ابن عمر رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[٢]: "إنما كان هذا قبل أن تُنْزَل الزكوةُ، فلما أُنزلت جعلها الله طُهراً للأموال"[٣]؛ ومن المعلوم أن سورة البراءة آخرسورة نزلت، وهذه الآية فى تضاعيف[٤] الْقِصَصِ المتأخرة، وقد كانت فرضية الزكاة متقدمة عليها بأعوام؛ ولكن مراد ابن عمر رضى الله عنه: تقدم الإجمال على التفصيل بالرتبة.[٥]

شرط المفسر أمران:

وبالجملة: فالذى يشترط على المفسر فى هذا الباب لايزيد على أمرين:

الأول: معرفة قصص الغزوات وغيرها، مماوقع فى الآيات الإيماءُ إلى

(١)خذ مثالاً: روى البخارى (فى كتاب التفسير ص ٦٤٧) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: أنزلت: ﴿ كُلُوْا وَاشْرَبُوْا حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ ﴾ ولم تُنزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدُهم فى رِجليه الخيطَ الأبيض والخيط الأسود، ولايزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده "من الفجر" فعلموا أنما يعنى الليل والنهار.

(٢) سورة التوبة ٣٤

(٣) رواه البخارى فى كتاب الزكاة، وفى كتاب التفسير، رقم الحديث ١٤٠٤ و٤٦٦١

(٤)فى تضاعيف أى: فى ضِمن؛ وتضاعيف الكتاب: حواشيه ومابين سطوره (المعجم الوسيط)

(٥)أى: فَتُفَسَّر الآية المجملة بالآية المفصلة فح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَايُنْفِقُوْنَهَا فِىْ سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾أى: لايؤدون الزكاة على وجهها ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ﴾.

خصوصياتها،فمالم تُعلم تلك القصص لايتأتى فهمُ حقيقتها(١).

والثانى:الاطلاع على فوائد بعض القيود؛ وكذا أسبابُ التشديدفى بعض المواضع(٢)، تتوقف معرفتها على أسباب النزول.

فن التوجيه:

وهذا المبحث الأخير(٣) فى الحقيقة فن من فنون التوجيه؛ ومعنى التوجيه: بيان وجه الكلام؛ وحاصل هذه الكلمة : أنه:

- قد تقع فى الآية شبهة ظاهرة، لاستبعاد الصورة التى هى مدلول الآية، أو للتناقض بين الآيتين.
- أو يصعب فهمُ مدلول الآية على ذهن المبتدئ.
- أو لاتستقر فى ذهنه فائدةُ قيد من القيود.

فإذا قام المفسر بحل هذه الإشكالات سمى ذلك توجيها(٤).

---

(١)قوله: لايتأتى أى: لايسهل ولايجوز،من تَأَتَّى الأمر: تَهَيَّأَ وتَسَهَّل.

(٢)وراجع لأمثلته: المائدة ١٠١و١٠٢ والتوبة ٣٨ و٣٩ و٦١ وغير ذلك.

(٣) يعنى مبحث ما يحتاج إليه المفسر.

(٤)وذكر الزركشى فى البرهان (٢: ٣١٤) للتوجيه معنى آخر فقال: وأما التوجيه وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى حكاية عن أخت موسى عليه السلام:﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلٰى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُوْنَهُ لَكُمْ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُوْنَ﴾ (سورة القصص ١٢) فإن الضمير فى " له" يحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون لفرعون، قال ابن جريج: وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم:" إنك عرفته " فقالت:أردت:"ناصحون للملك" واعترض عليه بأن هذا فى لغة العرب، لافى كلامهاالمحكى،وهذا مردود، فإن الحكاية مطابقة لما قالته؛ وإن كانت بلغة أخرى.

ونظيره: جواب ابن الجوزى لمن قال له: من كان أفضل عند النبى صلى الله عليه وسلم؟ أبوبكر أم على؟ فقال: من كانت ابنته تحته اهـ.فالإشكال فى ضمير: "ابنته" وضمير: تحته" فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج على،وعائشة بنت الصديق كانت زوج الرسول.

قلت:ماذكره الزركشى فى معنى التوجيه ليس بسديد،بل هو قريب (═)

أمثلة التوجيه:

١-كما فى آية: ﴿يٰأُخْتَ هَارُوْنَ﴾[١] فقد سألوا: أن المدة بين موسى وعيسى عليهما السلام طويلة، فكيف يكون هارونُ أخالمريم؟ كأن السائل أضمر فى خاطره: أن هارون هذا هوهارون أخو موسى عليهما السلام؛فأجاب صلى الله عليه وسلم بأن بنى إسرائيل كانوا يسمون بأسماء الصالحين قبلهم[٢].

٢- وكما سألوا: [٣]كيف يمشى الإنسان يوم الحشر على وجهه؟ فقال: " إن الذى أمشاه فى الدنيا على رجليه لقادر على أن يمشيه على وجهه" [٤].

٣- وكما سألوا[٥] ابن عباس رضى الله عنهما عن وجه التطبيق بين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَيَتَسَاءَ لُوْنَ﴾[٦] وبين آية أخرى: ﴿وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَسَاءَ لُوْنَ﴾[٧] فقال رضى الله عنه: عدم

(⟸) من معنى "التورية" وأما التوجيه فالصحيح فى معناها ماذكره الإمام المصنف، وسيذكر المصنف مثل ماذكره الزركشى فى الفصل الأخير من هذا الباب فى ذكر " المتشابه " فراجعه .

---

(١) سورة مريم ٢٨ وهذا مثال لإشكال تصور مصداق الآية على ذهن المبتدئ:

(٢)روى الإمام الترمذى وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران(موضع باليمن) فقالوا لى: ألستم تقرؤن:﴿يٰأُخْتَ هٰرُوْنَ﴾؟ وكان بين موسى وعيسى ما كان؟ فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: ألاأخبرتَهم، أنهم كانوا يسمّون بأنبياء هم والصالحين قبلهم.(سنن الترمذى ٢:١٤٤ فى أبواب التفسير فى تفسير سورة مريم)

(٣)مثال لاستبعاد صورة، هى مدلول الآية.

(٤)روى الشيخان عن أنس، قال: قيل يارسول الله !كيف يحشرالناس على وجوههم؟ قال: الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (روح المعانى ١٥:١٧٥ مشكوة حديث ٥٥٣٧)

(٥)مثال للتناقض بين الآيتين.

(٦)سورة المؤمنون ١٠١.   (٧) سورة الصّٰفّٰت ٢٧.

التساؤل يوم الحشر، والتساؤل بعد دخول الجنة[1].

٤- وكما سألوا[2] عائشة رضى الله عنها، فقالوا: إن كان السعى بين الصفا والمروة واجبا، فلما ذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية[3]؟ فأجابت رضى الله عنها: بأن قوما كانوا يتجنبونه ويتحرجون منه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ﴾[4]

٥- وكما سأل عمر رضى الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: ما معنى قيد ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾[5]؟ فقال صلى الله عليه وسلم: صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم،

---

(١) رواه الحاكم وابن جرير كما فى الدر المنثور وراجع روح المعانى (١٨: ٦٦) وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ مع قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ، عَمَّا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾ فالمنفى كلام التلطف والإكرام، والمثبت: سؤال التوبيخ والإهانة، فلا تنافى.

(٢) مثال لخفاء فائدة قيد من القيود على المبتدى.

(٣) سورة البقرة ١٥٨.

(٤) روى مسلم وغيره عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة: إنى لأظن رجلاً لو لم يطف بين الصفا والمروة ماضره؛ قالت: لِمَ؟ قلت: لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية فقالت: ما أتم الله حج امرأ، ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة، ولو كان كما تقول، لكان: فلا جناح عليه أن لايطوف بهما، وهل تدرى فيما كان ذاك؟ إنما كان ذاك أن الأنصار كانوا يهلون فى الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذى كانوا يصنعون فى الجاهلية قالت: فأنزل الله عزوجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ إلى آخرها قالت: فطافوا (فتح الملهم ٣: ٢٢٤)

(٥) فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوْا مِنَ الصَّلٰوةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾ (سورة النساء ١٠١) وهذا مثال ثانٍ لخفاء فائدة قيد من القيود.

فاقبلوا صدقته"[١] أى أن الكرماء لايضايقون فى الصدقة، فكذلك لم يذكر الله سبحانه وتعالى هذا القيد للتضييق، بل القيد إتفاقى.

وأمثلة التوجيه كثيرة، والغرض هُنا التنبيه على معناه[٢].

ذكر أسبـاب النـزول وتـوجيه المشكل فى فتح الخبير لفائدتين

وأرى من المناسب أن أذكر فى الباب الخامس ما نقل البخارى والترمذى والحاكم فى تفاسيرهم [٣] من أسباب النزول وتوجيه المشكل، بسند جيد إلى الصحابة رضى الله عنهم، أو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التنقيح والاختصار لفائدتين:

الأولى: أن استحضار هذا القدر من الآثار لابد منه للمفسر، كما لابدله من حفظ القدر الذى ذكرناه فى ذلك الباب [٤] من شرح غريب القرآن.

والثانية: أن يُعلم أنه لادخل لأكثر مايُروى من أسباب النزول فى فهم معانى الآيات الكريمة، اللهم إلاشئ قليل من القصص التى ذكرت فى هذه التفاسير الثلاثة التى هى أصح التفاسير عند المحدثين[٥].

---

(١) روى الإمام مسلم عن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوْا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾ فقد أمِن الناس؟ فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته" (فتح الملهم ٢: ٢٥٠)

(٢) وسيتكلم الإمام المصنف حول " التوجيه" فى الباب الرابع فى الفصل الثانى فراجعه.

(٣) أى نقل البخارى فى كتاب التفسير من صحيحه، وكذا الترمذى فى أبواب التفسير من سننه، وكذا الحاكم فى كتاب التفسير من مستدركه.

(٤) أى: فى فتح الخبير.

(٥) أى فى تفاسير البخارى والترمذى والحاكم.

إفراط ابن إسحاق والواقدى والكلبى[1]

وأما إفراط محمد بن إسحاق[2] والواقدى[3] والكلبى[4] وما ذكروا تحت كل آية من قصة، فأكثره غير صحيح عند المحدثين، وفى إسناده نظر[5]؛ ومن الخطأ البَيِّن: أن يُعدَّ ذلك من شروط التفسير؛ ومن يرى[6] أن تدبر كتاب الله يتوقف على الإحاطة بها،[7] فقد فات حظه من كتاب الله[8]، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

---

(١) ليس ذكر الواقدى فى أصل المصنِّف.

(٢) هو محمد بن إسحق بن يسار، المطلبى بالولاء، المدنى: من أقدم مؤرخى العرب، توفى سنة ١٥١هـ

له "السيرة النبوية" رواها عنه ابن هشام، قال الذهبى فى الميزان: ماله عندى ذنب إلا ماقد حشا فى السيرة من الأشياء المنكرة المنقطعة والأشياء المكذوبة اهـ.

(٣) هو محمد بن عمر بن واقد السهمى الأسلمى بالولاء، المدنى: من أقدم المؤرخين فى الإسلام ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث، ولد بالمدينة سنة ١٣٠هـ، وانتقل إلى العراق، فكان قاضيا بها، وتوفى ببغداد سنة ٢٠٧هـ

له "المغازى النبوية" وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) وله "كتاب التفسير" قال البخارى: متروك وقال أحمد بن حنبل: هو كذاب.

(٤) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبى: نَسَّابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها، صنف كتبا فى تفسير القرآن، وهو ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: أجمعوا على ترك حديثه، واتهمه جماعة بالوضع وقال النسائى: حدَّث عنه ثقات من الناس ورضوه فى التفسير، وأما فى الحديث ففيه مناكير، توفى سنة ١٤٦هـ

(٥) الضمير فى قوله: "أكثره" وكذا فى: "إسناده" يرجعان إلى كلمة "ما" فى قوله: "ما ذكروا"

(٦) يرى أى يعتقد (٧) أى على حفظ ماذكروا تحت كل آية من القصص.

(٨) واشتغل بما لايُعنى به فى تدبر القرآن.

الفصل الرابع

فى

بقية مباحث هذا الباب

مما يوجب الخفاء: حذفُ بعض الأجزاء ، أو أدواتِ الكلام[1]، وإبدالُ شئٍ بشيءٍ، وتقديم ماحقُّه التأخير، وتأخيرماحقُّه التقديم، واستعمالُ المتشابهات والتعريضات والكنايات، لاسِيَّما تصويرالمعنى المراد بالصورة المحسوسة التى تكون من لوازم ذلك المعنى عادة[2]واستعمالُ الاستعارة المكنيَّة[3]، والمجاز العقلى؛ فلنذكر شئيا من الأمثلة لهذه الأشياء باختصار،لتكون على بصيرة.

بيان الحذف[4]

أما الحذف فعلى أقسام: حذف المضاف والموصوف والمتعَلَّق وغير ذلك، مثلُ:

---

(١)الأدوات جمع أداة: الحروف، كأحرف الجر والجزم وأحرف الناصب وغيرها عطفٌ على قوله :" الأجزاء" وقوله: بعض الأجزاء أى بعض أجزاء الجملة.

(٢)وهذا أيضًا من باب الكنايات لأن فى الكناية يُطلق اللفظُ، ويُراد به لازِمُ معناه، مع جواز إرادة المعنى الحقيقى؛ فلما كانت الصورة المحسوسةُ من لوازم المعنى المراد ،صار ذلك التصوير من قبيل الكناية.

(٣) الاستعارة المَكْنِيَّة: هى ماحُذف فيه المشبَّه به، ورُمز له بشيئ من لوازمه، كقوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم ٤) شبّه الرأس بالوَقود، ثم حذف المشبه به، ورمزله بشيئ من لوازمه، وهو " اشتعل " ـــ ولم يَجْرِ للاستعارة المكنية ذكرٌ فيما بعدُ فى التفصيل؛ فإما ذهل عنه أو اكتفى عنها بالكناية، لان فيها أيضا يُطلق اللفظ، ويُرادبه لازمُ معناه؛ والتلويحُ، والرمز، والإيماء، والإشارة، والتعريض كلها من باب الكناية، فلعل المصنف عدَّ الاستعارة المكنية أيضا من بابها، والله أعلم.

(٤)الحذف لغة: الإسقاط، واصطلاحا إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل؛ ثم نتكلم على أمور مهمة: =

....

(═) الأول: من فوائد الحذف: التفخيم والإعظام؛ لما فيه من الإبهام لذهاب الذهن فى كل مذهب، وتشوُّفه إلى ما هو المراد؛

ومنها: زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر، كان الالتذاذ له أشد وأحسن.

ومنها: طلب الإيجاز والاختصار، وما إلى ذلك من الفوائد.

الثانى: ومن أسباب الحذف مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، نحو: الهلالُ واللهِ! أى هذا، فحذف المبتدأ استغناءً عنه بقرينة شهادة الحال.

ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإيتان بالمحذوف؛ وهذه هى فائدة باب التحذير؛

ومنها: التفخيم والإعظام.

ومنها: التخفيف لكثرة دورانه فى كلامهم، كما حذف حرف النداء فى نحو: ﴿يُوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا﴾؛

ومنها: رعاية الفاصلة؛ وما إلى ذلك من الأسباب.

الثالث: الحذف لايجوز إلا لدليل؛ والدليل تارة يدل على محذوف مطلق وتارة على محذوف معين.

فمنها: أن يدل عليه العقل، حيث يستحيل صحة الكلام عقلاً إلا بتقدير محذوف. كقوله تعالى: ﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ فإنه يستحيل عقلاً تكلم الأمكنة، إلا معجزة.

ومنها: أن يدل عليه العادة الشرعية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ فإن الذات لاتتصف بالحل والحرمة شرعًا، إنما هى من صفات الأفعال الواقعة على الذات، فعلم أن المحذوف" التناول " ولكنه لما حذف وأقيمت الميتة مقامه أسند إليه الفعل. وقُطع النظر عنه، فلذلك أنَّث الفعل فى بعض الصور، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾

ومنها: أن يدل اللفظ على الحذف، والشروعُ فى الفعل على تعيين المحذوف، كقوله: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ﴾ فإن اللفظ يدل على أن فيه حذفا؛ لأن حرف الجرلابد له من متعلّق، ودلّ الشروع على تعيينه؛ وهو الفعل الذى جعلت التسمية فى مبدئه: من قراءة أوأكل أو شرب ونحوه، ويقدَّر فى كل موضع مايليق به، (═)

....

(=) ففى القراءة: أقرأ، وفى الأكل: آكل، ونحوه.

ومنها: تقدم مايدل على المحذوف، وما فى سياقه.

ومنها: اعتضاده بسبب النزول، كما فى قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ فإنه لابد فيه من تقدير، فقيل: قمتم من المضاجع يعنى النوم وقيل: إذا قمتم محدثين

الرابع: من شروط المحذوف أن تكون فى المذكور دلالة على المحذوف، إما من لفظه أوسياقه، وإلا لم يُتمكن من معرفته، فيصير اللفظ مُخِلاً بالفهم، وهو معنى قولهم: لابد أن يكون فيما أُبقى دليل على ما أُلقِيَ.

الخامس: من أقسام المحذوف.

الإقتطاع: وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقى كما فى الحديث: "كفى بالسيف شا" أى شاهدًا، وأنكر صاحب "المثل السائر" ورودهذا النوع فى القرآن العظيم.

ومنها: الاكتفاء، وهو أن يقتضى المقام ذكر شيئين؛ بينهما تلازم وارتباط؛ فيكتفى بأحدهما عن الآخر؛ ثم ليس المراد الاكتفاء بأحدهما كيف ماتفق؛ بل لأن فيه نكتة تقتضى الاقتصار عليه، كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾(سورة آل عمران ٢٦) تقديره "والشر" إذ مصادر الأمور كلها بيده جل جلاله؛ وإنماآثر ذكر الخير لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم إليه أولأنه يجب فى باب الأدب ألاّ يضاف إلى الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم: "والشرليس إليك" وأمثلة هذاالقسم كثيرة؛

ومنها: قسم يسمى الضمير والتمثيل؛ وأعنى بالضمير أن يضمر من القول المجاور لبيان أحد جزئيه كقول الفقيه: النبيذ مسكرفهو حرام. فإنه أضمر" وكل مسكر حرام" كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران ١٥٩) وقد شهد الحس والعيان أنهم ما انفضوا من حوله؛ وهى المضمرة؛ فانتفى عنه صلى الله عليه وسلم كونه فظا غليظ القلب.

ومنها: أن يستدل بالفعل لشيئين وهو فى الحقيقة لأحدهما، فيضمر للآخرفعل يناسبه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾(سورةالحشر ٩) أى: واعتقدوا الإيمان

ومنها: أن يقتضى الكلام شيئين فيقتصر على أحدهما؛ لأنه المقصود، كقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَىٰ﴾(سورة طه ٤٩) ولم يقل "وهرون" لأن موسى المقصود المتحمل أعباء الرسالة. (=)

....

(==) ومنها: الاختزال، وهو الافتعال، من خزله: قطع وسطه ونُقل فى الاصطلاح إلى حذف كلمة أو أكثر؛ وهى إما أسم أو فعل أو حرف.

حذف الاسم: فمنه: المبتدأ كقوله تعالى:﴿بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ﴾(الأحقاف ٣٥) أى: هذا بلاغ؛ وكقوله تعالى:﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾(النور ١) أى: هذه سورة.

ومنه حذف الخبر، كقوله تعالى:﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾(الرعد ٣) أى ظلُّها دائم.

ومنه حذف الفاعل: كقوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾(النمل ٣٦) تقديره: فلما جاء الرسول سليمان.

ومنه حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو كثير،قال ابن جنى: وفى القرآن منه زهاء ألف موضع، وشرط المبرد لجوازه وجود دليل على المحذوف من عقل أو قرينة؛ وقال الزمخشرى: لايستقيم تقدير المضاف فى كل موضع، ولايقدم عليه إلا بدليل واضح غير مُلْبس؛ كقوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾(الأنبياء ٩٦) أى: سدّ يأجوج ومأجوج، وكقوله تعالى:﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾(البقرة ١١٧) أى: برمن آمن بالله.

ومنه: حذف المضاف إليه: هو أقل استعمالا؛ كقوله تعالى:﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾(الروم ٤) أى: من قبل ذلك ومن بعده؛وكذاكل ما قطع عن الإضافة مماوجبت إضافته معنى، لالفظًا.

ومنه حذف المضاف والمضاف إليه معا:وذلك حيث يضاف المضاف إليه إلى مضاف؛ فيحذف الأول والثانى ويبقى الثالث، كقوله تعالى:﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾(الواقعة ٨٢) أى بدل شكر رزقكم وكقوله تعالى:﴿ مَاأَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾(الحشر ٥) أى: من أموال كفار أهل القرى.

ومنه حذف الجار والمجرور، كقوله تعالى:﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(العنكبوت ٤٥) أى: من كل شيئ.

ومنه حذف الموصوف، ويشترط فى حذفه أمران: أحدهما: كون الصفة خاصة بالموصوف حتى يحصل العلم بالموصوف، فمتى كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف، والثانى: أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث هى لتعلق غرض السياق؛ كقوله تعالى:﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ ١٣) أى: العبد الشكور. (==)

....

(=) ومنه حذف الصفة؛ وأكثر مايرد للتفخيم والتعظيم في النكرات، وكان التنكير حينئذ علم عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف ١٠٥) أى: وزنًا نافعًا.

ومنه حذف المعطوف كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ (الأعراف ١٨٥) أى: أعموا ولم ينظروا.

وقد يحذف المعطوف مع حرف العطف؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ (الإسراء ١٦) أى: أمرنا مترفيها فخالفوا الأمر ففسقوا.

ومنه حذف المعطوف عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ (آل عمران ٩١) أى: لوملكه ولو افتدى به؛ ويجوز حذفه مع حرف العطف كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة ١٨٤) أى فأفطر فعدة.

ومنه حذف الموصول، كقوله تعالى: ﴿ آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ (العنكبوت ٤٦) أى: وبالذى أنزل إليكم.

ومنه حذف المخصوص فى باب نعم، إذا علم من سياق الكلام، كقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص ٣٠) والتقدير: نعم العبد أيوبُ، أو نعم العبد هو.

ومنه حذف المفعول، وهو ضربان: أحدهما: أن يكون مقصودا مع الحذف فينوى لدليل كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج ١٦) أى: يريده، والثانى: أن لايكون المفعول مقصودا أصلاً، ويُنزل الفعل المتعدى منزلة القاصر، وذلك عند إرادة وقوع نفس الفعل فقط، وجعل المحذوف نسيا منيسا، كما يُنْسَى الفاعل عند بناء الفعل؛ فلايذكر المفعول ولايقدر؛ غير أنه لازم الثبوت عقلا لموضوع كل فعل متعد كقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة ٢٥٨) وكقوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ﴾ (مريم ٤٢).

ومنه حذف المنادى، ومنه: حذف الشرط، كقوله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ (الشورى ٩) تقديره: إن أرادوا أولياء، فالله هو الولى بالحق، لاولى سواه.

ومنه حذف جواب الشرط: ويكثر ذلك فى جواب لو، ولولا.

ومنه حذف جواب القسم: لعلم السامع المراد منه.

ومنه حذف القول: وقد كثر فى القرآن العظيم حتى أنه فى الإضمار بمنزلة الإظهار. كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (=)

• قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾(1) أى برّ من آمن.

• وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾(2) أى آية مبصرة، لأنها مبصِرة، غير عمياء.

• وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾(3) أى حب العجل.

(=) (البقرة ٦٠) أى: قلنا.

حذف الفعل: وينقسم إلى عام وخاص:

فالخاص: نحو" أعنى" مضمرًا وينتصب المفعول به فى المدح؛ نحو: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾(البقرة ١٧٧)أى: أمدح.

والعام: كل منصوب دل عليه الفعل لفظًا أو معنى أو تقديرًا، ويحذف لأسباب:

١- أن يكون مفسَّرًا، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾(الرحمٰن ٧)

٢- أن يكون هناك حرف جر، نحو: بسم الله؛فإنه يفيد أن المراد: بسم الله أقرأ

٣-أن يكون جوابا لسؤال واقع أومقدر،نحو: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(لقمان ٢٥)

٤- أن يدل عليه معنى الفعل الظاهر.

٥- أن يدل عليه العقل.

٦-أن يدل عليه ذكره فى موضع آخر.

٧- أن يكون بدلا من مصدره، نحو: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾(القتال ٤).

حذف الحرف: قال أبوبكر بن السراج: حذف الحرف ليس يقاس، وذلك لأن الحرف نائب عن الفعل بفاعله، ألاترى أنك إذا قلت: ما قام زيد، فقد نابت" ما" عن "أنفِى" كما نابت " إلا" عن " أستثنى" وكما نابت الهمزة وهل عن " أستفهم" وكما نابت حروف العطف عن " أعطف" ونحوذلك، فلو ذهبتَ تحذف الحرف، لكان ذلك اختصارًا، واختصار المختصر إجحاف به، إلا إذا صح التوجه إليه، وقد جاز فى بعض الأحوال حذفه لقوة الدلالة عليها اهـ(اجتنيت التعليق كله من البرهان (٣:١٠٢- ٢١٠)

---

(١) البقرة ١١٧ وفيه حذف المضاف.

(٢)سورة بنى إسرائيل ٥٩ وفيه حذف الموصوف.

(٣)سورة البقرة ٩٣ وفيه حذف المضاف؛ وقال الراغب: إنه على بابه، فإن فى ذكر العجل تنبيها على أنه لفرط محبتهم صار صورة العجل فى قلوبهم لاتُمَحَّى.

•وقوله تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[1] اى بغير قتل نفس.

•وقوله تعالى: ﴿ أَوْ فَسَادٍ﴾[2]أى بغير فساد.

•وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِىْ السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ ﴾[3]أى من فى السماوات ومن فى الارض ؛ لا أن شيئا واحدًا هو فى السماوات والأرض.

•وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[4]أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

•وقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[5] أى أهل القرية.

•وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا﴾[6]أى فعلوامكان شكر نعمة اللّٰه كفرًا.

•وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِىْ لِلَّتِىْ هِىَ أَقْوَمُ﴾[7]أى للخصلة التى هى أقوم.

•وقوله تعالى: ﴿بِالَّتِىْ هِىَ أَحْسَنُ ﴾[8]أى بالخصلة التى هى أحسن.

---

(١)سورة الكهف ٧٤ وفيه حذف المضاف.

(٢)سورة المائدة ٣٢ وفيه حذف المضاف، وهو الجار والمجرور.

(٣)جاء فى التنزيل فى تسعة مواضع كما فى سورة الرحمن ٢٩ وكما فى الأنبياء ١٩ وجاء قوله: ﴿ مَنْ فِىْ السَّمٰوٰتِ و مَنْ فِىْ الأَرْضِ﴾ فى أربع مواضع، أولها فى سورة يونس ٦٦ وقال بعضهم: وتأملت هذه المواضع فوجدت أنه حيث قصد التنصيص على الإفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود فى سورة يونس من نفى الشركاء الذين اتخذوهم فى الأرض وإلى المقصود فى آية الكرسى من إحاطة الملك؛ وحيث قُصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس، وللاهتمام بما هو المقصود فى تلك الآية، ألاترى إلى سورة الرحمٰن، المقصودمنها علو قدرة اللّٰه تعالى، وعلمه وشأنه وكونه مسئولا، ولم يقصد إفراد السائلين فتأمل هذه المواضع (البرهان ٤ :٧٣)

(٤)سورة الإسراء ٧٥ وفيه حذف المضاف.

(٥)سورة يوسف ٨٢ وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

(٦) سورة إبراهيم ٢٨ وفيه: حذف المضاف والمضاف إليه معًا.

(٧)سورة الإسراء ٩ وفيه: حذف الموصوف.

(٨)سورة فصلت ٣٤ وفيه أيضا حذف الموصوف.

•وقوله تعالى: ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾[1] أى الكلمة الحسنى والعِدَة الحسنى[2]

•وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[3] أى على عهد ملك سليمان.

•وقوله تعالى: ﴿وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[4] أى على ألسنة رسلك.

•وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[5] أى أنزلنا القرآن، وإن لم يسبق له ذكر

•وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[6] أى توارت الشمس.

•وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾[7] أى خصلة الصبر.

•وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[8] ـــ فيمن قرأ بالنصب ـــ أى جعل منهم من عبد الطاغوت.

•وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[9] أى جعل له نسبًا وصهرًا.

---

(١)سورة الأنبياء ١٠١ وفيه أيضا حذف الموصوف

(٢)قوله: العدة مصدر وعد بمعنى الوعد.

(٣)سورة البقرة ١٠٢ وفيه حذف المضاف الأول.

(٤)سورة آل عمران ١٩٤ وفيه أيضا حذف المضاف الأول.

(٥)سورة القدر وفيه حذف مرجع الضمير قال الزركشى :أضمر القرآن لأن الإنزال يدل عليه (البرهان ٤ :٢٧)

(٦)سورة صٓ ٣٢ وفيه حذف الفاعل وقيل: فاعل تورات ضمير" الصافنات"ذكره ابن مالك وابن عربى فى الفتوحات، ويرجّحه أن اتفاق الضمائر أولى من تخالفها (البرهان ٤ :٢٦)

(٧)سورة فصلت ٣٥ وفيه حذف مرجع الضمير.

(٨)سورة المائدة ٦٠ وفيه حذف الموصول؛ قرأ الجمهور بفتح الباء ونصب التاء. على أنه فعل ماض معلوم، وفيه ضمير يعود إلى "من " وفى قراء ة حمزة بضم باء عَبُدَ،وإضافته إلى ما بعده؛ اسم جمع لعبد.

(٩)سورة الفرقان ٥٤ وفيه: حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور؛ قال الزركشى: كثر فى القرآن حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور به كقوله تعالى﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أى من قومه(البرهان ٣ :٢١٥)

●وقوله تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوْسىٰ قَوْمَهُ ﴾[1] أى من قومه.

●وقوله تعالى: ﴿أَلاَ اِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾[2] أى كفروا نعمة ربهم، أو: كفروا بربهم، بنزع الخافض.

●وقوله تعالى: ﴿تَفْتَؤُا﴾[3] أى لا تفتؤ، ومعناه: لاتزال.

●وقوله تعالى: ﴿مَانَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ﴾[4] أى يقولون: ما نعبدهم.

●وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا العِجْلَ﴾[5] أى الذين اتخذوا العجل إلٓها.

---

(١) سورة الأعراف ١٥٥ وفيه أيضًا حذف الجار ثم الإيصال.

(٢) سورة هود ٦٠ وفيه إما حذف المضاف الأول وإما حذف الجار ثم الإيصال.

(٣) سورة يوسف ٨٥ وفيه: حذف الحرف لأنها ملازمة للنفى، ومعناها لاتزال ولاتبرح (البرهان ٣: ٢١٥)

(٤) سورة الزمر ٣ وفيه حذف القول؛ وقال شيخ مشايخنا العلامة المحدث الكبير محمد أنور شاه الكشميرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (البقرة ١٢٧): وقد قدَّر المفسرون ههنا "يقولان" ربنا الخ قلت: وهذا إعدام لغرض القرآن فاعلم أن طريق المؤرخ الحكاية عن الغائبات، على طور نقل الغائب عن الغائب، وطريق القرآن أنه قد يأتى لإحضار مافى الخارج عندالمتكلم، وتصويره فى ذهنه، كأنه واقع الآن، وقد فصلناه من قبل، ومن يخلط بين الطريقين يعجز عن إدراك بعض معانى الأشعار أيضا كقوله:

خيال خواب راحت ہے، علاج اس بد گمانی کا　　وہ کافر قبر میں، مؤمن میرا شانہ ہلاتا ہے

فقوله علاج اس بد گمانی کا ليس خبرا عن قوله: خیال خواب راحت ہے بل هوجملة مستقلة يظهر معناها عند التغيير فى اللهجة؛ وحاصل البيت: أن حبيبتى يتهمنى بعد الموت أيضًا فيظن أنى فى المنام، فما أصنع بسوء ظنه ذلك؟ حتى إنه يحرك كاهلى لأستيقظ من نومى، وما بى من نوم، ولكنى قدمتُ اهـ (فيض البارى ٤: ١٥٧)

فعلم أن حذف القول فى القرآن ربما يعدم غرض الكلام.

(٥) سورة الأعراف ١٥٢ وفيه حذف المفعول الثانى.

•وقوله تعالى: ﴿تَأْتُوْنَنَا عَنِ الْيَمِيْنِ﴾[1] أى وعن الشمال.
•وقوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُوْنَ، إِنَّا لَمُغْرَمُوْنَ﴾[2] أى تقولون: إنا لمغرمون.
• وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَامِنْكُمْ مَلاَئِكَةً﴾[3] أى بدلا منكم.
•وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾[4] أى امض.

حذف خبر إنَّ والجزاء والمفعول والمبتدأوماشابَهَها مُطَّرِد.

وليُعلم أن حذف خبر" إن" أوحذف جزاء الشرط، أو مفعول الفعل، أو مبتدأ الجملة، وماأشبه ذلك مطَّرد[5] فى القرآن الكريم إذا كان فيما بعدَه دلالة على حذفه، نَحْوُ:

• قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾[6] أى لو شاء هدايتكم لهداكم.
•وقوله تعالى: ﴿اَلْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ﴾[7] أى هذا الحق من ربك.
•وقوله تعالى: ﴿لاَيَسْتَوِىْ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُوْلٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِيْنَ أَنْفَقُوْا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوْا﴾[8] أى لا يستوى من أنفق من قبل الفتح

---

(1)سورة الصّٰفّت ٢٨ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة؛ وهذا الحذف يسمى حذف الاكتفاء كما تقدم.

(2)سورة الواقعة ٦٥ و٦٦ وفيه حذف القول.

(3)سورة الزخرف ٦٠ وفيه حذف المضاف.

(4)سورة الأنفال ٥ وفيه حذف الفعل.

(5)قوله: مطَّرد: أى عام لاشذوذ فيه، ومنه: القاعدة المطردة أى: لاشذوذ فيها.

(6)سورة الأنعام ١٤٩ وفيه حذف المفعول.

(7) سورة البقرة ١٤٧ وفيه حذف المبتدأ.

(8)سورة الحديد ١٠ وفيه حذف بعض الجملة وهو المعطوف ويسمى هذا الحذف حذف الاكتفاء.

ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف الثاني[1] لدلالة قوله: ﴿أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِيْنَ اَنْفَقُوْا مِنْ بَعْدُ﴾

●وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمُ اتَّقُوْا مَابَيْنَ أَيْدِيْكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ. وَمَا تَأْتِيْهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوْا عَنْهَا مُعْرِضِيْنَ﴾[2] أى إذا قيل لهم: اتقوا مابين أيديكم وماخلفكم أعرَضوا.

لاحاجة إلى تفتيش العامل فى كلمة " إذ"

وليعلم أيضا: أن الأصل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾[3] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوْسٰى﴾[4] أن تكون كلمة "إذ" ظرفا لفعل من الأفعال، ولكنها نُقلت هٰهنا إلى معنى التخويف والتهويل، كمثل الذى يذكر المواضع الهائلة أو الوقائع العظيمة على سبيل التعداد، من دون تركيب للجُمَل، ومن غير وقوع الكلمات فى حَيِّز الإعراب؛ بل المقصود ذكرها بأعينها، حتى ترتسم صورتها فى ذهن المخاطب، ويستولى الخوف منها على قلبه.

فالتحقيق: أنه لايلزم فى أمثال هذه المواضع تفتيش العامل، والله أعلم.

حذف الجار من " أنْ" مُطَّرد

وليعلم أيضًا: أن حذف الجار من " أن" المصدرية مطرد فى كلام العرب؛ والمعنى: لأن، أو: بأن[5].

حذف جواب " لو" الشرطية

وليعلم أيضًا: أن الأصل فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوْنَ فِىْ

(١) لأن الاستواء يطلب الاثنين.

(٢) سورة يٰس ٤٥ و٤٦ وفيه حذف جزاء الشرط للاكتفاء بالآية الثانية.

(٣) سورة البقرة ٣٠ (٤) سورة البقرة ٥٤

(٥) قال المفسر أبو السعود فى إرشاد العقل السليم (٥:١٩٦) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلٰى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْقَوْمَكَ ﴾ أى بأن أنذرهم، على أن " أن " مصدرية حذف منها الجار وأوصل إليها الفعل، فإن حذفه مع " أن" و"إن" مطرد اه.

غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْيَرَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾[2]: أن يكون جواب الشرط محذوفا[3]، إلا أنهم نقلوا هذاالتركيب إلى معنى التعجب، فلاحاجة إلى تفتيش المحذوف والله أعلم.

بيان الإبدال

أما الإبدال فإنه تصرف كثير الفنون:

إبدال فعل بفعل:

قد يذكر سبحانه وتعالى فعلا مكان فعل، لأغراض شتّى ، وليس استقصاء[4] تلك الأغراض من وظيفة هذا الكتاب، نحو:

- قوله تعالى : ﴿أَهٰذَا الَّذِىْ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[5] أى يَسُبُّ آلهتكم؛ وكان أصل الكلام: أهذا الذى يسب، ولكن كَره ذكر السبِّ ،فأبدل بالذكر.

ومن هذا القبيل ما يقال فى العرف[6]:" أصيبَ أعداء فلان بمرض" أو :

---

(١)سورة الأنعام ٩٣ (٢) سورة البقرة ١٦٥

(٣)أى الأصل فى لولولا أن يحذف الجواب؛ وتقديره فى هذه المواضع: "لرأيت عجبًا" أو:" أمرا عظيمًا" أو:" لرأيت سوء منقلَبهم" أو:" لرأيت سوء حالهم" والسرُّ فى حذفه فى هذه المواضع: أنها لما رُبطت إحدى الجملتين بالأخرى حتى صار جملة واحدة، أوجب ذلك فصلاً وطولاً، فخفف بالحذف؛ خصوصا مع الدلالة على ذلك (البرهان ٣:١٨٣)

(٤)استقصى المسئلة: بلغ الغاية فى البحث عنها.

(٥)سورة الأنبياء ٣٦ والاستفهام للإنكار والتعجب، ويفيدان أن المراد يذكر آلهتكم بسوء؛ وقد يكتفى بدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُ هُمْ﴾فإن ذكر العدو لايكون إلا بسوء؛ وقد تحاشوا عن التصريح أدبا مع آلهتهم(روح المعانى ١٧:٤١٤) وحينئذ يكون المثال من باب حذف الجار والمجرور ـــ وهما بسوء ـــ لامن باب الإبدال.

(٦)عند مخاطبتهم سادتهم أو مكرميهم أى ينسبون الأمر إلى مايلا بسهم أو إلى متعلقيهم.

"شَرَفَنا بالمجئ عبيدُ الحضرة" أو: "عبيدالجناب العالى مطلعون على هذه المقدمة"[١]؛ والمراد: قد مرض فلان، وقدم سعادة فلان، واطلع سُمُوُّ فلان.

●وقوله تعالى: ﴿وَلاَهُمْ مِنَّا يُصْحَبُوْنَ﴾[٢] أى منا لاينصرون ؛ لما كانت النصرة لاتتصور بدون الاجتماع والصحبة أبدل ينصرون بيصحبون .

● وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِيْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٣] أى خفيت؛ لأن الشئ إذا خفى علمه، ثقل على أهل السماوات والأرض[٤].

●وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾[٥] أى عفون لكم عن شئ من طيبة أنفسهن[٦].

إبدال اسم باسم

وقد يذكر سبحانه وتعالى اسما مكان اسم، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِيْنَ﴾[٧] أى خاضعة.

●وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِيْنَ﴾[٨] أى من القانتات.

---

(١)هذه كلها تعبيرات فارسية، كانوا يتكلمون بها أوبمثلها عند سادتهم وكبرائهم

(٢)سورة الأنبياء ٤٣ (٣) سورة الأعراف ١٨٧.

(٤) كماروى عن السُّدى: أن من خفى عليه علم شيئ كان ثقيلا عليه(روح المعانى ١٣٣:٩) فمعنى الآية: كبرت وعظمت على أهلهما حيث لم يعلموا وقت وقوعها.

(٥)سورة النساء ٤

(٦)وإنما أوثر مافى النظم الكريم دُون " عفون" أو " وهبن" إيذانا بأن العمدة فى الأمر طيب النفس .

(٧)سورة الشعراء ٤.

(٨)سورة التحريم ١٢ وإنما أوثر ما فى التنزيل إيماءً إلى أن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين اهـ(الصاوى) وكذا فى البرهان (٣٠٢:٣) ومثله فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِيْنَ﴾ والأصل: الغابرات.

• وقوله تعالى: ﴿وَمَالَهُمْ مِن نَّاصِرِيْنَ﴾[1] أى من ناصر.

• وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِيْنَ﴾[2] أى حاجزًا.

• وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِىْ خُسْرٍ﴾[3] أى أفراد بنى آدم؛ أفرد اللفظ لأنه اسم جنس.

• وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا﴾[4] المعنى: "يابنى آدم إنكم"؛ أفرد اللفظ لانه اسم جنس.

• وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾[5] يعنى أفراد الإنسان.

• وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِيْنَ ﴾[6] أى نوحًا وحده.

• وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾[7] أى إنى فتحت لك.

• وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَقَادِرُوْنَ﴾[8] أى إنى لقادر.

• وقوله تعالى: ﴿وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾[9] أى يسلّط محمدًا صلى الله عليه وسلم.

• وقوله تعالى: ﴿ اَلَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾[10] أى عروة الثقفى وحده.

• وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللّٰهُ لِبَاسَ الْجُوْعِ﴾[11] أى طُعم الجوع؛ أبدل الطعم

---

(١) سورة آل عمران ٢٢ وإنما جمع الناصر لرعاية ماوقع فى مقابلته، لالنفى تعدد الأنصار لكل واحد منهم.

(٢) سورة الحاقة ٤٧

(٣) سورة العصر ١ و٢ وإنما أراد الأفراد لدلالة الاستثناء.

(٤) سورة الانشقاق ٦ وأراد الأفراد لدلالة " إنك"

(٥) سورة الأحزاب ٧٢

(٦) سورة الشعراء ١٠٥ ولماكان تكذيبه صلى الله عليه وسلم تكذيبا لجميع الرسل، لاشتراكهم فى المجيئ بالتوحيد، جمّع المرسلين.

(٧) سورة الفتح ١

(٨) سورة المعارج ٤٠

(٩) سورة الحشر ٦

(١٠) سورة آل عمران ١٧٣

(١١) سورة النحل ١١٢

باللباس إيذانا بأن الجوع له أثرمن النُّحول والذبول ما يعم البدن كله ويشمله كاللباس.

•وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾(١) أى دين الله؛ أبدل بالصبغة إيذانا بأنه كالصبغ تتلون به النفس ؛ أو مشاكلة (٢) بقول النصارى فى المعمودِيَّة(٣).

•وقوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ﴾(٤) أى طور سَيناء.

•وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾(٥) إى على إلياس؛ قُلِّب الاسمان(٦) للازدواج .

إبدال حرف بحرف

وقد يذكر سبحانه وتعالى حرفامكان حرف، نحو:

•قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾(٧) أى على الجبل، كماتجلى فى المرة الأولى على الشجرة.

•وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾(٨) أى إليها سابقون.

---

(١)سورة البقرة ١٣٨ (٢)أى مماثلة وموافقة بقولهم.

(٣)قال فى المنجد: المعمودية: أول أسرار الدين المسيحى وبابُ النصرانية، وهى غَسل الصبى وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس؛ واللفظ سريانى الأصل، أو مولَّدة مأخوذة من العَمَد أى البلل اه وقال السيد الآلوسى: وقيل: للمشاكلة التقديرية، فإن النصارى كانوا يصبغون أولادهم بماء أصفر، يسمونه "المعمودية "يزعمون أنه الماء الذى ولد فيه عيسى عليه الصلاة والسلام، يعتقدون أنه تطهير للمولود، كالختان لغيرهم (روح المعانى ١ :٣٩٧)

(٤) سورة التين ٢ (٥)سورة الصافات ١٣٠

(٦)يعنى سينين وإلْ ياسين.والازدواج من ازدوج الكلامُ: أشبَه بعضُه بعضًا فى السَّجع أو الوزن.

(٧) سورة الأعراف ١٤٣ (٨) سورة المؤمنون ٦١

●وقوله تعالى: ﴿لاَيَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُوْنَ، إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ﴾(١) أى لكن من ظلم؛ فهو استيناف.

●وقوله تعالى: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِىْ جُذُوْعِ النَّخْلِ﴾(٢) أى على جذوع النخل.

●وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَّسْتَمِعُوْنَ فِيْهِ﴾(٣) أى يستمعون عليه.

●وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾(٤) أى منفطر فيه.

●وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِيْنَ بِهِ﴾(٥) أى عنه.

●وقوله تعالى: ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾(٦) أى حملته العزة على الإثم.

●وقوله تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيْرًا﴾(٧) أى فاسأل عنه.

●وقوله تعالى: ﴿لاَتَأْكُلُوْا أَمْوَالَهُمْ إِلٰى اَموَالِكُمْ﴾(٨) أى مع أموالكم.

●وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(٩) أى مع المرافق.

●وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّٰهِ﴾(١٠) أى يشرب منها.

●وقوله تعالى: ﴿وَمَاقَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوْا: مَاأَنْزَلَ اللّٰهُ عَلٰى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾(١١) أى أن قالوا.

إبدال جملة بجملة

وقد يورِد جملةً مكان جملة، مثلاً: إذا دلّت جملة على حاصل مضمون جملة أخرى، وسبب وجودها، فتبدل بتلك الجملة ؛ نحو:

---

(١) سورة النمل ١٠ و١١وقوله : إلا من ظلم استثناء منقطع؛ ليس باستثناء من المرسلين، لأنه لايجوز منهم الظلم، والمعنى: لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف فإن تاب فأغفرله، ولستم أيها المرسلون من الظالمين، فلا خوف عليكم، فقوله: استيناف أى هذه الجملة مستأنفة وليست باستثناء من ماقبلها.

(٢) سورة طٰه ٧١ (٣)سورة الطور ٣٨ (٤)سورة المزمل ١٨

(٥) سورة المؤمنون ٦٧ (٦) سورة البقرة ٢٠٦ (٧)سورة الفرقان ٥٩

(٨)سورة النساء ٢ (٩) سورة المائدة ٦ (١٠)سورة الدهر٦

(١١) سورة الأنعام ٩١

•وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[1] أى إن تخالطوهم فلا بأس بذلك، لأنهم أخوانكم؛ وشأن الأخ أن يخالط أخاه.

•وقوله تعالى: ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[2] أى لوجدوا ثوابا؛ ومثوبةٌ من عند الله خير.

•وقوله تعالى: ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[3] أى إن سرق فلا عجب، لأنه قد سرق أخ له من قبل.

•وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ،فَإِنَّهُ نَزَّلَه عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾[4] أى من كان عدوا لجبريل فإن الله عدوله، فإنه نزله على قلبك بإذنه؛ فعدوُّه يستحق أن يعاديه الله تعالى؛ فحذف: "فإن الله عدوٌّ له" بدليل الآية التالية، وأبدل منه: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ ﴾.

إبدال التنكير بالتعريف

وقد يقتضى أصل الكلام التنكير، فيتصرف فيه بإدخال اللام والإضافة، ويبقى المعنى على التنكير الأول، نحوُ:

(١) سورة البقرة ٢٢٠ وخالطه: عاشره.

(٢)سورة البقرة ١٠٣وتمامها: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوْا وَاتَّقَوْا لَمَثُوْبَةٌ ﴾ الآية.

(٣)سورة يوسف ٧٧ قال الآلوسي: والمعنى: إن كان سرق" فليس ببدْع" لسبق مثله من أخيه؛ وكأنهم أرادوا بذلك دفع المعرة عنهم، واختصاصها بالشقيقين؛ وتنكير" أخ" لأن الحاضرين لاعلم لهم به(الروح ١٣:٣٢)

(٤) سورة البقرة ٩٧ وقيل المعنى: من كان عدوًا لله فَلْيَمُتْ غَيْظًا، لأنه نزله على قبلك بإذن الله؛ والقرينة على الحذف الجملة المعترضة المذكورة بعده فى وعيدهم، وهى: من كان عدوًا لله وملئكته الآية، والأصح ماقال المفسر العالم الربانى ، الإمام التهانوى: من كان عدوًا لجبريل" فلامس لعداوته بمدعاه من تكذيب القرآن " فإنه نزله الخ فإن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلٰى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ الآية، دالة على الجملة المحذوفة (بيان القرآن ١:٥٨)

●قوله تعالى: ﴿وَقِيْلِهِ يَارَبِّ﴾[1] أى قيلِ له[2]: يارب، فأبدل بقيْلِه، لأنه أخصر فى اللفظ.

●وقوله تعالى: ﴿حَقُّ الْيَقِيْنِ﴾[3] أى حقٌ يقينٌ؛ أضيف ليكون أيسر فى اللفظ.

إبدال التذكير والتأنيث والإفراد بأضدادها

وقد يقتضي سَنَنُ الكلام الطبيعى[4] تذكيرَ الضمير، أو تأنيثه، أو إفراده، فيخرجه سبحانه وتعالى عن ذلك السنن الطبيعى، ويذكر المؤنث مقام المذكر[5]، وبالعكس[6]، ويأتى بالجمع مكان المفرد، رعايةً للمعنى، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَاَى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ: هٰذَا رَبِّىْ ، هٰذَا أَ كْبَرُ﴾[7].

●وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ﴾[8].

---

(١)سورة الزخرف ٨٨ بالجر عطف على " الساعة " أى عنده علم الساعة، وعلم قوله عليه السلام : يارب ! إن هٰؤلاء قوم لايؤمنون؛فاللّٰه تعالى يعلم وقت الساعة، الذى هو وقت المجازاة، ويعلم شكوى الرسول أيضًا، فقوله تعالى: يارب الآية تفسير لقيله؛ والقول والقيل والقال والمقالة كلها مصادر بمعنى واحد (جَمَل)

(٢)قيلِ له: أى للّٰه تعالى والقائل هو الرسول، وأضيف إلى الضمير لأنه أخصر فى اللفظ.

(٣)سورة الواقعة ٩٥ وفيه إضافة الموصوف إلى صفته أى حق الخبر اليقين، وقيل: الحق الثابت من اليقين؛ واليقين هو العلم الثابت المتيَقَّن الذى، لاشك فيه.

(٤)قوله: الطبيعى صفة لقوله :سنن بمعنى الطريق.

(٥)أى: يذكر الضمير المؤنث مقام المذكر.

(٦) أى: يذكر الضمير المذكر مكان الضمير المؤنث.

(٧)سورة الأنعام ٧٨ وهذا مثال لذكر المذكر مقام المؤنث قال السيد الآلوسى: هذا ربى إشارة إلى الجرم المشاهد من حيث هو، لامن حيث هو مسمى باسم من الأسامى، فضلاً عن حيثية تسميته بالشمس، ولذا ذكّر اسم الإشارة اهـ(روح المعانى ٧: ٢٠١).

(٨)سورة المؤمنون ٢٨ وهذا مثال لذكر الجمع مكان المفرد، فإن " القوم" مفرد فاللائق فى صفته أن تكون مفردةً، ولكن جمّع الصفة فقال:"الظالمين" نظرًا إلى معنى القوم فإنه جمع.

●وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[١]

إبدال التثنية بالمفرد

وقد يورد المفرد مكان التثنية، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوْا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ مِنْ فَضْلِه﴾[٢].

●وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّى،وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[٣] والأصل: "فعميتا" فأفرد، لأنهما كشَىْءٍ واحدٍ؛ ومثله: اَللّٰه وَرَسُوْله أَعْلَمُ[٤].

إبدال الجزاء وجواب القسم بجملة مستقلة

وقد تقتضى طبيعة الكلام أن يذكر الجزاء فى صورة الجزاء، والشرط فى صورة الشرط، وجواب القسم فى صورة جواب القسم، فيتصرف سبحانه وتعالى فى الكلام،ويجعل ذلك الجزء من الكلام جملة مستقلة مستأنفة، لتنتظم[٥] بالمعنى ، ويقيم شيئًا يدل عليه بوجه من الوجوه، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا،وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا،والسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾[٦] المعنى: البعث والحشرحق

---

(١)سورة البقرة ١٧ أفرد الضمير فى "استوقد" مراعاة للفظ الموصول، وجَمَّع فى قوله: "بِنُوْرِهِمْ" مراعاة لمعنى "الذى"

(٢)سورة التوبة ٧٤ أفرد الضمير، فى قوله: من فضله، لأن الفضل هنا بمعنى الرزق، وهو لايكون إلا من الله.

(٣) سورة هود ٢٨

(٤) والأصل : أَعْلَمَان؛ فأفرد لأن الرسول عِلْمُه هوما علَّمَه الله تعالى، فهما كشيئ واحد.

(٥) انتظم الشيءُ: تألَّف واتَّسق.

(٦) سورة النازعات ١-٦ وقيل : التقدير:" لتبعثن ولتحاسبن" بدليل إنكارهم البعث فى قولهم ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُوْدُوْنَ فِىْ الْحَافِرَةِ﴾(البرهان ٣:١٩٢)

يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾.

•وقوله تعالى: ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ والْيَوْمِ الْمَوْعُوْدِ، وَشَاهِدٍ وَّمَشْهُوْدٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُوْدِ﴾[1] المعنى: المجازاة على الأعمال حق.

•وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وتَخَلَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، يَأيها الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[2]

المعنى: الحساب والجزاء كائن.

إبدال الخطاب بالغيبة

وقد يقلِّب الله تعالى أسلوبَ الكلام، بأن يقتضى الأسلوبُ الخطابَ فيأتى بالغائب[3]، نحو قوله تعالى: ﴿حَتّٰى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ﴾[4].

---

(١) سورة البروج ١- ٤ وقيل: التقدير: " أنهم ملعونون" يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُوْدِ﴾

(٢)سورة الانشقاق١-٦ وقال الزمخشرى فى الكشاف (٤: ٥٧٩): حذف جواب إذا ليذهب المقدّر كلَّ مذهب؛ أواكتفاءً بما علم فى مثلها من سورتى التكوير والانفطار،وهو قوله: علمت نفس اهـ وقال الفراء: أى: فيومئذ يلاقى حسابه (البرهان ٣: ١٩٤).

(٣)ويسمى" التفاتًا" وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارًا للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملال والضجر،بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، قال حازم فى منهاج البلغاء: وهم يسأمون من الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة.

واعلم أن للتكلم والخطاب والغيبة مقامات، والمشهور أن الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول: وأقسامه كثيرة فراجع لها البرهان (٣: ٣١٤- ٣٢٥ والإتقان)

(٤)سورة يونس ٢٢ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة فقد التفت عن"كنتم" إلى "بهم"

إبدال الإخبار بالإنشاء وبالعكس

وقد يذكر سبحانه وتعالى الإنشاء مكان الإخبار، والإخبار مكان الإنشاء نحوُ:

• قوله تعالى: ﴿فَامْشُوْا فِيْ مَنَاكِبِهَا﴾[1] أى لتمشوا.

• وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾[2] أى إيمانكم يقتضى هذا.

• وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ﴾[3] المعنى: على قياس حال ابن آدم كتبنا، أو: على مثال حال ابن آدم؛ فأبدل منه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ لأن القياس لايكون إلا بملاحظة العلة؛ فكأن القياس نوع من التعليل.

• وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾[4] هو فى الأصل بمعنى الاستفهام، من الرؤية، ولكن نقل هُنا ليكون تنبيها على استماع الكلام الآتى بعده كما يقال فى العرف: ترى شَيْئًا؟ تسمع شيئًا؟

التقديم والتأخير[5] والتعلق بالبعيد وما شابَهَهُما

وقد يوجب التقديمُ والتأخير أيضًا صعوبةً فى فهم المراد[6]، كما فى

---

(١) سورة الملك ١٥ وامشوا صيغة أمر وتمشوا فعلُ مضارع فأبدل الإخبار بالإنشاء

(٢) سورة البقرة ٩٣ (٣) سورة المائدة ٣٢

(٤) فى غير موضع، كمافى أول سورة الماعون، وكما فى سورة العلق ١٠ و١٢و١٣ وكما فى سورة الفرقان ٤٣

(٥) قال الجرجانى فى دلائل الإعجاز (ص٧٧): هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفترلك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولاتزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطفك عندك أن قدم فيه شيئ وحول اللفظ عن مكان إلى مكان اه.

(٦) كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِيْ نَفْسِهِ خِيْفَةً مُوْسَىٰ﴾ (سورة طه ٦٧) لأن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أخَّر الفاعل، وهو "موسى" لأجل رعاية الفاصلة، ولأن النفس تتشوق لفاعل "أَوْجَسَ" فإذا جاء بعد أن أُخِّر لوقع بموقع، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ (=

الشِّعر المشهور[١]:

بُثَيْنَةُ شأنُها سلبتْ فؤادى   بلاجرم أتيتُ به سلاما[٢]

والتعلقُ بالبعيد أيضًا مما يوجب الصعوبة فى الكلام، وكذلك مايكون من هذا القبيل [٣]، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿إلاَّ آلَ لُوْطٍ،إنَّا لَمُنَجُّوْهُمْ أَجْمَعِيْنَ،إلاَّ امْرَأَتَهُ﴾[٤]أدخل الاستثناء على الاستثناء فصعُب.

●وقوله تعالى: ﴿فَمَايُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّيْنِ﴾[٥]متصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ﴾[٦]

●وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوْا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾[٧]أى يدعو من ضره .

●وقوله تعالى: ﴿ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ﴾[٨] أى لتنوأ العصبة بها.

(=) مُسَمّى﴾(سورة طه ١٢٩) فإن قوله ﴿وَأَجَلٌ مُسمى﴾ معطوف على "كلمة" ولهذا رُفع، والمعنى :ولولا كلمة سبقت من ربك(فى التأخير) وأجل مسمى لكان العذاب لزامًا؛ ولكنه قدم وأخر، لتشتبك رؤس الآى.

---

(١)والشعر لجميل بن عبد الله بن معمر، وبثينة ــ كجهينة ــ العذرية صاحبته، معروفة، وهى: بثينة بنت حبابن ثعلبة؛ وقد كانا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم (راجع تاج العروس مادة بثن) وهى المرادة فى هذا الشعر:

وما كلُّ مخضوبِ الْبَنَانِ بُثينة   ولاكلُّ مصقولِ الحديد يمانى

(٢)أى: سلبت بثينة فؤادى، بلاجرم أتيت به، شأنها يكون سلاما! فقدم فاعل سلبت وهو بثينة؛ وأتى بالفصل بين شأنها وخبره: يكون سلامًا، وقوله : بلاجرم مبتدأ يتعلق بمحذوف؛ وخبره أتيت به.

(٣)أى من قبيل التعلق بالبعيد فى إيراث الصعوبة فى الكلام .

(٤) سورة الحِجْر ٥٩ و٦٠   (٥) سورة التين ٧   (٦) سورة التين ٤

(٧) سورة الحج ١٣ واللام زائدة، ومَن مفعول يدعوا، وضره مبتدأ وأقرب خبره والجملة صلةَ من(صاوى)

(٨)سورة القصص ٦٧ قال أبو زيد: تنوء من نُوْ ت بالحمل: إذا نهضت به اهـ (=)

•وقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوْا بُرُءُوْسِكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ﴾(١) أى اغسلوا أرجلكم.

•وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾(٢) أى ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان لزامًا(٣).

•وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾(٤) متصل بقوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ (٥).

•وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيْمَ﴾ متصل بقوله ﴿لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىْ إِبْرَاهِيْمَ﴾(٦)

•وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾(٧) أى يسئلونك عنها كأنك حفى،

الزيادة فى الكلام(٨)

والزيادة على السنن الطبيعى أيضًا على أقسام:

(=) فى الآية على هذا قلب، والأصل: تنوء العصبة بها، أى: تنهض، وقيل يجوز أن لايكون هناك قلب لأن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة إذا نهضت العصبة بها والصحيح: أن تنوء من ناء به الحمل: إذا أثقله حتى أماله، فالباء للتعدية، كما فى "ذهبت به" والعصبة: الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص على ماذكره الراغب.

(١) سورة المائدة ٦ (٢) سورة طه ١٢٩

(٣) ولولا هذا التقدير لكان "أجل" منصوبا كـ "لزامًا" ففيه تقديم وتأخير.

(٤) سورة الأنفال ٧٣ (٥) سورة الأنفال ٧٢

(٦) سورة الممتحنة ٤

(٧) سورة الأعراف ١٨٧ وفيه تقديم وتأخير، وقوله: حفى أى مبالغ فى السؤال، من قولهم: أحفيت فى المسئلة: إذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها.

(٨) قد اختلف فى وقوع الزائد فى القرآن، فمنهم من أنكره، قال الطرطوسى فى "العمدة": زعم المبرد أن لاصلةَ فى القرآن؛ والدهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثباب الصلات فى القرآن اه وقال ابن خباز فى "التوجيه": (=)

الزيادة بالصفة:

قد تكون الزيادة في الكلام بالصفة، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[1].

●وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعًا، وَإِذَا مَسَّهُ

(=) وعند ابن السراج أنه ليس فى كلام العرب زائد، لأنه تَكَلُّمٌ بغير فائدة. وماجاء منه حمله على التوكيد اه وقال ابن جنى: كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى اه.

والأكثرون يُنكرون إطلاق هذه العبارة فى كلام الله،ويسمونه " التأكيد" ومنهم من يُسَمِّيْه بالصلة، ومنهم من يسميه " بالمقحم".

والحاصل: أن معنى كونه: زائدًا أن أصل المعنى حاصل بدونه، دون التأكيد فبوجوده حصل فائدة التأكيد؛ والواضع الحكيم لايضع الشيئ إلا لفائدة.

(١)سورة الأنعام ٣٨ فقوله:يطير ، لتأكيد أن المراد بالطائر حقيقته، فقد يطلق مجازًا على غيره؛ وقوله بجناحيه لتأكيد حقيقة الطيران، لأنه يطلق مجازًا على الإسراع فى المشى، ونظيره:يقولون بألسنتهم؛ لأن القول يطلق مجازًا على غير اللسان،بدليل :يقولون فى أنفسهم، وكذا: تعمى القلوب التى فى الصدور ،لأن القلب قد يطلق مجازًا على العين.

ثم اعلم أن زيادة الصفة ترد لأسباب:

أحدها: التخصيص فى النكرة نحو: ﴿ فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾

والثاني: التوضيح فى المعرفة أى زيادة البيان، نحو: رسوله النبى الأمى .

والثالث:المدح والثناء،ومنه صفات الله تعالى، نحو﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾

والرابع: الذم، نحو﴿ أعوذ بالله من الشيطن الرجيم﴾

والخامس:التأكيد لرفع الإبهام، نحو ﴿لَاتَتَّخِذُوْا اِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾(الاتقان من النوع السادس والخمسين من الفصل الثالث)

الْخَيْرُ مَنُوْعًا﴾[1].

الزيادة بالإبدال بدل مبدل منه

وقد تكون بالإبدال، نحوقوله تعالى: ﴿لِلَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوْا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾[2]

الزيادة بالعطف التفسيرى عطف بيان

وقد تكون بالعطف التفسيرى، نحو قوله تعالى: ﴿ حَتّٰى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَبَلَغَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً﴾[3]

الزيادة بالتكرار[4] تاكيد

وقد تكون بالتكرار، نحو:

---

(١) سورة المعارج ١٩-٢١ الهَلَع: سرعة الجزع عندمس المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير، من قولهم: ناقةٌ هَلُوْعٌ: سريعة السير؛ وسئل ابن عباس عن الهلوع؟ فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الآيتين، ونظير ذلك قوله:

الألمعى: الذى يظن بك الظـ ـن كأن قد رأى وقد سمعا

وقوله: جزوعًا أى: مبالغا فى الجزع مكثرا منه، وقوله: منوعًا: أى مبالغا فى المنع والإمساك، والوصفان صفتان كاشفتان لهلوعًا، الواقع حالا (الروح ٢٩: ٦٢)

(٢) سورة الأعراف ٧٥ معناه: لمن آمن من الذين استضعفوا، ففيه زيادة بالبدل، والقصد بها الإيضاح بعد الإبهام، وفائدته: البيان والتأكيد، قال الآلوسى: وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الموصول بإعادة العامل، بدل الكل من الكل، كقولك: مررت بزيد بأخيك؛ والضمير المجرور راجع إلى قومه اه (الروح ٨: ١٦٤)

(٣) سورة الأحقاف ١٥ قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً﴾ الظاهر أنه بلوغ الأشدّ والعطف للتأكيد، لأن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى جدًا خَلْقُه الذى هو عليه فلايكاد يزايله بعدُ. وفى الحديث: " إن الشيطان يجر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبى! وجه لايفلح!" (الروح ٢٦: ١٨)

(٤) قال السيوطى رحمه الله: النوع الرابع: التكرير، وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، وله فوائد:

(=)

•قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَّتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾[1] أصل الكلام: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن.

•وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ هُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ــ وَكَانُوْا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا ــ فَلَمَّا جَاءَ هُمْ مَا عَرَفُوْا كَفَرُوْا بِهِ﴾[2]

•وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِيْنَ لَوْ تَرَكُوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوْا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوْا اللهَ﴾[3].

•وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ؟ قُلْ: هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[4] أى

(=) منها: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر.

ومنها: زيادة التنبيه على ماينفى التهمة، ليكمل تلقى الكلام بالقبول.

ومنها: إذا طال الكلام وخشى تناسى الأول أعيد ثانيا تطرية له وتجديدًا بعهده

ومنها: التعظيم والتهويل نحو: وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين وما إلى ذلك من الفوائد (الإتقان مختصرًا)

(١) سورة يونس ٦٦ وأعيد الفعل ثانيا تجديدا بعهده.

(٢) سورة البقرة ٨٩ كنى عن الكتاب المتقدم بـ "ماعرفوا"، والتكرار لبيان كمال مكابرتهم، لأن الآية مساقة على بيان حد قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أى: جحدوا مع علمهم به، وهذا أبلغ فى ذمهم فحينئذ قوله تعالى: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ جواب لمّا الأولى، ولما الثانية تكرير لها لطول العهد.

(٣) سورة النساء ٩ وفيه تكرار من غير لفظه.

(٤) سورة البقرة ١٨٩ وقوله: والحج عطف على الناس فهذا تخصيص بعد تعميم، ففيه تكرار لدخول الخاص تحت العام؛ والمواقيت جمع ميقات صيغة آلة، أى: مايعرف به الوقت، فالأهلة تكون معالم للناس؛ يوقتون بها أمورهم الدنيوية، ويعلمون بها أوقات زروعهم ومتاجرهم، ومعالم للعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها كالصيام والإفطار وخصوصًا الحج، فإن الوقت مراعى فيه أداءً وقضاءً، ولو كان الهلال مدورًا كالشمس أوملازمًا حالة واحدة، لم يكد يتيسر التوقيت به (من الروح ملخصا ٢: ٧١)

هى مواقيت للناس باعتبار أن الله تعالى شرع لهم التوقيت بها، وللحج باعتبار أن التوقيت بها حاصل للحج، ولوقيل:"هى مواقيت للناس فى حجهم" لكان أخصر ؛ ولكن أطنب.[١]

•وقوله تعالى:﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمعِ﴾[٢] أى تنذر أم القرى يوم الجمع.

•وقوله تعالى:﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾[٣]أى ترى الجبال جامدة؛ أدخل "الحسبان" لأن "الرؤية" تجيء لمعان، والمراد بها ههنا معنى "الحسبان".

•وقوله تعالى:﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَّاحِدَةً، فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّيْنَ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوْا فِيْهِ ـــ وَمَا اخْتَلَفَ فِيْهِ إِلاَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوْهُ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ـــ فَهَدَى اللّٰهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا لِمَا اخْتَلَفُوْا فِيْهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ،وَاللّٰهُ يَهْدِيْ مَنْ يشَاءُ إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ﴾[٤]أدخل:﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيْهِ إِلاَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوْهُ﴾فى تضاعيف الكلام

---

(١)قلت: ليس فيه تكرار ولاإطناب، بل تخصيص الحج لأمر مهم، فمعنى الآية قل: إن الأهلة يعرف بها الناسُ أوقاتهم فى أمورهم الدنيوية والدينية: كالصلوة والصوم، وتكون أوقاتهم مختلفة حسب تباين بلدانهم واختلاف مطالعهم ويُعرف بها أيضًا وقت الحج باعتبار أفق أم القرى، ويجب على الناس أن يتركوا أوقاتهم المحلية ويؤدوا الحج بحسب التاريخ المكى، ففى الآية رد على من ذهب إلى "توحيد الأهلة" فى الصيام والأعياد فى جميع أقطار العالم؛ بل "توحيد الأهلة" ـــ إن كان التعبير مناسبا ـــ يكون فى الحج فحسب، وأما ماسواه من العبادات، فكما لاتوحّد أوقات الصلاة فى جميع العالم، كذا لاتوحد أوقات الصيام والأعياد أيضًا.

(٢)سورة الشورى٧ ويوم الجمع: يوم القيامة، والإنذار يتعدى إلى مفعولين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، فههنا المفعول الأول: أم القرى ومن حولها، والثانى: يوم الجمع .

(٣) سورة النمل ٨٨

(٤)سورة البقرة ٢١٣

المنتظم بعضه ببعض، بيانا لضمير: "اختلفوا" وأيذانا بأن المراد من "الاختلاف" ههنا: هو الاختلاف الواقع فى أمة الدعوة بعد نزول الكتاب: بأن آمن بعض وكفر بعض(١).

زيادة حرف الجر

وقد يزيد سبحانه وتعالى حرف الجر على الفاعل، أو المفعول به، ويجعله معمولا للفعل بواسطة حرف الجر، لتأكيد الاتصال، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾(٢) أى تُحمى هى.

---

(١) فحينئذ معنى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَّاحِدَةً﴾ أى: متفقة على الكفر، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَّاحِدَةً﴾ أى: مجتمعة على الكفر (فاختلفوا) أى بعد بعث الأنبياء فبعضهم آمنوا وبعضهم أصروا على الكفر، وإصرارهم هذا يقتضى الهلاك ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيْمَا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ﴾ (يونس ١٩) أى: ولكن سبقت كلمة ربك إلى أجل مسمى، فلذا أمهلهم إلى أجلهم، فإذا جاء أجلهم فيذوقون وبال أمرهم. والدليل على هذا المعنى أن الآية مسوقة فى تضاعيف أحوال المشركين.

تنبيه: وأما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَّاحِدَةً وَّلٰكِنْ يُّدْخِلُ مَنْ يَّشَاءُ فِى رَحْمَتِهٖ وَالظّٰلِمُوْنَ مَالَهُمْ مِنْ وَّلِيٍّ وَّلاَنَصِيْرٍ﴾ (الشورى ٨) أى لو شاء الله لجعل الناس أمة متفقة على الكفر أو الإيمان بحيث لايستطيعون خلافه ولكنهم حينئذ لايستحقون رحمة الله لكونهم غير مختارين فيما يفعلون والله يريد أن يُدخل من يشاء فى رحمته، فألهمهم فجورهم وتقواهم، ثم أرسل رسوله لينذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع، فمن آمن به فهو فى الجنة، ومن ظلم نفسه فهو فى السعير وليس له من ولى ولانصير، والدليل على هذا المعنى قول ابن عباس رضى الله عنهما، فإنه قال: أمة واحدة أى على دين واحد أى مهتدين أوضالين.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْشَاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِىْ مَاآتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوْا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائده ٤٨)

(٢) سورة التوبة ٣٥ وأحمىٰ إحماءً الحديدَ: أسخنه شديدًا؛ والضمير لكنوز (ـــ)

●وقوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾[1] أى قفينا هم بعيسى ابن مريم .

واو الاتصال

وينبغى أن يُعلم هنا نكتةٌ، وهى أن " الواو" تستعمل فى مواضع كثيرة لتوكيد الاتصال، لاللعطف، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ – إلى قوله تعالى – وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [2]

●وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[3].

●وقوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[4].

(⟸) الأموال المفهومة من الكلام، وأصله:تحمى هى بالنار، ثم حذفت النار فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير، كما تقول: رُفعتِ القصةُ إلى الأمير: فإذا طرحت القصة قلت: رُفع إلى الأمير.

(١)سورة المائدة ٤٦ والتقفية: الاتباع ،ويقال: قفافلان إثرفلان: إذا تبعه، وضمير الجمع المجرور للنبيين الذين أسلموا، والفعل كما قيل متعد لمفعولين أحدهما بنفسه والآخر بالباء؛ فالتقدير: قفيناهم بعيسىَ ابن مريم.

(٢)سورة الواقعة ١-٧

(٣)سورة الزمر ٧٣ والمشهور أن الواو للحال،والجملة حالية بتقدير " قد" أى: جاء وها وقد فتحت لهم أبوابها، كقوله تعالى:﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ويشعر ذلك بتقدم الفتح، كأن خزنة الجنات فتحوا أبوابها، ووقفوا منتظرين لهم؛ وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه، وتقف منتظرة له، وفى ذلك من الاحترام والإكرام مافيه، وقد قال تعالى فى حق الكفار:﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة، فهى كسائر أبواب السجون لاتزال مغلقة حتى يأتى أصحاب الجرائم، الذين يسجنون فيها، فتفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها أغلقت عليهم(من الروح ٢٤:٢٤ و٣٤)

(٤)سورة آل عمران ١٤١

فاء الاتصال

وكذلك تزاد " الفاء" أيضا، قال القسطلانى[١] فى شرح كتاب الحج[٢] فى باب المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج، هل يجزيه من طواف الْوَداع؟:[٣]

ويجوز توسط العاطف بين الصفة والموصوف لتأكيد لصوقها بالموصوف، نحو: ﴿إِذْ يَقُوْلُ الْمُنَافِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِىْ قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ﴾[٤] قال سيبويه:[٥] هو مثل: " مررت بزيد وصاحبك" إذا أردت بصاحبك زيدًا.

وقال الزمخشرى[٦] فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ

---

(١)هو:أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلانى، القتيبى، المصرى، من علماء الحديث،ولد سنة ٨٥١ هـ وتوفى سنة ٩٢٣هـ مولده ووفاته فى القاهرة، من كتبه: إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى، والمواهب اللدنية فى المنح المحمدية فى السيرة النبوية.

(٢)من الجامع الصحيح للإمام البخارى رحمه الله.

(٣)الجزء الثالث ص ٣٢٩ (٤)سورة الأنفال ٤٩

(٥)هو:عمروبن عثمان بن قنبر، الحارثى بالولاء، أبو بشر، المقلب سِيْبَوَيْه (بالفارسية رائحة التفاح) ولد سنة ١٤٨هـ وتوفى سنة ١٨٠هـ إمام النحاة وأول من بسط علم النحو،ولد فى إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة فلزم خليل بن أحمد، ففاقه، وصنف كتابه المسمى "كتاب سيبويه" فى النحو لم يُصنع قبله ولابعده مثله، وهو مطبوع، ورحل إلى بغداد فناظر الكسائى، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم؛ وعاد إلى الأهواز فتوفى بها.

(٦)هو محمود بن عمر الخوارزمى الزمخشرى، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ولد فى زمخشر (من قرى خوارزم) سنة ٤٦٧هـ وسافر إلى مكة فجاوربها زمنا فلقب بجار الله وله الكشاف فى التفسير وأساس البلاغة والمفصل وغيرها، توفى سنة ٥٣٨هـ

﴿مَعْلُوْمٌ﴾:[1] جملة[2] واقعة صفة لقرية؛ والقياس أن لاتتوسط الواو بينهما، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُوْنَ﴾[3] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال فى الحال: جاء نى زيد عليه ثوب، وجاء نى زيد وعليه ثوب (انتهى)[4]

انتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة

وربما تكون الصعوبة فى فهم المراد لانتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة، نحوُ:

- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ، وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[5] يعنى أن الشياطين ليصدون الناس عن السبيل، ويحسب الناس أنهم مهتدون.
- وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِيْنُهُ﴾[6] المراد به الشيطان فى موضع واحد[7]، وفى الموضع الآخر الملَك.
- وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ مَاذَايُنْفِقُوْنَ؟ قُلْ: مَاأَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾[8] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُوْنَكَ مَاذَا يُنفِقُوْنَ؟ قُلِ: الْعَفْوَ﴾[9] فالأول معناه: أىُّ إنفاق ينفقون؟ وأىُّ نوع من الإنفاق ينفقون؟ وهو صادق بالسؤال عن المصرف،

---

(١) سورة الحجر ٤ (٢) أى: قوله تعالى: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُوْمٌ﴾

(٣) سورة الشعراء ٢٠٨

(٤) أى: انتهى كلام الزمخشرى؛ وبه انتهى النقل من القسطلانى أيضًا والنص فى الكشاف ١: ٧١٤ (طبع كلكتة)

(٥) سورة الزخرف ٣٧ فهذا مثال لانتشار الضمائر؛ وقوله: إنهم مهتدون أى: يحسب الناس أن الشياطين مهتدون إلى سبيل الحق؛ وإلا لما اتبعوهم.

(٦) فى سورة قٓ فى موضعين فى آية ٢٣ و ٢٧ وهذا مثال لإرادة المعنيين من كلمة واحدة.

(٧) هذا فى الآية ٢٧ (٨) سورة البقرة ٢١٥

(٩) سورة البقرة ٢١٩ وهذا أيضًا مثال لإرادة المعنيين من كلمة واحدة.

لأن الإنفاق يصير باعتبار المصارف أنواعا؛ والثانى معناه: أىُّ مال ينفقون؟

ومن هذا القبيل[1]: مجيء لفظ" جعل" و"شىء" ونحوهما لمعان شتّى:

- قديجيء " جعل" بمعنى خلق، كقوله تعالى :﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ﴾[2]
- وقد يكون بمعنى اعتقد، كقوله تعالى:﴿وَجَعَلُوْا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾[3]

ويجيء "شيء"مكانَ الفاعل، والمفعول به والمفعول المطلق وغيرها، نحوُ:

- قوله تعالى:﴿أَمْ خُلِقُوْا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾[4] أى من غير خالق.
- وقوله تعالى:﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾[5] أى عن شيئ مما تتوقف فيه من أمرى.

وقد يريد بالأمر والنبأ والْخَطْب المخبرَ عنه، نحوُ:

- قوله تعالى:﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيْمٌ﴾[6] أى قصة عجيبة.

وكذلك: كلمتا الخيروالشر وما فى معناهما يختلف المراد منهما حسب اختلاف المواضع.

ومن هذا القبيل[7]: انتشار الآيات: قد يُبادِر إلى آية مقامُها الأصلى بعد إيراد القصة، فيذكرها قبل تمام القصة، ثم يعود إلى القصة فيتمها[8]

وقد تكون الآية: متقدمة فى النزول، متأخرة فى التلاوة نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[9]مقدمة فى النزول وقوله تعالى:﴿سَيَقُوْلُ السُّفَهَاءُ﴾[10]متأخرة؛ وفى التلاوة بالعكس.

وقد يُدرَج الجوابُ فى تضاعيف أقوال الكفار، نحو قوله تعالى :﴿وَلاَتُؤْمِنُوْا

---

(١)أى من قبيل إرادة المعنيين من كلمة واحدة .

(٢) سورة الأنعام ١ (٣) سورة الأنعام ١٣٦ (٤)سورة الطور ٣٥

(٥) سورة الكهف ٧٠ وهذا من قول الخضر لسيدنا موسى عليه السلام.

(٦)سورة صٓ ٦٧ (٧) أى من قبيل انتشار الضمائر

(٨) كما فى سورة الحجر ٦٠ (٩) سورة البقرة ١٤٣ (١٠)سورة البقرة ١٤٢

﴿إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِيْنَكُمْ _ قُلْ: إِنَّ الْهُدَى هَدَى اللّٰهِ _ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوْتِيْتُمْ﴾[1]
وبالجملة: فهذه المباحث تحتاج إلى تفصيل كثير، وفيما ذكرناه كفاية؛ ومن قرأ القرآن الكريم من أهل السعادة، واستحضر هذه الأمور عند تلاوته؛ أدرك بأدنى تأمل غرضَ الكلام ومغزاه، ويقيس غير المذكور على المذكور، وينتقل من مثال إلى أمثلة أخرى.

الفصل الخامس
فى
بيان المحكم، والمتشابِه والكناية والتعريض والمجاز العقلى

المحكم:[2]

لِيُعلم أن المحكم هو مالا يُدرِك العارفُ باللغة من ذلك الكلام إلا معنى

---

(١) سورة آل عمران ٧٣ وأتى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّٰهِ﴾ معترضا بين الفعل ومتعلقه؛ وفائدة الاعتراض: الإشارة إلى أن كيدهم غيرضار لمن لطف اللّٰه تعالى به بالدخول فى الإسلام، أو زيادة التصلب فيه، ويفيد أيضًا أن الهدى هداه فهو الذى يتولى ظهوره (الروح ٣: ٢٠٠)

(٢) قال اللّٰه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (سورة آل عمران ٧) فأما المحكم فأصله لغة: المنع تقول: أحكمت بمعنى رددت ومنعت؛ والحاكم: لمنعه الظالم من الظلم؛ وحَكَمَةُ اللجام: هى التى تمنع الفرس من الاضطراب، فأما فى الاصطلاح فاختلف فى معناه وذكر السيوطى فى الإتقان فى النوع الثالث والأربعين بضعة عشر أقوالا، والمختار عند المصنف :أن المحكم: مالايحتمل إلاوجها واحدًا والمتشابه: مااحتمل أوجها، فقد قال فى حجةالله البالغة (١: ٤١٦):قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (سورة آل عمران٧) فأمَّا المحكم فأصله لغة: المنع ، تقول: أحكمت بمعنى رددت ومنعت؛ والحاكم: لمنعه الظالم من الظلم؛ وحَكَمَةُ اللجام: هى التى تمنع الفرس من الاضطراب.

فأمافى الاصطلاح فاختلف فى معناه، وذكر السيوطى فى الاتقان فى (=)

واحدًا؛والمعتبر فَهمُ العرب الأولين، لافهمُ مدقِّقِى زماننا الذين يشقُّون الشَّعرةَ، فإن التدقيق الفارغ داءٌ عُضال يجعل المحكم متشابها، والمعلوم مجهولاً.

المتشابه:

والمتشابه هو ما يحتمل معنيين:

● لاحتمال رجوع الضمير إلى المرجَعين، كما قال رجل: " أَمَا إنّ الأمير أمرنى أن ألعن فُلانا، لعنه اللّٰه !"

● أو لاشتراك الكلمة فى معنيين،نحو قوله تعالى﴿لامَسْتُمْ﴾[١] فى الجماع واللمس باليد.

● أولاحتمال العطف على القريب والبعيد، نحو قوله تعالى:﴿وَامْسَحُوْا بِرُءُوْسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾[٢] فى قراءة الكسر.

● أولاحتمال العطف والاستيناف، نحو قوله تعالى:﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إلاَّ اللّٰهُ، والرَّاسِخُوْنَ فِى الْعِلْمِ﴾[٣].

(═) النوع الثالث والأربعين بضعة عشر أقوالا، والمختار عند المصنف: أن المحكم: مالايحتمل إلاوجهًا واحدا والمتشابه ما احتمل أوجها، فقد قال فى حجة اللّٰه البالغة(١:٦١٤): قوله تعالى:﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أقول: الظاهر أن المحكم مالم يحتمل إلاوجها واحدا، مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهٰتُكُمْ وَبَنٰتُكُمْ وَأَخَوٰتُكُمْ؛﴾ والمتشابه: مااحتمل وجوها، وإنما المراد بعضها كقوله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّلِحٰتِ جُنَاحٌ فِيْمَا طَعِمُوْا﴾حملها الزائغون على إباحة الخمر مالم يكن بغى أو إفساد فى الأرض، والصحيح حملها على شاربيها قبل التحريم اهـ

(١)سورة النساء ٤٣ وسورة المائدة ٦

(٢) سورة المائدة ٦ وأما فى قراءة النصب فيتعين العطف على البعيد.

(٣) سورة آل عمران ٧ قال الخطابى: المتشابه على ضربين:أحدهما: ماإذا رُدَّ إلى المحكم، واعتبِربه، عُرِف معناه، والآخر: مالاسبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو الذى تتبعه أهل الزيغ، فيطلبون تأويله، ولايبلغون كنهه، فيرتابون فيه. (═)

الكناية:(١)

والكناية هى أن يُثْبِت حكما من الأحكام، ولا يقصد به ثبوت ذلك الأمر

(=) وقال الراغب فى مفردات القرآن: الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه ومتشابه من وجه، ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لاسبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة وخروج دابة الأرض ونحو ذلك؛ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة؛ وضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم، ويخفى على من دونهم وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس: " اللهم فَقِّه فى الدين، وعلمه التأويل"

وإذا عرفتَ هذا عرفت أن الوقوف على قوله: ﴿وَمَايَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾ ووصلَه بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُوْنَ فِيْ الْعِلْمِ﴾ جائزان، وأن لكل واحد منهما وجها، حسب ما دل عليه التفصيل المتقدم انتهى (الإتقان النوع الثالث والأربعون)

(١) قال الزركشى فى البرهان (٢: ٣٠٠) اعلم أن العرب تَعُدّ الكناية من البراعة والبلاغة، وهى عندهم أبلغ من التصريح، قال الطرطوسى: وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجارى الكنايات، ومنها قولهم: فلان عفيف الإزار، طاهر الذيل، وفى الحديث: كان إذا دخل العشر أيقظ أهلَه وشد المئزر، فَكَنَوْا عن ترك الوطء بشد المئزر، وكنى عن الجماع بالعُسَيْلة، وعن النساء بالقوارير، لضعف قلوب النساء اهـ

والكناية عن الشيئ: الدلالة عليه من غير تصريح باسمه؛ وهى عند أهل البيان: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلايذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة؛ ولكن يجيئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيؤمى به إليه، ويجعله دليلا عليه، فيدل على المراد من طريق أولى، مثاله قولهم: " طويل النِّجاد" و"كثير الرماد" يعنون طويل القامة وكثير الضيافة، فلم يذكروا المراد بلفظه الخاص به، ولكن توصلوا إليه بذكر معنى آخر، هو ردفه فى الوجود لأن القامة إذا طالت طال النجاد وإذا كثر القِرى كثر الرماد، وكقولهم فى المرأة " نَؤومُ الضُّحى" يريدون أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها، وكذا " بعيدة مهوى القرط" يعنون طول جيدها؛ وكذا: "ليل كموج البحر أرخى سدوله" وكقوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم ٤) وكقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (=)

بعينه، بل يقصد أن ينتقل ذهن المخاطب إلى لازمه بلزوم عادى أوعقلى، كما يفهم معنى كثرة الضيافة من قولهم: "عظيم الرماد" ويفهم معنى السخاوة من قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[١].

تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة:

وتصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة من هذا القبيل[٢]؛ وذلك باب واسع فى أشعار العرب وخُطَبهم؛ والقرآنُ العظيم وسنةُ نبينا صلى الله عليه وسلم مشحون به، نحو:

- قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[٣]: شبَّه الشيطان برئيس قُطَّاع الطريق، حيث ينادى أصحابَه، فيقول: "تعالَ من هذه الجهة" و"ادخل من تلك الجهة"[٤].
- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[٥]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾[٦] شبّه إعراضهم عن تدبر الآيات بمن غُلَّتْ يداه، أو بُنى حواليه سَد من كل جهة فلم يستطع النظر أصلاً.
- وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾[٧] يعنى اجمع خاطرك، ودع الاضطراب وقلق البال[٨].

(=) (سورة الأسراء ٢٤) وكقوله: " كأنى وأصحابى على قرن أغفرا" يريد أنهم غير مطمئنين (من دلائل الإعجاز ص ٤٥ والبرهان وإعجاز القرآن للباقلانى)

(١)سورة المائدة ٦٤ ففيه كناية عن سعة جوده وكرمه جدًا.

(٢)أى من قبيل الكناية. (٣)سورة الإسراء ٦٤

(٤)قال الآلوسى: وجوّز بعضهم أن يكون اسْتِفْزَازُه بصوته وإجلا بُه بخيْله ورَجِله تمثيلا لتسلُّطِه على من يُغويه، فكأن مِغوارًا وقع على قوم، فصوَّت بهم صوتًا يُزْعِجُهم من أماكنهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، ومراده أن يكون فى الكلام استعارة تمثيلية اهـ (الروح ١٥: ١١٢)

(٥)سورة يس ٩ (٦)سورة يس ٨ (٧)سورة القصص ٣٢

(٨)فضمُّ الجناح كناية عن التجلُّد والضبط، وفى الكشاف: والثانى: أن يراد (=)

ونظير ذلك [1] فى العرف:

•أنه إذا أراد أحد أن يبين شجاعة رجل يشير بالسيف أنه يضرب إلى هذه الجهة، ويضرب إلى تلك الجهة، وليس مقصوده إلا بيان غلبته أهلَ الآفاق بصفة الشجاعة، ولولم يأخذ السيف بيده مرة من الدهر.

•أويقولون: فلان يقول:"لاأرى أحدا على وجه الأرض يبارزنى"[2]؛ أو يقولون: " فلان يفعل كذا وكذا" ويشيرون بهيئة أهل المبارزة وقتَ مغالبة الخصم؛ ولولم يصدر عنه هذا القول قط، ولم يفعل هذا الفعل أصلاً.

•أويقولون: " فلان خنقنى ونزع اللقمة من فمى"[3]

التعريض[4]

والتعريض أن يذكر الله تعالى حكما عاما أو منكرًا،ويكون الغرض منه الإيماء إلى حال رجل خاص، أو التنبيهُ على حال رجل معين، ويأتى فى

(=) بضم جناحه إليه تجلده وضبط نفسه، وتشدده عند انقلاب العصاحية، حتى لايضطرب ولايرهب؛استعارة من فعل الطائر، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلافجناحاه مضمومان إليه، مُشَمَّرَان؛ ومعنى: من الرهب: من أجل الرهب أى: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك؛ جعل الرهب الذى كان يصيبه سببا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه اهـ(الروح ٢٠:٧٥)

---

(١)أى نظير تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة.

(٢)بارَزَه مُبارَزَةً: خرج إليه فقاتله، فتبارزا.

(٣)هذه التعبيرات وأمثال هذه كلها من قبيل تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة؛ وخنقه خنقا من باب نصر: شد على حلقه حتى يموت.

(٤) التعريض فى الكلام لغة: ما تُفهِم به السامع مرادَك من غير تصريح، قال الجرجانى: قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزيةً وفضلاً، وأن المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة اهـ(دلائل الإعجاز ص ٤٨)

غُضون[1] الكلام بعضَ خصوصيات ذلك الرجل التى يعرِّف المخاطب عليه، فيغرَق القارئ فى الفكر فى مثل هذا الموضع ، ويحتاج إلى تلك القصة؛ و كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينكر على شخص يقول:" مابالُ أقوام يفعلون كذا و كذا"[2]،وكما:

●فى قوله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَّلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰه وَرَسُوْلُهُ أَمْرًا﴾ الآية [3] تعريض لقصة زينب وأخيه.

●وفى قوله تعالى:﴿وَلاَيَاْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾[4] تعريض بأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ففى هذه الصُّورِ،الم يطلعوا على تلك القصة لايدركون فحوى [5] الكلام .

المجاز العقلى[6]

والمجازالعقلى: هوأن يُسْنَدَ الفعلُ إلى غير فاعله، أويُجعل المفعول به

---

(١)يقال: جاء نى فى غُضُون كلامك كذا أى فى أثنائه وطَيَّاتِه.

(٢) لقصد السترعليه، ليكون أبلغ فى الاستعطاف.

(٣)سورة الأ حزاب ٣٦. نزلت فى زينب بنت جحش رضى الله عنها ابنةِ عمته صلى الله عليه وسلم: أُميمةَ بنت عبد المطلب؛ واسم أخيها عبد الله؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة، فأبت، ووافقها أخوها عبد الله على ذلك؛ فنزلت الآية، فرضيا وسلما، فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدًا وساق إليها عشرة دنانير وستين درهما مهرًا،وخمارًا وملحفة ودرعا وإزارًا وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر(الروح ٢٢:٢٣ ملخصا)

(٤)سورة النور ٢٢ خاطب بذلك أبابكر لما حرَّم مِسْطَحًا رِفْدَه، حين تكلم فى حديث الإفك.

(٥)فحوى القول: مضمونه ومرماه الذى يتَّجه إليه القائل ج فحاوٍ وفَحَاوَى.

(٦)المجازالعقلى وهو: أن تُسند الكلمة إلى غير ما هى له إصالة،بضرب من التأويل كسبَ زيد أباه: إذا كان سببا فيه، وكقوله تعالى:﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَ هُمْ﴾ والفاعل غيره، وإنما نسب الفعل إليه لكونه الآمر به؛ وكقوله تعالى:﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ نُسب (=)

ماليس بمفعول به فى الحقيقة ، لعَلاقة المشابهة بينهما، ويدَّعى المتكلم أنه داخل فى عَداده، وفرد من أفراده[1]

• كمايقولون: "بنى الأمير القصر" مع أن البانى بعض البنَّائين[2].

• وكما يقولون: "أنبت الربيع البقل" مع أن المنبت هو الله سبحانه وتعالى فى فصل الربيع[3]، والله أعلم بالصواب.

الباب الثالث
فى
بيان لطائف نظم القرآن ، وشرح أسلوبه البديع

الفصل الأول
فى
ترتيب القرآن الكريم، وأسلوب السُّور فيه

لم يُجعل القرآنُ مبوبا مفصلا على منهج المتون، لِيُذكر كل مطلب منه

(=) النزعُ ـــ الذى هو فعل الله! ـــ إلى إبليس ـــ لعنه الله ـــ لأن سببه أكل الشجر، وسببه وسوسته ومقاسمته إياهما أنه لهما لمن الناصحين؛ وكقوله تعالى﴿يَوْمًا يَّجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ نُسب الفعل إلى الظرف، لوقوعه فيه؛ وكقوله تعالى: ﴿حَتّٰى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾أسند وضع الآلات إلى الحرب، وهو لأهلها، إسنادًا مجازيا.

---

(١) أى: يدعى المتكلم أنه فى عداد الفاعل أو المفعول به.

(٢) أى: أهل العرف قد يحذفون الوسائط فى بعض المواضع، ويسندون الفعل إلى ماليس بفاعل له، كقولهم: بنى الأمير المدينةَ، وهزم الأمير الجند.

(٣)قد أسند الإنبات إلى الربيع فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى فى كتاب الرقاق عن أبى سعيد الخدرى قال:" لايأتى الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَضِرَةٌ حلوة.وإن كل ما أنبت الربيعُ يقتلُ حَبطًا أويُلِمُّ إلا آكلة الْخُضْرَة، تأكل حتى إذا امتدتْ خاصِرَتَاها اسْتَقْبَلَتِ الشمس فاجترت وثلطت،وبالت، ثم عادت فأكلت الحديث(البخارى ص ٩٥١)

فى باب أوفصل، بل افترض القرآن الكريم كمجموعة المكتوبات،فكما يوجِّه الملوك إلى رعاياهم حسب متقضيات الأحوال فرمانا، وبعد زمان يكتبون فرمانا آخر، وهلم جرًّا،حتى تجتمع فرامينُ كثيرة، فيدوِّنها شخص ويجعلها مجموعا مرتبا، كذلك أنزل الملِك على الإطلاق جلَّ شأنُه على نبيه صلى الله عليه وسلم لهداية عباده سورةً بعد سورة حسب مُتَطَلَّبات الظروف.

وقدكانت كل سورة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم محفوظةً مضبوطةً على حدة، ثم دوِّنت السور كلها فى مجلد واحد بترتيب خاص فى عهد أبى بكروعمررضى الله عنهما، وسمى هذاالمجموع بالمُصْحف[1].

---

(١)روى البخارى فى صحيحه (ص ٧٤٥): عن زيد بن ثابت: قال:أرسل إلىَّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبوبكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد اسْتَحَرّ(اشتدوكثر) يوم اليمامة بقراء القرآن؛ وإنى أخشى إن استحرَّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلتُ لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: هذا والله خير! فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك؛ وقد رأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: وقال أبوبكر: إنك رجل شاب عاقل لانتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فَتَتَبَّع القرآن واجمعه. قال زيد: فوالله لوكلفونى نقل جبل من الجبال ماكان أثقلَ على مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو والله خير! فلم يزل أبوبكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب (جريد النخل إذانحى عنه خوصه) واللِّخاف(حجارة بيض عريضة رقاق) وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى قبض، ثم عند حفصة بنت عمراه.

قال الخطابى: إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك،وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة؛ فكان ابتداءُ ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضى الله عنهما ـــ وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله (=)

تقسيم السُّور

وقد كانت السور مقسومة عند الصحابة رضى الله عنهم إلى أربعة أقسام[١]:

(ـــ) صلى الله عليه وسلم: لاتكتبوا عنى شيئا غير القرآن ـــ الحديث ـــ فلاينافى ذلك، لأن الكلام فى كتابة مخصوصة، على صفة مخصوصة، وقد كان القرآن كله كتب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن غير مجموع فى موضع واحد، ولامرتب السورة اه (الإتقان نوع ١٨)

وحكى المظفرى فى تاريخه، قال: لماجمع أبوبكر القرآن، قال: سموه، فقال بعضهم: سموه إنجيلا، فكرهوه؛ وقال بعضهم: سموه السِفْرَ فكرهوه من يهود؛ فقال ابن مسعود: رأيت بالحبشة كتابا يدعونه المصحف فسمُّوه به (الإتقان نوع ١٧)

والمصحف ـــ بالحركات الثلاثة ـــ: ما جمع من الصحف بين دَفَّتى الكتاب، المشدود؛ والجمع: مصاحف.

(١) قال الزركشى فى البرهان (١: ٢٤٤): قال العلماء رضى الله عنهم: القرآن العزيزأربعة أقسام: الطُول، والمئون، والمثانى، والمفصل؛ وقد جاء ذلك فى حديث مرفوع: " أعطيتُ السبع الطُول مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيتُ المثانى مكان الزبور، وفُضِّلتُ بالمفصل" وهو حديث غريب.

فالسبع الطول: أولها البقرة ، وآخرها براء ة؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأنفال والبراء ة سورة واحدة، ولذلك لم يَفْصِلوا بينهما لأنهما نزلتا جميعًا فى مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم اه

والطول ـــ بضم الطاء ـــ جمع طولى، كالكُبر جمع كبرى؛ وسميت طُولا لطولها.

والمئون: ماولى السبع الطول؛ سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

والمثانى: ماولى المئين.

والمفصل: مايلى المثانى من قصار السور، والصحيح عند أهل الأثر أن أوله "قٓ" ففى رواية أبى داود: أن أوس بن حذيفة سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تحَزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده (السنن لأبى داود باب تحزيب القرآن)

وحينئذ فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة كانت التى بعد هن سورة "قٓ".

القسم الأول : السبع الطُّوَل التى هى أطول السور.
والقسم الثانى: الْمِئُوْنُ: وهى التى تشتمل كل واحدة منها على مِائَة آية، أو تزيد قليلاً.
والقسم الثالث: المثانى : وهى ماتقِلُّ آياتُها عن المائة.
والقسم الرابع : المفصل.

وقد أُدخلت سورتان أو ثلاث هى من عداد المثانى فى المئين، لمناسبة سياقهابسياق المئين؛ وهكذا جرى التصرف فى بعض الأقسام الأخرى أيضًا[1]

القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه

وقد استنسخ عثمان رضى الله عنه عِدَّة نُسَخ من ذلك المصحف، وأرسلها إلى الآفاق، ليستفيد المسلمون منها، ولايميلون إلى ترتيب آخر[2].

(١) كما أن سورة الرعد (وآياتها ٤٣) وسورة إبراهيم(وآياتها ٥٢)وسورة الحجر (وآياتها ٩٩) وسورة مريم (وآياتها ٩٨) وسورة الحج (وآياتها ٧٨) كلها من المثانى، ووضعت فى المئين، وكذا سورة الشعراء(وآياتها ٢٢٧) وسورة الصافات(وآياتها ١٨٢) وضعتا فى المثانى، وكما قُرِنَ بين الأنفال وهى من المثانى وبين البراء ة وهى من المئين، فوضعتا فى السبع الطول.

(٢) قال الزركشى فى البرهان (١: ٢٣٥): واعلم أنه قد اشتهر أن عثمان هو أول من جمع المصاحف؛ وليس كذلك لما بيناه، بل أول من جمعها فى مصحف واحد الصديق، ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف فى القراء ة بتحويله منها إلى المصاحف، هكذا نقله البيهقى اه.

أقول: كان أمر جمع القرآن فى عهد أبى بكر خفيا لعامة المسلمين فى أقطار العالم، فلما استنسخ عثمان مصاحف، وأرسل بها إلى الآفاق عَلِمَ الناس بجمعه وتبادر إلى أذهان العامة أن عثمان رضى الله عنه هو الذى تولى بجمعه وليس كذلك، نعم هو الذى جمع الناس على القرآن فجزاه الله عنا بأحسن الجزاء.

واختلف فى عدة المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق، فالمشهور أنها خمسة وقيل سبعة؛ فأرسل إلى مكة والشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحدًا.

استهلال السور واختتامها على أسلوب الفرامين

ولما كانت بين أسلوب السور وأسلوب فرامين الملوك مناسبةٌ تامة، رُوعى فى البداية والنهاية طريقُ المكاتيب؛ فكما أنهم يبتدؤن بعضَها بحمد الله تعالى، وبعضَها ببيان غرض الإملاء، وبعضَها ببيان اسم المرسِل والمرسَل إليه؛ وبعضُها تكون رُقْعةً وَشِقَّة [1] بغيرعنوان، وبعضَها تكون طويلة،وأخرى مختصرة،كذلك استهَلَّ الله تعالى بعض السور بالحمد والتسبيح، وبعضها ببيان غرض التنزيل، كما قال تعالى:﴿ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيْهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿سُوْرَةٌ أَنْزَلْنٰهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [3]

وهذا القسم من السُّور يُشبِهُ بما يكتبون: [4]"هذا ماصالح عليه فلان وفلان" و"هذا ما أوصى به فلان" وقد كتب النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية: "هذا ما قاضى عليه محمد ـــــ صلى الله عليه وسلم. [5]

واستهلَّ بعضها بذكر المرسِل والمرسَل إليه،كما قال تعالى:﴿ تَنْزِيْلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ﴾ [6] وقال تعالى:﴿كِتٰبٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ﴾ [7].

وهذاالقسم يشبه بما يكتبون:"صدرالحكم من الباب العالى"أو يكتبون: "هذا إعلام من حضرة الخلافة إلى سكّان البلد الفلانى بأن الخ"؛ وقد كتب

---

(١) الرقعة ج رُقَع ورِقَاع: القطعة من الورق التى تكتب فيها، والشِقَّة ج شِقَق وشِقَاق:: ما شُقَّ من ثوب أوورق مستطيلاً.

(٢) سورة البقرة ٢ (٣) سورة النُّور١

(٤) أى فى استهلال الوثائق والمعاهدات.

(٥) كما فى الصحيح للإمام البخارى ص ٣٧٢ فى باب كيف يكتب هذا ماصالح فلان بن فلان الخ من كتاب الصلح.

(٦) سورة الجاثية٢ (٧) سورة هود١

النبى صلى الله عليه وسلم :"من محمد رسول الله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم"[١]

واستهلَّ بعضَها على أسلوب الرِّقاع والشِّقق بغيرعنوان، كما قال تعالى: ﴿إِذَاجَاءَ كَ الْمُنَافِقُوْنَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِىْ تُجَادِلُكَ فِىْ زَوْجِهَا﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[٤].

منهج القصائد فى مبتدأ بعض السور

ولما كانت فصاحةُ العرب تتجلى فى القصائد، وكان من عاداتهم القديمة فى مبدأ القصائد التشبيبُ[٥] بذكر المواضع العجيبة والوقائع الهائلة، فاختار سبحانه وتعالى هذا الأسلوب فى بعض السور، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾[٦] وقال تعالى: ﴿والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا، فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا﴾[٧] وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ،وَإِذَا النُّجُوْمُ انْكَدَرَتْ﴾[٨]

خواتم السورعلى منهج الفرامين

وكما أن الملوك يختمون فرامينهم بجوامع الكلم، ونوادرالوصايا، والتأكيد البليغ بتمسك الأوامر المذكورة، والتهديد الشديدلكل من يخالفها، كذلك ختم الله تبارك وتعالى أواخر السور بجوامع الكلم، ومنابع الْحِكَم[٩] والتأكيد البليغ والتهديد العظيم.

---

(١) كما فى الصحيح للإمام البخارى ص ٥ فى الباب الأول.

(٢) سورة المنافقون ١ (٣) سورة المجادلة ١ (٤)سورة التحريم ١

(٥) شبَّب قصيدته: حسَّنها وزينها بذكر النساء؛ والعادة أن يكون التشبيب فى مبدأ قصائد المدح، ثم سمى ابتداء كل أمر تشبيبا، وإن لم يكن فيه ذكر الشباب والنساء.

(٦)سورة الصافات١و٢ (٧)سورةالذاريات١و٢ (٨)سورةالتكوير ١ و ٢ .

(٩)الكلام الجامع: ما قلّت ألفاظه وكثُرت معانيه، والنوادر جمع النادرة مؤنث النادر، والمنابع جمع المنبع: مخرج الماء.

تخلل الكلام البليغ فى أثناء السور

وقد يؤتى فى أثناء السور بالكلام البليغ العظيم الفائدة البديع الأسلوب، الذى يشتمل على نوع من الحمد والتسبيح، أوعلى نوع من النعم والامتنان، كما:

- بدأ بيانَ التباين بين مرتبة الخالق والمخلوق بقوله: ﴿قُلِ: الْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَسَلٰمٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِيْنَ اصْطَفٰى، آللّٰهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾[١] ثم بين هذا الموضوع فى خمس آيات بأبلغ وجه وأبدع أسلوب.
- وبدأ مخاصمةَ بنى إسرائيل فى أثناء سورة البقرة بقوله: ﴿يٰبَنِىْ إِسْرَائِيْلَ اذْكُرُوْا﴾[٢] ثم ختمها بنفس هذا الكلام[٣]؛ فابتداء المحاجَّة بهذه الكلمة، وانتهاء هابها يَحْتَلُّ[٤] مكانا عظيما فى البلاغة.
- وبدأ المخاصمة مع أهل الكتاب فى سورة آل عمران بقوله: ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللّٰهِ الإِسْلَامُ﴾[٥] ليتَّضِح محلُّ النزاع، ويدورَ الحِوارُ[٦] على ذلك المدعى والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل الثانى

فى

تقسيم السور إلى الآيات، وأسلوبها الفريد

لقد جرت سنة الله تعالى فى أكثر السور[٧] بتقسيمها إلى الآيات، كما كانوا يقسمون القصائدَ إلى الأبيات.

---

(١) سورة النمل ٥٩ (٢) سورة البقرة ٤٧

(٣) راجع سورة البقرة ١٢٢ و١٢٣.

(٤) احتلَّ مكانا: حلَّه ونزله، واحتلَّ مكانا عظيما فى البلاغة أى له مكان عظيم فيها.

(٥) سورة آل عمرآن ١٩

(٦) الحِوار: حديث يجرى بين شخصين أو أكثر فى العمل القصصىّ.

(٧) ستقف على فائدة التقييد بالأكثر فى آخر الفصل.

الفرق بين الآيات والأبيات

وغاية مايقال فى الفرق بينهما: أن كلا منهما نشائد[1]، التى تُنشَد لالتذاذ نفس المتكلم والسامع؛ إلا أن الأبياتِ مقيدةٌ بالعَروض والقوافى.[2] التى دوَّنها الخليل بن أحمد[3] وتلقَّاها منه الشعراء، وبناءَ الآيات على الوزن والقافية الإجماليين، يُشبهان أمرا طبيعيا،لا على أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم،[4] وقوافيهم المعينة التى هى أمر صناعىٌ واصطلاحى.

---

(١)النشائد جمع النشِيد والنشيدة: ما يرفع فيه الصوت مع التلحين؛ وأنشد الشعر: قرأه رافعًا به صوته.

(٢)العروض :ميزان الشعر الذى يظهر به المتزن من المختلّ ، والقافية: آخر كلمة فى البيت، أوهى: من آخرساكن فيه إلى أول ساكن يليه، مع المتحرك الذى قبل الساكن، فلو قلت مثلاً:" ما أطولَ الليلَ على من لم يَنَمْ" كانت القافية " لم ينم" وسيأتى ذكرها بعبارة أخرى فى نفس الفصل .

(٣)هو خليل بن أحمد الفَرَاهِيدى:، الأزدى، اليَحمدى: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى، وكان عارفا بها، وهوأستاذ سبيويه النحوى ولد ومات بالبصرة (ولد سنة، ١٠٠هـ وتوفى سنة ١٧٠هـ)وعاش فقيرًا صابرًا، كان شَعِثَ الرأس، شاحب اللون(:متغيره) قَشْفَ الهيئة(:رثها) مُتَمَزِّق الثياب، متقطع القدمين (قصيرهما) مغمورافى الناس لايعرف، قال النضر بن شميل: مارأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه اهوفكّر فى ابتكار طريقة فى الحساب، تُسَهِّله على العامة، فدخل المسجد، وهو يَعْمَلُ فِكْره، فصدمته سارية وهو غافل ،فكانت سبب موته، وهو الذى اخترع العروض، وأحدث أنواعا من الشعر، ليست من أوزان العرب، وصنف " كتاب العين" فى اللُّغة ورتبه على الحروف ،فرحمه الله تعالى.

(٤) الأفاعيل والتفاعيل : أمثلة الأجزاء التى يتألف منها الشعر، وهى أربعة: فُعولن، مفاعيلن، مفاعلتن ،فاعلاتن،وبقية الأجزاء مأخوذة منها.

الأمر المشترك بين الآيات والأبيات

وأما تنقيح الأمر المشترك بين الآيات والأبيات ـــ ونعبِّر ذلك الأمرَ العامَّ بالنشائد(١) ـــ ثم ضبطُ تلك الأمور التى التُزم بها فى الآيات ـــ وذلك بمنزلة الفصل ـــ فكلُّ ذلك يحتاج إلى تفصيل (٢)، والله ولى التوفيق.

وتفصيل هذا الإجمال: أن الفطرة السليمة تدرك بذوقها فى القصائد الموزونة المقفَّاة، والأراجيز الرائقة الجميلة، (٣) وأمثالها، حلاوةً وعذوبةً؛ وإذا تأمل أحد فى سبب إدراك تلك الحلاوة، وجد أن نفس المخاطب تتذوَّق لذةً خاصة فى الكلام الذى يوافق بعضُه بعضا، ويجعلُها منتظرًا إلى كلام آخر مثلِه، فإذا سمعتْ بعد ذلك البيتَ الآخرَ مع ذلك التوافق والانسجام بين أجزائه(٤)، وتحقَّق الأمرُ المنتظَر، تضاعفت اللذةُ عند ذلك؛ ولما كان البيتان مشتركين فى قافية واحدة، ازدادت اللذَّةُ ثلاثةَ أضعافها؛ فالتمتع والالتذاذ بالأبيات بهذا السِّر فطرة قديمة فُطر الناس عليها، وأصحابُ الأمزجة السليمة من أهل الأقاليم المعتدلة(٥) متفقون على ذلك.

---

(١) وهذا بمنزلة الجنس.

(٢) أى: استخراج الأمر المشترك بين الآيات والأبيان، ثم ضبط مايميز الآيات من الأبيات محتاج إلى بسط وتفصيل وسيذكره المصنف عليه الرحمة. وذلك الأمر العام، المشترك بين الآيات والأبيات، يُعبّر بـ "النشائد"؛ وهى جمع النشيد والنشيدة: ما يترنَّم به من النثر والنظم، مع رفع الصوت؛ والأمور التى تميز الآيات من الأبيات بمنزلة الفصل للآيات، تُمَيِّزها من الأبيات.

(٣) قوله: الأراجيز جمع أرجوزة: قصيدة من بحر الرَّجز؛ والرَّجز: بحر من أبحر الشعر، معروف، وزنه: "مستفعلن" ست مرات، وإنما سمى الرجز رجزا لأنه تتوالى فيه حركة وسكون، ويُشبه بالرجز فى رجل الناقة ورعدتها، وهو أن تتحرك وتسكن، ويقال لها حينئذ رجزا؛ والرائقة: أعجبها وأحسنها.

(٤) الأجزاء: أركان الوزن.

(٥) تقدم تفسير "الأقاليم المعتدلة" فى فاتحة الفصل الثانى من الباب الأول.

ثم حدثت بعدذلك مذاهبُ مختلفة ورسومٌ متباينة فى توافق الأجزاء فى كل بيت من الأبيات، وكذا فى شروط القوافى المشتركة بين الأبيات: فالعرب عندهم ضوابطُ وأصولٌ بينها الخليل، والهنود يتبعون قانونا يحكم به سليقتهم اللغوية وقريحتُهم [١] الفطرية، وهكذا اختار أهل كل عصر وَضْعا من الأوضاع [٢] وسلكوا مسلكا من المسالك.

التوافق التقريبىُّ هو الأمر المشترك بيـن مختلـف الكـلام المنظـوم

وإذا أردنا أن ننتزع من بين هذه الرسوم والمذاهب المختلفة أمراً جامعًا مشتركًا، وتأملنا السِّرالمنتشرالشاملَ فيها، وجدنا أنه هو التوافق التقريبى، لاغير، لأن العرب يستعملون مفاعيلٌ [٣] ومفتعلنْ مكان مستفعلُن، ويعتبرون فُعْلاتُنْ بدل فاعلاتُنْ وفقَ القاعدة [٤]، ويجعلون موافقةَ ضَرْبِ [٥] بيتْ بضرب بيت آخر، وموافقةَ عَروض بيت بعروض بيت آخر،أمرًا مهمًّا؛ويجوّزون زِحافاتٍ كثيرةً فى الحشو [٦] بخلاف شعراء الفُرس، فإن الزِّحافات عندهم

(١) القريحة من الإنسان: طبيعته التى جُبل عليها.

(٢) الوضع: هيئة الشيء التى يكون عليها والمراد به الرسوم(٣)الإعراب حكائى.

(٤)إذا دخل الخَبْنُ فى " مستفعلن " يصير "مفاعيل": وإذا دخل الطَّىُّ عليه يصير "مفتعلن" إذا دخل فى " فاعلا تن " الخَبْن يصير "فعلاتن"

(٥)" الضرب " الجزء الأخير من المصراع الثانى من البيت مثال ذلك " فيه ماء " فى قول الشاعر:

فى فمى ماءٌ وهل ينـــ ـطق من فى " فيه ماء" ؟

جمعه ضروب وأضراب وأضْرُب، والعروض هنا هو الجزء الأخير من المصراع الأول من البيت.

(٦)الحشو فى الأصل: مايُجعل فى الوسادة، تُمْلأُ به وفى الاصطلاح: أركان البحر، الواقعة بين الصدر والعروض، وبين الابتداء والضرب؛ وسمى به لكونه محشوًا بين طرفى المصراع.

مستهجنة(١).

وكذلك تستحسن العربُ كونَ القافية في البيت "قبورًا" وفي البيت الآخر" منيرا" بخلاف شعراء العجم.

وهكذا يرى الشعراء العرب أن "حاصلْ" و"داخلْ" و"نازلْ" من قسم واحد، بخلاف الشعراء العجم.

وكذلك وقوع كلمة واحدة بين شطرَيِ البيت، بحيث يكون نصفها في الصَدْر ، والنصف الآخر في الْعَجُزِ(٢) صحيح عند العرب، لاعندالعجم.

وفَذْلَكة القول: أن الأمرالجامع المشترك بين الكلام المنظوم العربي والفارسي هو التوافق التقريبي، لاالتوافق التحقيقي.

وقد وضع الهنود أوزان شعرهم على عدد الحروف بدون ملاحظة الحركات والسكنات، وهي أيضًا تمنح لذةً وحلاوة، وقد سمعنا بعضَ أهل البداوة يختارون في تغريداتهم(٣) التي يتلذذون بها، كلامًا متوافقًا بتوافق تقريبي،

(=) والزحاف: تغيير مختص بثواني الأسباب مطلقا،بلالزوم أي: إذا دخل الزحاف في بيت من أبيات القصيدة لايجب التزامه فيما يأتي بعده من الأبيات بخلاف العلة؛ فلايدخل الزحاف في الأول والثالث والسادس من الجزء.

وهو نوعان: مفرد ومزدوج:

فالمفرد: وهوالذي يكون بمحل واحد من الجزء، وهو ثمانية: الخَبَن والإضمار ، والوقص، والطَّيُّ، والقبض، والعَصْب، والعَقْل، والكفّ.

والمزدوج: وهوالذي يكون في موضعين من الجزء، وهو أربعة: الطي مع الخبن، وهو الخبل؛ والطي مع الإضمار وهو الخزل؛ والكفّ مع الخبن، وهو الشكل؛ والكف مع العصب، وهو النقص (من الإفصاح على عروض المفتاح ص ١٩ للعلامة محمد إعزاز العلي رحمه الله)

(١)استهجنه: استقبحه.

(٢)الصدر :المصراع الأول من البيت والْعَجُز: المصراع الثاني منه.

(٣)غرَّد الطائر والإنسان: رفع صوته بالغناء وطَرَّب به .

أوردیفًا[1] ـــ تارة یكون كلمة واحدةً، وأخرى یزید علیها ـــ وینشدونها مثل القصائد، ویتلذذون بها؛ ولكل قوم أسلوب خاص فی كلامهم المنظوم.

وهكذا وقع اتفاق الأمم على الالتذاذ بألحانٍ ونغماتٍ، وتحقَّق اختلافهم فی قوانین تغریدهم، وأسالیب تلحینهم[2]

وقد وضع الیونانیون عددًا من الأوزان، یسمونها "المقاماتِ" واستنبطوا منها أصواتا وَشُعَبا، ودوَّنوا لأنفسهم فنًّامبسوطا مفصلاً.

وكذلك وضع الهنود ستة نغمات، وفرَّعوا منها نُغَیْمَاتٍ؛[3] وقد رأینا أهلَ البداوة منهم الذین لایعرفون هذین المصطلحین،تفطنوا بحسب سلیقتهم لتألیف الكلام وتلحینه، وتغنَّوا به من دون أن یضبطوا له الكلیاتِ، ویحصُروا له الجزئیات.

وإذا حكَّمناالْحَدْسَ[4] بعد هذه الملاحظات، لم نجد الأمر المشترك سوى التوافق التقریبی؛ ولاغرض للعقل إلا بذلك المنتزع الإجمالی، ولاهمَّ له فی تفاصیل القوافی المردفة الموصولة[5]؛ ولایحب الذوق السلیم إلا تلك

---

(١) الردیف عند العجم: كلمة مستقلة تأتی فی آخر البیت بعد القافیة.

(٢) لحَّن فی قراء ته: طرَّب فیها، وغرَّد بألحان. (٣) نغمة: راگ نُغَیْمَة: راگنیاں

(٤) الحَدْس: سرعة الانتقال فی الفهم والاستنتاج.

(٥) اعلم أن القافیة هی الحروف التی تبدأ بمتحرِّك، یلیه آخر ساكنین فی آخر البیت، مثل كلمةِ یُذْمَمْ فی قول زهیر:

ومن یَكُ ذا فَضْل فَیَبْخَلْ بِفَضْلِهِ على قومه یُسْتَغْنَ عنه ویُذْمَمْ

ثم اعلم أن الرَّوِیَّ: الحرف الذی تُبْنى علیه القصیدة، وإلیه تُنْسب، یقال: قصیدة بائیة: إذا كان رَوِیُّهَا الباء؛

ثم الرَّوِیُّ إن كان ساكنا فمقید، والقافیة مقیدة؛ وإلا فمطلق والقافیة مطلقة فإن سبقه مدَّة أولِیْن فَرِدْفٌ ، والقافیة مُرْدفَة؛ وإن لَحِقَهُ مَدَّة أوهاء ساكنة بلا فصل فوصل ، والقافیة موصولة؛

فمثال القافیة المردفة الموصولة: "ومن أین للوجهِ الملیح ذنوبُ؟": الرِّدْفُ واو فی آخر الباء،والوصل واو قبل الباء وكذا : "وقلنا القومُ إخوانٌ" الردف واو، والوصل ألف (محیط الدائرة).

الحلاوة المَحْضة والعذوبة الخالصة، ولاعلاقة له بطويل البحر ومديده.

مراعاة القرآن الكريم للحسن الإجمالى المشترك

ولمَّا أراد الخلاَّق ــ جلَّتْ قدرته ــ أن يخاطب الإنسان المخلوق من قُبضةِ طِيْنٍ،[1] نظر إلى ذلك الحسن الإجمالى والجمال المشترك فحسب، ولم ينظر إلى قوالبَ مستحسنة عند قوم دون قوم؛ وحينما شاء مالك الملك أن يتكلم على منهج الآدميين، لاحظ ذلك الأصل البسيط والسر المشترك، ولم يراع هذه القوانين المتغيرة بتغير الأدوار والأطوار.

ومبنى التمسك بالقوانين الاصطلاحية هو العَجْز والجهل؛ وتحصيلُ تلك الحسن الإجمالى والجمال الفنى بدون توسط تلك القواعد ــ بحيث لايتغير البيان فى الوِهاد والأنجاد ولايَضيع الكلام فى السُّهول والجبال[2] ــ معجِز ومفحَم[3]، وأنا أنتزع من جَرَيان الحق تعالى على ذلك السَّنن أصلاً، وأضع منه قاعدةً:

وتلك القاعدة: أنه تعالى قد راعى فى أكثر السور امتداد النفَس[4] لاالبحر

---

(١)أى: لم تكن أيةُ نسبة بينه وبين الخالق، فكيف يمكن التخاطب؟! ولكنه تعالى مع هذا البون البعيد أراد أن يخاطبه،فنظر الخ.

(٢)الوهاد: الأرض المنخفضة، والأنجاد جمع نَجْد: المكان المرتفع، والسهل: الأرض الممتدة، المستقيم سطحها.

(٣)المُفْحَم: العاجز أمام الحجَّة؛ وحاصلُ قول الإمام: إن الاحتياج إلى القوانين العرفية لعجز الإنسان وجهله، فإنه لايقدر على تحصيل ذلك الحسن الإجمالى بكماله بدون توسط تلك القواعد الفنية ؛ ولكن الله تعالى قادر على كل شيء ، فلاحاجة له إلى تلك القوانين الاصطلاحية لتحصيل ذلك الجمال المشترك بين كلام طوائف الناس.

(٤)النفَس ــ بفتح الفاء ــ ريح يدخل ويخرج من فم الحى حالة التنفس والجمع أنفاس.

الطويل والمديد؛ وكذلك اعتبر فى الفواصل انقطاعَ النفَس بالمدَّة، وبما تستقر عليه المدَّة، لاقواعدَ فن القافية.

وهذه الكلمة أيضًا تقتضى بسطا وتفصيلاً فَلْيُلْقِ القارئ السمعَ لما يُذكر بالتالى :

الامتداد النفَسى الطبيعى هوالوزن فى القرآن

اعلم أن دخولَ النفَس فى الحلقوم وخروجَه منه أمرطبيعى فى الإنسان، وإن كان تمديدُه وتقصيره من مقدوره، ولكنه إذا تُرك على سجِيّته فلا بد له من امتداد محدود؛ والإنسانُ حينما يتنفس يجد النشاط، ثم يضمَحِلُّ ذلك النشاطُ تدريجا، حتى ينقطع كلياً فى آخر الأمر، ويضطر إلى أخذ النفَس الجديد الطازج.

وهذا الامتداد أمرمحدَّد بحدٍ مُبْهَم، ومقدَّر بمقدارمشترك،بحيث لايَضُرُّه نقصانُ كلمتين أو ثلاثٍ، بل ولا نقصانُ قَدْر الثُلث والربع وكذلك لايُخرجه عن الحد زيادةُ كلمتين أو ثلاث، بل ولازيادة قدر الثُلث والربع؛ ويسع فيه اختلافُ عدد الأوتاد والأسباب[١] ويُسامَح فيه بتقدم بعض الأركان على بعض[٢]

فجُعل هذا الامتدادُ النفَسى وزنًا، وقُسِّم على ثلاثَة أقسام:

١- طويل ٢- ومتوسط ٣- وقصير

---

(١)الوتد فى اللغة: مارُزَّ فى الأرض أو الحائط من خشب؛ وهو عندأهل العروض : ثلاثة أحرف، ثانيها أو ثالثها ساكن؛ فإن سكن وسطُها كما فى " قول" فهو الوتد المفروق؛وإن تحرك وسطها، وسكنآخرها كما فى " علَى " فهو الوتد المجموع.

والسبب فى اللغة: الحبل الذى تُربط به الخيمة؛ وفى الاصطلاح حرفان، ثانيهما ساكن نحو " لَمْ" ويسمى سببا خفيفًا؛ لما فيه من السكون بعد الحركة؛ وإن كانا متحركين،لايعقبهما ساكن فهو سبب ثقيل، نحو :"أَرَ"فى لم أر.

(٢)الأركان :هى الأجزاء أى: أفاعيل العَروضيين وتفاعيلهم.

أما الطويل : فنحو سورة النساء.
وأما المتوسط: فنحو سورة الأعراف والأنعام.
وأما القصير: فنحو سورة الشعراء والدخان.

خاتمة النفَس على المدَّة هي القافية في القرآن

وخاتمة النفَس على المدَّة المعتمِدَة على حرف، هي القافية المتسعة التي يتلذذ الطبع من إعادتها مرارًا؛ ولو كانت تلك المدَّة في موضع " ألفًا" وفي موضع آخر " واوًا" أو "ياءً" وسواء كان ذلك الحرف الأخير في موضع " باءً" وفي موضع آخر "مِيما" أو" قافا"فـ " يعلمون" و" مؤمنين" و"مستقيم" كلُّها متوافقة؛و "خروج" و"مريج" و" تحيد" و"تبار" و"فواق" و"عجاب" كلُّها على قاعدة.

لحوق الألف في آخر الكلمة أيضًا قافيةٌ

وكذلك لحوق الألف في آخر الكلمة قافية متسعة، في إعادتها لذة، ولو كان حرف الروى[1] مختلفًا، فيقول في موضع "كريما" وفي موضع آخر "حديثا" وفي موضع ثالث " بصيرا".

فإن التُزم في هذه الصورة موافقةُ الروى، كان من قبيل :"التزام مالايلتزم"[2] كما وقع في أوائل سورة مريم وسورة الفرقان.

توافق الآيات على حرف واحد وإعادة الجملة مفيدُ لذةٍ

وكذلك توافق الآيات على حرف واحد، كحرف "الميم" في سورة القتال[3]

(١)الروى: كل حرف يقع آخر البيت، إلا ما استثنى منه من التنوين أو بدل من التنوين ، أو حرف إشباعى مجلوب لبيان الحركة، وما إلى ذلك.

(٢)التزم الشيئَ: أوجبه على نفسه، فمعنى التزام مالايلتزم: تكلّف بمالم يكن واجبًا عليه.

(٣)سورة القتال هي سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

و"النون" فى سورة الرحمٰن يفيد لذة وحلاوة.

وكذلك إعادة جملة بعد طائفة من الكلام مفيدُ لذّةٍ كما وقع فى سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمٰن، وسورة المرسلات.

اختلاف فواصل آخر السورة من أوائلها

وقد تُبدَّل فواصلُ آخر السورة أوائلها تنشيطا للسامع، وإشعارا بلطافة الكلام، مثلُ:"إدًّا" و"هدًّا" فى آخر سورة مريم؛ ومثلُ:" سلامًا" و" كرامًا" فى آخر سورة الفرقان؛ ومثلُ: "طين" و" ساجدين" و"منظرين" فى آخر سورة صٓ، مع أن الفواصل فى أوائل هذه السور جاء ت مختلفةً عنها، كمالا يخفى.

فجُعل الوزن والقافيةُ اللذان مضى التعبير عنهما [١] مهمًّا فى أكثر السور.

منهج القرآن فى الفواصل

إن كان اللفظ فى آخر الآية صالحا للقافِية فَبِهَا، وإلا وصل بجملةٍ فيها بيانُ آلاء اللّٰه، أوتنبيهٌ للمخاطب، كما يقول:﴿وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْخَبِيْرُ﴾﴿وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا﴾﴿وَكَانَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا﴾﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾﴿إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ﴾﴿إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ﴾

وقد يُطنب فى مثل هذه المواضع،مثلُ: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيْرًا﴾[٢] ويستعمل

---

(١) أى بالتوافق التقريبيّ، والمدة المعتمدة على حرف.

(٢)سورة الفرقان ٥٩ وكقوله تعالى:﴿ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فكلمة:" إذا حسد" جِيئ بها للقافية، ويقال لمثل هذه الصنعة: صنعة الإيغال،ومعناه،أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر، يزيد به وضوحًا وشرحًا وتوكيدًا وحسنا؛ ولايُطلب مثله فى القرآن إلا فى الفواصل.

التقديم والتأخير[١] تارة، والقلب والزيادة أخرى، مثل: ﴿إِلْ يَاسِيْنَ﴾[٢] فى إلياس، ﴿وَطُوْرِ سِيْنِيْنَ﴾[٣] فى سَيناء[٤].

السِّر فى الآية الطويلة مع الآيات القصار، وبالعكس

ولْيُعلم ههنا: أن انسجام[٥] الكلام وسهولته على اللسان ـــ لكونه مَثَلاً سائرًا أولتكرر ذكره فى الآية ـــ يَجعل الكلامَ الطويل موزونا مع الكلام القصير.

وربما يؤتىٰ بالفِقَر الأُوَل أقصرَ من الفقر التالية، وهو يفيد عذوبة فى الكلام نحو قوله تعالى: ﴿خُذُوْهُ فَغُلُّوْهُ ثُمَّ الْجَحِيْمَ صَلُّوْهُ، ثُمَّ فِيْ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُوْنَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ﴾[٦]؛ فكأن المتكلم يُضمرفى نفسه فى مثل هذا الكلام: أن الفقرة الأولى مع الثانية فى كِفَّة[٧] والفقرةَ الثالثة وحدَها فى كفة.

الآية ذات القوائم الثلاث

وربما تكون الآية ذاتَ قوائم ثلاثٍ، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوْهٌ

---

(١) كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّٰهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَّحِيْمٌ﴾(سورة البقرة ١٤٣) قال السيوطى فى الجلالين: وقدّم الأبلغ للفاصلة اهـ وقال السيد سليمان الجَمَل: أى مع أن العادة العكس ليكون للأبلغ بعد غيره فائدة؛ فيقال: عالم نحرير، ولايقال: نحرير عالم اهـ.

(٢) سورة الصافات ١٣٠ (٣) سورة التين ٢

(٤) هذان مثالان للقلب مع الزيادة أما مثال الزيادة فحسب فكقوله تعالى: ﴿ وَتَظُنُّوْنَ بِاللّٰهِ الظُّنُوْنَا﴾(سورة الأحزاب ١٠) فألحقت الألف بـ " الظنون " لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الوقف، فزيد على النون ألفٌ لتساوى المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل؛ ومثله (فأضلونا السبيلا)(سورة الأحزاب ٢٧) ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُوْلاَ﴾ (سورة الأحزاب ٦٦) من البرهان (١:٦١)

(٥) انسجم الكلام: انتظم (٦) سورة الحاقّة ٣٠ـ٣٢

(٧) الكفة من الميزان: مايُجعل فيه الموزون؛ وهما كفتان.

وَتَسْوَدُّ وُجُوْهٌ: فَأَمَّا الَّذِيْنَ اسْوَدَّتْ الآية ، وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوْهُهُمْ الآية﴾[1]
والعامَّة يصِلون الأولى [2] مع الثانية فيحسبونها طويلة.

الآية ذات الفاصلتين

وقد يجيء سبحانه وتعالى بفاصلتين فى آية واحدة[3] كما يكون ذلك فى البيت أيضًا، نحو:

كالزهر فى تَرَفٍ، والبدر فى شرف والبحرِ فى كرم، والدهر فى هِمَمِ [4]

---

(١) سورة آل عمران ١٠٥ـ١٠٧ (٢) أى: يوم تبيض وجوه الآية.

(٣) كقوله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ، وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (الرحمٰن ١٧) وقوله تعالى: ﴿مِمَّاخَطِيْئَتِهِمْ أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوا نَارًا، فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ أَنْصَارًا﴾ (نوح ٢٥) وكقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيْهِمْ وَيَقُوْلُ: أَيْنَ شُرَكَاءِ ىَ الَّذِيْنَ كُنْتُمْ تُشَاقُّوْنَ فِيْهِمْ﴾ (النحل ٢٧) وكقوله تعالى﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا، فَفَسَقُوْا فِيْهَا﴾ (بنى إسرائيل ١٦) وكقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَجِهَادٍ فِىْ سَبِيْلِهِ﴾ (سورة التوبة ٢٤) وكقولهم: " جنابه محط الرحال، ومخيم الأمال"

ومن أمثلته الشعرية قول أبى تمَّام:

تَحلّى به رُشدى، وأثْرتْ به يدى وفاض به ثَمَدى ، وأورى به زَنْدى.

(الثَمَد: والجمع ثِماد: الماء القليل يتجمَّع فى الشتاء، ويَنْضب فى الصيف، والزنْد: العود الأعلى الذى تُقتدح به النار؛ والزَنْدَة: العود الأسفل الذى فيه الفُرْضَة؛ فإذا اجتمع قيل: الزَّنْدان)

(٤) والشعر من القصيدة البردة فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم، لأبى عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى رحمه الله. وقوله: الزهر: نورالنبات؛ والترف: النعومة؛ والبدر:القمر ليلة كماله، وهى: ليلة أربعة عشر، والشَرَف: العلو؛ والدهر: الزمن؛ والهمم جمع همة: العزم على الشيئ، والإرادة له، ونسبة الهمم إلى الدهر على عادة العرب فإنهم يجعلون للدهر عزائم وإرادات، ويشبهون (=)

أطول آية مع الآيات القصار

وقد يجيء بالآية الواحدة أطولَ من سائر الآيات[1] والسر فيه: أنه لو وُضع حسنُ الكلام الذى نشأ من تقارب الوزن ووجدانِ الأمر المنتظَر الذى هو القافية فى كِفَّة، ووُضع حسنُ الكلام الذى نشأ من سهولةِ الأداء وموافقةِ طبع الكلام، وعدمِ لحوق التغير فيه، فى كفة أُخرى، ترجِّح الفطرةُ السليمة جانبَ المعنى[2] فيُهمِلُ أحدَ الانتظارَيْنِ، ويَوفِّى الحقَ فى الانتظار الثانى[3].

لم يُراع ذلك الوزنَ والقافية فى بعض السور

وأماما قلنا فى فاتحة المبحث[4]: أن سنة الله تعالى قد جرت فى أكثر السور على ذلك، فإنما هولأجل أن الله سبحانه وتعالى لم يُراع فى بعض السور ذلك النوع من الوزن والقافية[5] فجاء ت طائفة من الكلام على منهج

(=) الممدوح به فى تلك العزمات والإرادات؛ وسبب ذلك: أن الحادثات الدقيقة إنما تقع فى الدهر، فينسبونها إليه على سبيل المجاز العقلى ، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم.

ومعنى الشعر: هو صلى الله عليه وسلم مثل الزهر فى اللطافة، والبدر فى الشرف، والبحر فى الكرم، والدهر فى الهمم والعزم على الشيئ (من شرحى البردة للبيجورى ص ٨٩ وخالد الأزهرى ص ٣٤)

---

(١) كما فى سورة المدثر الآية ٣١ فإنها أطول مما قبلها؛ وكما فى سورة المزمل الآية ٢٠ فإنها أيضا أطول مما قبلها؛ وكما فى سورة البقرة الآية ٢٨٢ فإنها أطول مما قبلها من الآيات.

(٢) يعنى ترجِّح حسن الكلام الذى نشأ من سهولة الأداء الخ.

(٣)أى: يُترك الأمر الأول ويوفى الحق فى رعاية الأمر الثانى فتطول الآية.

(٤) أى فى فاتحة الفصل الثانى من الباب الثالث.

(٥)أى كوزن القصائد وقافيتها.

خُطَب الخطباء وأمثال الحكماء؛ ولعلك قد سمعتَ مسامرةَ النساء المروية عن سيدتنا عائشة رضى الله عنها[1] وفهمت قوافيَهَا؛ ووقع الكلام فى بعض السور على منهج رسائل العرب بدون رعاية شيء، مثل محاورة الناس؛ إلا أنه يختم كل كلام بشيء يكون مبنيا على الاختتام.

والسرهنا: أن الأصل فى لغة العرب هو الوقف فى موضع ينتهى إليه النفَس، ويضمحلّ نشاطُ الكلام؛ والمستحسن فى محل الوقف انتهاء النفَس على المدَّة؛ ومن أجل هذا تشكّلَ الكلام فى صورة الآيات، هذا ما فتح الله تعالى على العاجز فى هذا الباب، والله أعلم.

وجه اختيار الأوزان والقوافى الجديدة:[2]

وإن سألوا: لماذا لم يختر سبحانه وتعالى تلك الوزن والقافية اللذَيْنِ هما معتبران عند الشعراء، وهما ألذُّ من هذا؟

قلنا: كونُهما ألذَّ يختلف باختلاف الأقوام والأذهان[3]؛ ولو سلمنا:[4] فإبداع أسلوب من الوزن والقافية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــــ وهو

---

(١)يريد بذلك حديث أم زرع المروىَ فى البخارى (ص ٧٧٩) وفى الصحيح لمسلم والشمائل النبوية للإمام الترمذى رحمهم الله.

(٢)غيرتُ هذا البحث من موضعه إلى هنا لاتّساقِه مع مباحث الفصل، وكان فى الأصل قبيل الفصل الرابع.

(٣)أى: قوم يحبون وزنا ولايحبه أخرون، بل يحبون وزنا آخر، وكذا رجل يألف بوزن وقافية، ولايألف بهما رجل آخر، فما سبيل رعاية جميع الأقوام والأذهان فى وزن القرآن وقافيته؟! وربما يكون الوزن والقافية ألذ عند قوم، ولايحبهما آخرون، فلواختار الله تعالى وزنا معينا وقافية خاصة فيتلذذ بهما قوم ولايتلذذ بهما آخرون فما السبيل ؟!

(٤) أى: لو سلمنا أن أوزان الشعراء وقوافيهم ألذُّ مطلقا عند جميع طوائف الناس لقلنا: إبداع الخ.

أميّ ـــــ آية ظاهرة على نبوته صلى الله عليه وسلم.

ولو نزل القرآن على أوزان الأشعار وقوافيها لحسب الكفار أنه هو الشعر المعروف المشهور عند العرب، ولم يَجْنُوا[1] من ذلك الحسبان فائدةً، كما أن البلغاء من الشعراء والكتّاب حين يحاولون إبراز مزيتهم، ورجحانَهم على أقرانهم على رءوس الأشهاد يستنبطون صناعة جديدة، ويتحدَّون[2]: "هل من رجل يقرض الشعر مثلى، ويكتب الرسالة نحوى؟!" ولو جرى هؤلاء على النمط القديم لم تظهر براعتهم إلا على المحققين البارعين.

الفصل الثالث

فى

وجه التكرار فى العلوم الخمسة، وعدم الترتيب فى بيانها

١- إن سألوا: لماذا كرِّرت مطالبُ العلوم الخمسة فى القرآن العظيم؟ ولِمَ لم يكتفِ سبحانه وتعالى ببيانها فى موضع واحد؟[3]

قلنا: إن ما نريد إفادته للسامع على قسمين:

الأول: أن يكون المقصودُ هناك مجردَ تعليم مالا يعلم؛ فالمخاطب الذى لايدرى حكما من الأحكام، ولم يدركه عقله، إذا سمع هذا الكلام يصير ذلك المجهول عنده معلومًا.

والثانى: أن يكون المقصودُ استحضارَ صورةِ ذلك العلم فى قوته المدركة ليتلذ ذبه لذة تامة، وتفنَى القوى القلبية والإدراكية فى ذلك العلم؛ ويغلب لونُ ذلك العلم القُوى كلَّها، حتى تنصبغ به؛ كما نكرر الشعر الذى علمنا معناه، فنجد كلَّ مرة لذةً جديدة، ونحب التكرار لأجل هذه الفائدة.

---

(١) جَنَى الثمرة ونحوَها جَنًى وجَنْيًا: تناولها من مَنْبتها.

(٢) تحدَّى فلانا: طلب مباراتَه فى أمر.

(٣) تقدم تفصيل العلوم الخمسة فى فاتحة الباب الأول.

والقرآن العظيم أراد إفادة القسمين المذكورين بالنسبة إلى كل واحد من مباحث العلوم الخمسة، فأرادتعليمَ مالا يعلم بالنسبة إلى الجاهل، وأراد انصباغَ النفوس بتلك العلومِ بتكرارها بالنسبة إلى العالِم؛اللهم إلا أكثر مباحث الأحكام، فإنه لم يقع فيها هذا التكرار ؛ لأن الإفادةَ الثانية غيرُ مطلوبة فيها[١].

ولأجل ذلك[٢] أمرنا الله تعالى بتكرار التلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمجرد الفهم[٣].

ولكن راعى سبحانه وتعالى مع التكرارِ هذا القدر من الفرق: أنه اختار في أكثر الأحوال تكرارَ تلك المطالب بعبارة طريَّة، وأسلوب جديد، ليكون أوقعَ في النفوس، وألذَّ في الأذهان، ولوكرر سبحانه وتعالى بلفظ واحد لكان كالوِرْد[٤]الذي يكررونه؛ وأما في صورة اختلاف التعابير، وتنوع الأساليب فيخوض الذهن، ويتعمَّق الخاطر بأسره في تلك المطالب.

٢- وإن سألوا: لماذا نُشِرت هذه المطالب في القرآن العظيم، ولم يُراع الترتيب: فيذكر آلآءَ الله أولاً، ويستوفي حقَّها، ثم يذكر أيامَ اللهِ فَيُكمِلُهَا، ثم

(١)بل المقصود فيها تعليم مالايعلم فقط.

(٢) أي لكون المطلوب في القرآن صبغ النفوس أيضًا.

(٣)قال السيوطي في الإتقان(في النوع ٣٥) يستحب الإكثار من قراء ة القرآن وتلاوته، قال الله تعالى مثنيا على من كان ذلك دأبه:﴿ وَيَتْلُوْنَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: لاحسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن فيقوم به آناء الليل وآناء النهار؛ وروى الترمذي من حديث ابن مسعود: من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ وأخرج من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الرب سبحانه وتعالى:من شغله القرآن عن ذكري ومسئلتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلين. الحديث اه والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

(٤)الْوِرْدُ: الوظيفة، أي النصيب من القرآن أو الذكر، يقال : قرأتُ وِرْدي.

يبدأ بالجدَل مع الكفار؟

قلنا: إن قدرةَ اللّٰه تبارك وتعالى وإن كانت محيطة بجميع الممكنات،[1] ولكنَّ الحاكم في هذه الأبواب هو الحكمة.

والحكمة: هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وأسلوب البيان، وإلى هذا المعنى أشير في قوله تعالى: ﴿لَقَالُوْا: لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ؟ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[2].

ولم يكن لدى العرب إلى وقت نزول القرآن أيُّ كتاب: لا من الكتب الإلٰهية، ولا من مؤلَّفات البشر؛ وإن الترتيب الذي اخترعه[3] المصنفون اليوم لم يكن يعرفه العرب؛ وإن كنت في ريب من هذا، فتأمَّلْ قصائدَ الشعراء المُخَضْرَمِيْنَ[4] واقرأ رسائلَ النبي الكريم صلى الله عليه وسلم[5]، ومكاتيبَ عُمَرَ الفاروقِ رضي الله عنه، يَتَّضِحْ لك هذه الحقيقة؛ فلو جاء الكلام على

(١) ورعاية هذا الترتيب أيضًا من الممكنات، فكان الله تعالى قادرًا عليه؛ ولكن الحاكم الخ.

(٢) سورة فصِّلَت (سورة حم السجدة) الآية ٤٤ ﴿لَقَالُوْا لَولاَ فُصِّلَتْ آيَتُهُ﴾ أي: لولا بينت لنا وأوضحت بلسان نفقهه وأسلوب نألفه (ءَاَعْجَمِيٌّ وَّعَرَبِيٌّ﴾ أي: كلام وأسلوب أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي؟! قال الباقلاني في إعجاز القرآن (ص ١٨): قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوْا: لَوْ لاَفُصِّلَتْ آيٰتُهُ، ءَاَعْجَمِيٌّ وَّعَرَبِيٌّ﴾ فأخبر تعالى أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده: إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، وبأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم، أو لغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحدَّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه، وجبت الحجة عليهم به اهـ.

(٣) اخترع الشيئ: أنشأه وابتدعه، ويقال: "اخترع الله الكائنات" أي ابتدعها من العدم.

(٤) المخضرم: الذي مضى شيئ من عمره في الجاهلية وشيئ في الإسلام، وخصَّهم بالذكر ليُعْرَفَ أسلوب العرب وقت نزول القرآن.

(٥) الرِّسَالة والرَّسالة ج رسائل ورسالات: الصحيفة التي يُكتب فيها الكلام المرْسَل.

غيرما كانوا يعهَدونه من طرائق البيان، لوقعوا فى الحيرة، وَلَوَصَلَ إلى سمعهم شيء لايألفونه، ولشوَّس عقولهم.

وأيضًا: لم يكن المقصود مجردَ إفادةِ مالايعلمونه، بل المقصود هو الإفادة مع الاستحضار والتكرار؛ ويتوفَّر هذا المعنى فى غير المرتب بأقوى وجهٍ وأتمِ صورةٍ.

الفصل الرابع
فى
وجوه إعجاز القرآن الكريم[1]

وإن سألوا: ما هو وجه الإعجاز فى القرآن الكريم؟

---

(١)وهو علمٌ جليل، عظيم القدر لأن معجزة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم الباقية القرآنُ، فهو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز، قال الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن (ص ١٠):الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السلام بُنيت على هذه المعجزة، وإن كانت قد أيّدت بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة ...... فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة، عمت الثقلين وبقيت بقاء العَصْرين، ولزوم الحجةِ بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد اه

والذى يبين أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزتَهُ القرآن، وبنى أمر نبوَّته عليه: سورٌ كثيرة وآيات شهيرة،فذكر منها واحدة، وهى قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ؟ قُلْ: إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ،يُتْلٰى عَلَيْهِمْ﴾(سورة العنكبوت ٥٠ و٥١) فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعَلَم من أعلامه، وأن ذلك يكفى فى الدلالة، ويقوم مقام معجزاتِ غيره، وآياتِ سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم.

ولما جاء به صلى الله عليه وسلم إلى الناس ـــ وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء ـــ تحدَّاهم على أن يأتوا بمثله ، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا، وذلك مذكور فى القرآن فى مواضع كثيرة كما فى سورة البقرة ٢٣ (ـــ)

قلنا: الذى تحقَّق عندنا هو أن وجوهَ الإعجاز فى القرآن الكريم كثيرة[1]:

(=) و٢٤ وكما فى سورة هود ١٣ و١٤، وكما فى سورة الإسراء ٨٨ وكما فى سورة الطور ٣٣ و٣٤

وقد اعتنى بذلك العلم الأئمة الأعلام، وأفردوه بالتصنيف:.

فمنهم القاضى أبوبكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلانى أو ابن الباقلانى (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) فإنه صنف كتابه " إعجاز القرآن" وطبع عدة مرات، آخرها فى دار المعارف بمصر، بتحقيق الأستاذ أحمد صقر.

ومنهم: أبو سليمان حمد بن محمد البُستى الخطابى (٣١٩- ٣٨٨هـ) وكتابه " بيان إعجاز القرآن " طبع فى دار المعارف بمصر.

ومنهم: أبو الحسن على بن عيسى الرُمّانى المعتزلى (٢٧٦- ٣٨٤هـ) وكتابه "النكت فى إعجاز القرآن " مطبوع مع كتاب الخطابى، و كذا طبع فى الهند أيضا من الجامعة الملية بدلهى.

ومنهم: الفاضل الرافعى البصرى صنف كتابه " إعجاز القرآن ".

وذكر العلماء هذا المبحث فى كتبهم أيضا، كالإمام القاضى عياض المالكى فى كتابه: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، والأمير اليمانى فى " الطراز" والشيخ عبد القاهر الجرجانى فى " دلائل الإعجاز"، والسيوطى فى " الإتقان" (فى النوع ٦٤) والزركشى فى البرهان (٢: ٩٠ النوع ٣٨) والعزيزى المعروف بِشَيْذَلَةَ فى "البرهان "والسيد الآلوسى فى "روح المعانى " فى الفائدة السابعة فى مقدمة تفسيره (١: ٢٧) وغيرهم ممن يطول ذكرهم وفى هذا القدر كفاية لمن رام الاستخبار.

(١)هذا هو السبيل الأقوم، والمنهج الأسلم: أن وجوه الإعجاز كثيرة، وليس الإعجاز بمنحصر فى وجه واحد من الوجوه بل هو بالمجموع من الوجوه. قال الزركشى فى البرهان (٢: ١٠٦): وهو قول أهل التحقيق: أن الإعجاز وقع بجميع ماسبق من الأقوال، لابكل واحد عن انفراده؛ فإنه جمع ذلك كله، فلامعنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده، مع اشتماله على الجميع اهـ.

وقد تكلم المصنف رحمه الله على وجوه خمسة حسب ماتيسر له، وسنتكلم — إن شاء الله تعالى — فى خاتمة المبحث على وجوه آخر.

١- منها: الأسلوب البديع ـــ لأن العرب كانت لهم عِدَّةُ ميادينَ يركُضون فيها جَوَادَ البلاغة[١]، ويتسابقون فيها مع أقرانهم، ألاَ وهى القصائد والخطب والرسائل والمُحَاورات؛ ولم يكونوا يعرفون غير هذه الأصناف الأربعة، ولم يكن عندهم قدرةٌ على إبداع أسلوب سواها؛ فإبداعُ أسلوب غيرِ أساليبهم على لسان النبى الأمى صلى الله عليه وسلم عينُ الإعجاز[٢].

٢- ومنها: الإخبار عن القِصَص الماضية وأحكام الملل السابقة، على وجه يصدِّق الكتب السابقة بدون تعلُّم من أحد[٣].

---

(١) قوله: ميادين جمع الميدان: فسحةٌ مُتَّسعةٌ، مُعِدَّة لسباق الخيل ولعبها. وقوله: يركضون: من ركض رَكْضا من باب نصر وركض الفرسَ برجليه: استحثَّه للعَدْو. وقوله: الجواد: أى سريع الجرى، يقال: "فرس جواد" أى: سريع.

(٢) وحاصل ماقاله: أن العرب كانت لهم أساليب معهودةٌ فى الكلام المعتاد: من القصائد والخطب، والرسائل، والمحاورات؛ وكان قد ينافر شعراء هم بعضُهم بعضا، ولهم فى ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وآثار منقولة مذكورة، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم، ولكن لايقدرون على غير هذه الأوضاع الأربعة، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، فإبداعُ أسلوب جديد، بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ فى البلاغة إلى الحد الذى يُعلم عجز الخلق عنه، على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم، وكان معلومًا من حاله صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لايكتب ولايحسن أن يقرأ، عينُ الإعجاز.

(٣) أى: كان معروفا من حاله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب الأقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وأحكام مللهم، ثم أتى بجملِ ماوقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه حكايةَ من شهدها وحضرها.

ونحن نعلم ضرورةً أن هذا ممالاسبيل إليه، إلا عن تعلم، فنتيقن أنه لايصل (=)

٣ـ ومنها: الإخبار بالأحوال الآتية؛ فكلّما وُجد شيء منها على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد[١].

(=) إلى علم ذلك إلا من جهة الوحى. قال الباقلانى فى كتاب التمهيد (ص ١٣٠) والوجه الآخر: ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسير الماضين، وأحاديث المتقدمين وذكرِ ماشَجَرَ بينهم وكان فى أعصارهم ممالايجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير، ودرسه لها وعنايته بها، ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب، ويستخرجها،مع العلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يتلو كتابا ولايخطُّه بيمينه، وأنه لم يكن ممن يُعرف بدارسة الكتب، ومجالسة أهل السير، والأخذ عنهم، ولالقى إلا من لقوة، ولاعرف إلا من عرفوه، وأنهم يعرفون دأبه ودَيْدَنه ومنشأه وتصرفه فى حال إقامته بينهم وظعنه عنهم، فدل ذلك على أن المخبِر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه علام الغيوب اهـ.

(١)أى: فى القرآن شيئ كثير من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، والصدقُ والإصابةُ فى ذلك كله، ولايقدر عليه البشر، ولاسبيل لهم إليه. فمن ذلك ماوعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيُظهر دينَه على الأديان كلها، بقوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدٰى وَدِيْنِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهٗ على الدِّيْنِ كُلِّهٖ وَلَوْكَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ﴾(سورة التوبة ٣٣) ففعل ذلك، وقال فى أهل بدر:﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أنَّها لَكُمْ﴾ (سورة الأنفال ٧) ووفّى لهم بماوعد.

وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الإخبارعن الغيوب يكثر جدا، وإنما أردنا أن نُنَبِّه بالبعض على الكل، وإن شئت المزيد فاقرأ قوله تعالى:(٣٠: ١-٤): ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّوْمُ﴾ فصدق الله وعده، وقال تعالى(٤٨: ٢٧):﴿لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُوْلَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وقوله تعالى(٢: ٩٤و٩٥)﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللّٰهِ﴾ وقوله تعالى(٣: ٦٠): ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُوْا أَبْنَاءَ نَا﴾ وقوله تعالى (٩: ٨٣): ﴿لَنْ تَخْرُجُوْا مَعِىَ أَبَدًا، وَلَنْ تُقَاتِلُوْا مَعِىَ عَدُوًّا﴾ وما إلى ذلك من الآيات الكثيرة، فصدق الله تعالى وعده فى ذلك كله.

فكلما ظهر شيئ على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد، وفرح المؤمنون وازدادوا إيمانا.

٤- ومنها: الدرجة العليا من البلاغة التى ليست من مقدور البشر[١]

(١) قال الإمام حَمد بن سليمان الخطابى فى إعجاز القرآن: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ،لأمور:

منها: أن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبأوضاعها التى هى ظروف المعانى،والحوامل لها. ولاتدرك أفهامُهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تَكْمُلُ معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم، التى بها يكون ائتِلاَفها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل والأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام من مثله؛ وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملتَ القرآنَ وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لاترى شيئا من الألفاظ أفصحَ، ولا أجزل ولا أعْذب من ألفاظه؛ ولاترى نظمًا أحسن تأليفا، وأشدَّ تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه، وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام: فإما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير، الذى أحاط بكل شيئ علما، وأحصى كل شيئ عددا اهـ (من تقدمة إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٦)

وكلام الخطابى هذا كما ترى كلام حسن رائع، ونريد أن نزوّدك ببيان أقوى وأحسن وأوضح من ذلك ليتَّضح به الأمر اتَّضاح الشمس، ويتبين به بيان الصبح، فاعلم أن الإمام الأكبر الشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله (مؤسس دارالعلوم بديوبند) تكلم فى كتابه " براهين قاسمية"(جواب ترکی بہ ترکی) بالتفصيل التام، فهذا غَيْضٌ من فيضه معربا وملخصا، قال:

البلاغة: شيئ غير الفصاحة، فالبلاغة: حسن الانطباق؛ والفصاحة: الحسن الذاتى، وبيانه: أن الكلمات حلّةٌ للمعانى المودعة فيها، والحُلَل قد تلائم الأجسام وقد لاتلائمه، وقد تكون من أعلى الثياب، وقد تكون من أدناها، ومن الثياب ما هو مطرز منقش بأنواع من التطريز، ومنها ما هو عارٍ عن هذه الوِشاء والتجملات الزائدة؛ فملائمة الألفاظ للمعانى هى المعبرة بحسن الانطباق، (=)

....

(=) وكون الكلمات من أعلاها يُعَبَّر بالحسن الذاتى، وما زِيْد على الثوب بعد النسج من التطريز والتلوين يُعدّ من قسم " البديع".

فيَعلم من له فهمٌ ثاقب، وذهنٌ وقّاد أن صوغَ الكلام وإنشاء المضامين شيئ غيرُ الفصاحة والبلاغة، فليس الكلام الفصيح البليغ اسمًا للمضامين الصرفة والإنشاء المحض، وكذا لاتسمى المواد الجيدة المربوطة المهذبة بالفصاحة والبلاغة، بل يُعنى أولا بالانطباق المذكور، فإذا تمّ فالبلاغة فى ذروة كمالها؛ وكذا إذا لوحظ فى الكلام حسنُ الألفاظ حق ملاحظته، فالفصاحة فى قِمّة البراعة.

واعلم أن " الانطباق" اسم للنسبة والربط بين الألفاظ والمعانى، وأنت تعلم أن النسبة تكون دائمًا أخفى من الطرفين، فلابد أن يكون علم الانطباق أخفى من علم المعانى والألفاظ؛ فإذا كانت المعانى مكنونة مستورة، غيرَ جلية فالانطباق يزداد خفاءً وغموضًا، وبهذا السبب ربما يسبق الذهن إلى اتحاد المعنى بين الألفاظ ويتبادر الفهم إلى الترادف، والحقيقة غير هذا.

وخذ لك مثالاً يتضح به الأمر: أن الناس يزعمون " الحسن" و"الجمال" بمعنى واحد، والحال أن الجمال صفة قائمة بالجميل، ويدل عليه مادة (ج م ل) ومنها:" الجملة" لكلام مؤلف، فالجمال وصف ينشأ من التئام الأعضاء المتناسبة؛ و" الحسن" اسم لصفة مفعولية يتصف بها صاحب الجمال بحسب إدراك الناس الجمالَ فيه، واطلاعهم له بذلك، فالحسنُ لقب يعطيه الآخرون، والدليل على ذلك قولهم:"استحسنه " و"حَسُن عنده" فعلم أنهما ليسا بمترادفين، بل الحسن يتفرع على الجمال؛ فإن كان فى فهم الناظرين اعوجاج، ويكون طبعهم غير سليم، فلايستبعد أن لايشعرون بالحسن مع وجود الجمال، أو يتحكمون بالحسن مع فقدان الجمال.

والشعراء والأدباء الذين تمهروا فى اللغة والأدب، واطلعوا على دقائقهما، وشهدت لهم الأعداء على نبوغهم وعبقريتهم، يستعملون أحدهما مكان الآخر من غير مبالاة، ويحسبونهما مترادفين.

وبالجملة فإن الشعراء والأدباء والبلغاء قاطبة لم يصلوا إلى حد من (=)

ونحن إذ جئنا بعد العرب الأولين، لانستطيع أن نصِلَ إلى كُنْهِهَا[1]؛

(=) حدود البلاغة، ولو حصل لآحاد منهم تمييز عدةِ كلمات فإنه لايعرف الانطباق التام ألبتة، ولايعرف مواقع الاستعمال؛ على أن هذا العلم لايتيسر على الوجه الأتم إلا لمن اطلع على الأمور الآتية:

الأول: يكون علمه محيطا بجملة المعلومات.

والثاني: يكون حاويا ومستحضرًا جميع كلمات لغة واحدة على الأقل.

والثالث: تكون حقائق الأشياء منكشفة عنده كشفا جليًا كانكشاف المحسوسات لذى عينين.

والرابع: يكون مطّلعا بالوضع الكلى والجزئى، والإجمالى والتفصيلى.

ومعنى معرفة الوضع الكلى والإجمالى: أن يكون عارفًا بالهيئة الاجتماعية للحروف الهجائية حق معرفتها، ويكون مطّلعًا على الهيئة الاجتماعية للنِّسَب والإضافات التى توجد فى المعانى، ووضعَ الواضع اللفظ مقابلا لها، بأحسن الوجوه وأتم المعرفة.

ومعنى معرفة الوضع الجزئى والتفصيلى: أن يعرف مدلولات الحروف الهجائية ومصاديقها ومسقط إشاراتها اهـ (ص ١١٧ - ١٢٣)

فانصف أيها القارئ الكريم! من يقدر من البشر على جملة هذه الأمور؟ وهل تجتمع لأحد من البشر هذه الشرائط بأسرها؟! فكيف يكون كلامه فى الدرجة العليا من البلاغة؟ وكيف يقدر على الانطباق التام مع العلم الناقض؟ هل هذا الاشأن العلام الغيوب، الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السمٰوات والأرض وهو السميع العليم.

(١) قال الباقلانى رحمه الله فى إعجاز القرآن (ص١٧١): قد بينا أنه لايتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا ـــ بأن علموا أنهم قدتُحُدُّوا إلى أن يأتوا بمثله، وقُرّعوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به ـــ: تبين أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل ذلك اللسان، فهم عنه أعجز.

وكذلك نقول: إن من كان من أهل اللسان العربى ـــ إلا أنه ليس يبلغ (=)

ولكنَّ القدرَ الذى نعلمه، هو أن استعمال الكلماتِ الجَزْلة[1] والتركيبات العَذْبَةِ مع اللطافة وعدم التكلُّف، كما نجد ذلك فى القرآن العظيم، لانجد مثلَه فى أىِّ قصيدة من قصائد المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر ذوقى يدركه — كما ينبغى — المهرةُ من الشعراء، ولايتذوَّقه العامَّة.

وكذلك نعلم أن فى أنواع التذكير الثلاثة، والجدل مع الكفار تُكْسَى المطالبُ فى كل موضعٍ حسبَ أسلوب السورة، لباسًا جديداً طريفًا، تقصُر يدُ المتطاول عن ذيله.

وإن تعسَّر إدراك ذلك على أحد فليتأمل فى إيراد قِصَص الأنبياء فى سورة الأعراف وهود والشعراء، ثم لْينظرْ إليها فى الصافات، ثم ليقرأ هذه القصص

(=) فى الفصاحة الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرف اللغة، وما يعدّونه فصيحا بليغا بارعًا من غيره — فهو كالأعجمى: فى أنه لايمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل مابينا أن يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره، وهو ومَن ليس من أهل اللسان سواء، فأما من كان قدتناهى فى معرفة اللسان العربى ووقف على طُرُقِها ومذاهبها — فهو يعرف القدر الذى ينتهى إليه وُسْعُ المتكلم من الفصاحة ويعرف مايخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة — فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميز بين جنس الخُطَب والرسائل والشعر، وكما يميز بين الشعر الجيد والردئ، والفصيح والبديع، والنادرو البارع والغريب.

وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفىّ من النقد مايخفى على غيره، ويعرف البزَّازُ من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره اهـ

وقال السكاكى فى المفتاح (ص٢٢١): واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدرَك، ولايمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك، ولايمكن وصفها، وكالملاحة. ومدركُ الإعجاز عندى هو الذوق، ليس إلا. وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين: — يعنى علمى المعانى والبيان — نعم للبلاغة وجوه متلثمة، ربما تيسرت إماطة اللثام عنها، أما نفس وجه الإعجاز فلا اهـ.

(١) الجَزْل من الكلام: القوى الفصيح الجامع.

نفسَها في الذاريات، ليتجلى له الفرق.

وكذلك الحال في ذكر تعذيب العصاة وتنعيم المطيعين، فقديذكر ذلك في كل مقام بأسلوب جديد؛ وهكذا تخاصُمُ أهل النار بعضِهم مع بعض، يتجلى في كل مقام في صورة جديدة؛ والكلام في هذا يطول[١].

وكذلك نعلم أيضًا أن رعايةَ مقتضى الحال الذى تفصيلُه في علم المعاني، واستعمال الاستعارات والكنايات، التي تكفَّل ببيانها علم البيان، مع مراعاة حال المخاطبين الأميين الذين يجهلون هذه الصناعاتِ، لايُتصوَّر كلُّ ذلك أحسنُ مما يوجد في القرآن العظيم؛ وذلك لأن المطلوب في القرآن الكريم أن تُودَعَ في المخاطبات المعروفة[٢] التي يعرفها كلُّ أحد من الناس، نكتةٌ رائقةٌ مفهومةٌ عند العامَّة، مرضيةٌ عند الخاصة؛ وهذا الأمركالجمع بين الضدَّيْن، ليس من مقدور البشر، والله على كل شيء قدير، ولله دَرُّ الشاعر حيث يقول:[٣]

يـزيـدُك وجْهُـه حُسْنـا إذا مـا زدتـه نظـرًا

٥ - ومنها: وجهٌ لايتيسر فهمُه لغير المتدبرين في أسرار الشرائع؛ وذلك: أن العلوم الخمسة[٤] نفسَها تدل على أن القرآن نازل من عند الله تعالى، لهداية بني آدم؛ كما أن عالم "الطب" إذا نظر في "القانون"[٥] ولا حَظَ تحقيقه وتدقيقه في

---

(١) أي: ذكر الأمثلة، ثم شرحها وبيانها مما يطول، ولاحاجة إلى ذلك، بل تأمل أنت فإنه:

يزيدُ على طُول التأمل بهجة كأن العيونَ الناظِراتِ صياقل

(٢) الحِوار العام (٣) والشعر من كلام أبي نواس.

(٤) التي تقدم ذكرها في الباب الأول.

(٥)" القانون " في الطب للشيخ الرئيس أبي على حسين بن عبد الله المعروف بابن سينا، المتوفى سنة ٤٢٨ هـ قال صاحب إرشاد المقاصد: هو أجمع الكتب وأبلغها لفظًا، وأحسنها تصنيفًا، وبالجملة: يحتوى على خلاصة كتب الأقدمين، وينفرد بالمباحث العلمية، والفوائد الحكمية اهـ.

بيان أسباب الأمراض وعلاماتها،ووصف الأدوية وخواصِّها، لايَشُكُّ أن المؤلف كامل فى صناعة الطب؛ كذلك إذا علم العالِمُ بأسرار الشرائع الأشياءَ التى ينبغى تلقينها للناس لتهذيب نفوسهم، ثم يتأمل فى العلوم الخمسة، يَعْلَم قطعا: أن هذه الفنون قد وقعت موقعَها، بحيث لايُتصور أحسنُ منه:

والشمسُ الساطعةُ تدل بنفسها على نفسها
فإن كنتَ فى حاجة إلى الدليـل فلا تُوَلِّ وجهك عنها[1]

---

(١)ليس هذا بشعر، إنما هو ترجمة للشعر الفارسى:

آفتاب آمد دليلِ آفتاب   گر دليلت بايد از وے رومتاب

أى: دليل الإعجاز ليس بخارج من القرآن، بل القرآن نفسه يدل على إعجازه؛ ففكر فى القرآن، وتدبر معناه، تتيقن بكونه معجزًا.

خِتام البحث: قدورد فى الحديث المرفوع:أن القرآن " لايَشبَعُ منه العلماءُ، ولايُخلق عن كثرة الردّ، ولاتَنْقَضِى عجائبه"(المشكوة ص١٨٦) أى: لايَصِل العلماءُ إلى الإحاطة بكنهه، ولاتزول لذة قراء ته واستماعه من كثرة التكرار والترداد، ولاتفنى ولاتنصرم نكاته؛ ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا مبحث إعجاز القرآن، ليس لوجوهه حصر، ولايحيط بها عالم، وكم ترك الأول للآخر؛وقد ذكر المصنف الإمام منها وجوهًا خسمةً، ونحن نزيد عليها عدة:

١- قال الإمام الخطابى فى إعجاز القرآن: وفى إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلايكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعُه بالقلوب وتأثيره فى النفوس، فإنك لاتسمع كلامًا غير القرآن، منظومًا ولامنثورًا، إذا قَرَع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال، ومن الروعة والمهابة فى أخرى مايخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منـه عـادت مرتـاعة قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشَّاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود، وتنزع له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها. فكم من عدوّ للرسول، صلى الله عليه وسلم، من رجال العرب وفتّا كها،أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم (=)

....

(=) يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا فى دينه؛ وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا اه.

ثم أورد من المثل التاريخية والآيات القرآنية ما هو مصداق لما وصفه من أمر القرآن، وكان ذلك خاتمة الكتاب وراجع البرهان (٢:١٠٦)

٢-قال شيخ مشايخنا الإمام العلامة المحدث الكبير، حافظ العصر الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى ـــ قدس سره ـــ (= يتيمة البيان ص٥٢- ٧٣): القرآن الكريم كله معجز، وإعجازه عندى بحسب مفرداته، ومركباته، وفى ترتيب كلماته، وفى مقاصده، وحقائقه؛ فهو معجز لفظًا، وتركيبًا، وترتيبًا، وأغراضًا، ومقاصد، وعلومًا، وحقائق.

فالمراد بإعجازه بحسب المفردات: أنه يختار ويعبر بكلمة مفردة لايمكن أوفى منه بالحقيقة، وأوفى بالمقام، وأوفق بالغرض، بحيث لو تظاهر الثقلان على أن يوردوا مكانه لفظا غيره أقرب إلى الحقيقة، وأنطق بالغرض لخابوا وندموا.

وخذلك مثالا: كانت العرب عامتهم ينكرون البعث بعد الموت، وكان للموت عندهم فى الجاهلية أسماء، حسب مداركهم ومشاعرهم، وكانوا لايجوزون إطلاق " التوفى" على الموت، لأن عندهم لابقاء للجسد ولا للروح، ومعنى "التوفى": استيفاء الشيئ كاملاً، وتحصيله سالمًا، من غير أن ينقص منه شيئ؛ ولم يكن عندهم حقيقة الموت كما عند الإسلام،فكيف يعبرون عنها بالتوفى ؟ فاستعمل القرآن هذه الكلمة، وهداهم إلى أن الموت استيفاءٌ لافناءٌ، وأيضًا، أشار بهذه الكلمة إلى أن المتوفّى حق المتوفِّى. وقال أيضا: وفى لفظ " المتوفّى" ـــ إذا كان مسندًا إلى الله تعالى ـــ لطيفة أخرى، وهى: أنه أشار به إلى أن المتوفّى أصبح ملكًا للباقى، فلايبيد ولايفنى (وراجع تحية الإسلام ص ٣٣)

ولما كان البدن فى سائر الناس غير متوفى لحضرته تعالى، وكان سيدنا عيسى عليه السلام ممن توفى الله بدنه مع روحه، زاد فى آل عمران بعده: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

وأما إعجازه من جهة التركيب والترتيب: فهو أن القرآن ينتقى تركيبا للمفردات من عدة تراكيب، يسعها المقام، إلا أن القرآن يختار تركيبًا (=)

(⸺) لايمكن أبلغ منه، وأوفى بالحقيقة، وأجدى فى صدع الغرض، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وكان حق العبارة فى بادئ الرأى: وجعلوا الجن شركاء لله، ولكن غرض التنزيل أنهم جعلوا لله شركاء، يعنى: جعلوا شركاء للإله الواحد، الذى هو أغنى عن الشريك، ففى التقديم "لله" استعظام بقبح ما ارتكبوه فهذه سفاهة، ثم إنهم لم يقتنعوا بهذا بل جعلوا شركاء ه الجن، الذى هو مخلوق ضئيل من مخلوقاته، فهذا استعظام آخر لما فعلوه، فالغرض الذى سيق له الكلام لايتأتى إلا بالتركيب الذى اختاره التنزيل العزيز.

وأما المراد من الإعجاز باعتبار المقاصد: مايلزم المخاطبين تعلّمها، والانصباغ بصبغها، والمعاملة بها مع المخلوق، بحسب مايقتضيها كما يذكره علماء الأمة فى شرح أسماء الله الحسنى (وراجع الفصل الثانى من الباب الأول من تعليقاتنا على احتياج الناس إلى صفاته تعالى) وقال: ولتكن مقاصد القرآن مافيه ذكر المبدأ والمعاد، وصلاح معاش العباد وفلاح الدنيا ونجاة الآخرة.

وأما المراد من الإعجاز باعتبار الحقائق: الأمور الغامضة التى قصرت عن إدراكها العقول والأفهام، ولاتكتنهها الأفكار والأوهام، وما برحت فيها العقول مختلفة، والجوانب متجاذبة، فلم ينفصم فيها نزاعهم وجدالهم، كمسئلة: " خلق أفعال العباد " تحيرت فيها العقلاء، فالقرآن يختار فى أمثال هذه المشكلات المعضلة تعبيرًا لايتصور أوفى منه فى كشف حقائقها اهـ.

وبعد: فإن العلماء قد اختلفوا فى القدر المعجز من القرآن، وذكر طرفا من الآراء الإمامُ الباقلانى فى إعجاز القرآن (ص ٣٧٦- ٣٩٢) والزركشى فى البرهان (٢: ١٠٨-١٠٩) بأن أقل ما يَعْجِز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أوطويلة، أو ما كان بقدرها.

وقال شيخنا العلامة الكشميرى: المعجز عندى: أقصر آية من الآيات؛ نعم الإعجاز فى هذا القدر أغمض، وربما تخفى على الكملة البارعين، ولايتجلى مرماها إلا على من كابد فى الخوض على المعانى، وغاص فى بحر البيان والمعانى، وراعى سائر الجهات التى سلكناها فى مسلك الإعجاز اهـ.

الباب الرابع

فى

بيان مناهج التفسير وتوضيح الاختلاف الواقع فى تفاسير الصحابة والتابعين.

طوائف المفسرين:

لِيُعلم أن المفسرين عِدَّةُ أصناف:

●جماعة قصدوا روايةَ آثار مناسبة للآيات، سواء كان حديثا مرفوعا أو موقوفًا أو مقطوعًا[1] أو خبرا إسرائيليا ـــــ وهذا طريق المحدثين.

●وفرقة قصدوا تأويلَ آيات الصفات والأسماء ؛ فمالم يُوافق منها مذهبَ التنزية[2] صرفوها عن الظاهر، وردوا على استدلال المخالفين ببعض الآيات ـــــ وهذا طريق المتكلمين.

●وقوم صرفوا عنايتهم إلى استنباط الأحكام الفقهية، وترجيح بعض المجتهدات على بعض، والجوابِ عن تمسك المخالفين ـــــ وهذا طريق الفقهاء الأصوليين.

●وجمعٌ أوضحوا إعراب[3] القرآن ولغته، و أوردوا الشواهد من كلام العرب فى كل باب موفورةً تامةً ـــــ وهذا منهج النحاة اللغويين.

●وطائفة يذكرون نكات المعانى والبيان بيانا شافيًا، ويتفاخرون فى ذلك الباب ـــــ وهذا طريق الأدباء.

---

(١)الحديث المرفوع: مارُفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم . والحديث الموقوف: ما انتهى إلى الصحابى ، والحديث المقطوع : ما انتهى إلى التابعى.

(٢)مذهب التنزيه: هو مذهب أهل السنة والجماعة فى مسألة الصفات المتشابهات.

(٣) قوله إعراب القرآن يعنى نحو القرآن وصرفه.

• واهتم بعضهم برواية القراءات المأثورة عن شيوخهم، فلم يدَعوا دقيقا ولا جليلا فى هذا الباب إلا جاؤا به ــــ وهذه صفة القراء.

• وبعضهم يُطلقون اللسان بنكات متعلقة بعلم السلوك أو علم الحقائق[١] بأدنى مناسبة ــــ وهذا مشرب الصوفية.

وبالجملة: فالمجال واسع، ويقصُد كلٌّ منهم تفهيمَ معانى القرآن الكريم، وخاض فى فن من الفنون، وتكلّم على قدر فصاحته وفهمه، واتّخذ مذهب أصحابه نصبَ عينيه[٢]؛ ولأجل ذلك اتَّسع مجالُ التفسير اتّساعاً لايُحدُّ قدرُه، وصُنِّفت كتب كثيرة لايحصرها عدد[٣].

---

(١) علم السلوك: هوعلم الإحسان، وعلم الحقائق كالغاية له.

(٢) أى: يلاحظ فى البحث مذهب أصحابه.

(٣) التفسير: علمٌ يُعرفُ به كتاب الله تعالى: ويُقْدر على فهم معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه؛ وكان استمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

وقد أكثر الناس فيه من الموضوعات؛ مابين مختصر ومبسوط، وكلهم يقتصر على الفن الذى يغلب عليه، وكل إناء يترشح بما فيه، وخاض كل منهم فيما شغف به فؤاده.

فالمحدث: سرد روايات الحديث وطرق التحديث، كابن جرير فى جامع البيان، والسيوطى فى الدر المنثور، والبخارى والترمذى والحاكم فى تفاسيرهم.

و"المتكلم": جال فى "كلامه" كالإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦) فى تفسيره: "مفاتيح الغيب" المعروف بالتفسير الكبير، بيد أنه أودع فيه جواهر غالية من مهمات شتّى.

والفقيه: دخل فى غمار الاستنباط، واستخراج الأحكام، كالقرطبى، والجصاص الرازى الحنفى فى: "أحكام القرآن". وابن العربى المالكى فى "أحكامه"، وكالقاضى محمد ثناء الله الحنفى الفانى فتى (١١٤٣- ١٢٢٥هـ) (=)

وقصد جماعة منهم إلى جمع ذلك كلّه فى تفاسيرهم[1] فمنهم من تكلّم بالعربية، ومنهم من تكلم بالفارسية،واختلفوا فى الاختصار والإطناب، ووسَّعوا أذيال العلم.

(=) فى:" التفسير المظهرى "

والنحوى: غاص فى وجوه إعرابه، وطرق تراكيبه، كأبى حيان فى بحره ونهره، والزجاج (المتوفى سنة ٣١١هـ)فى كتابه:" معانى القرآن" وعلى بن أحمد الواحدى أبو الحسن (المتوفى سنة ٤٦٨هـ) فى تفسيره الكبير " البسيط" أكثر فيه من الإعراب والشواهد؛ وفى " الوسيط" وهو مختار من البسيط؛ وفى " الوجيز".

والبيانى: أولع بإظهار إعجازه فى إطنابه وإيجازه، وإبداء المحاسن فى مقاطعه ومطالعه، والتنبيه ببدائعه وروائعه، كالإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشرى، صاحب القدم فى اللغة والأدب والنحو والمعانى، فى تفسيره "الكشَّاف عن حقائق التنزيل " (وتوفى سنة ٥٣٨هـ) وكالإمام أبى السعود فى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم "

والمنطقى: همُّه فى ترتيب الأقيسة، والبحث عن الرسوم والحدود، كما فعله ابن سينا فى تفسير سورة الإخلاص.

والفيلسوف العصرى: مكابدته فى إبراز ماحوته الآيات الربانية من الأسرار الكونية، والبدائع العنصرية، والغرائب الطبيعية؛ كالشيخ الجوهرى الطنطاوى فى " جواهر القرآن".

والقصاص: مدَّ الباع إلى القصص، كالثعلبى أحمد بن محمد صاحب : "الكشف والبيان "، و" العرائس فى قصص الأنبياء"(توفى سنة ٤٢٧هـ)

فكلٌ: نَفَضَ جرابه ووطابه، وفرّغ كنائته وجعابه،فجزاهم الله تعالى عنا خير الجزاء.

---

(١)وأجمع التفاسير المتداولة، روايةً ودرايةً، وفقهًا وحديثا، وفصاحة وبلاغة، وإعرابًا ولغة،وكلامًا وتصوفا: روح المعانى لمفتى بغداد السيد المحقق (=)

ما منَّ الله به علَيَّ فى علم التفسير

وقد حصل للفقير ــــ بحمد الله تعالى وتوفيقه ــــ مناسبةٌ فى كل فن من هذه الفنون ، وأَحَطتُ بِمُعْظَمِ أصولها، وبجملةٍ صالحةٍ من فروعها، وفُزْتُ بنوع من التحقيق والاستقلال فى كل باب من أبوابها، بوجه يُشْبِهُ الاجتهادَ فى المذهب[1] وألقى فى خاطرى من بحر الجود الإلهى فنان أو ثلاثة من فنون التفسير، سوى الفنون المذكورة سالفاً[2]، وإن سألتنى عن الخبر الصدق فأنا تليمذُ القرآن العظيم بلاواسطة [3]؛ كما أنى أُوَيْسِىٌّ[4] فى

(ـــ) العلامة أبى الفضل شهاب الدين محمود الآلوسى الحنفى (المتوفى سنة ١٢٧٠هـ) فله منة على رقاب العلماء بتفسيره هذا؛ وأما بالأردية: فبيان القرآن للإمام المحدث العارف بالله الشيخ محمد أشرف على التهانوى. وأما بالفارسية: ففتح العزيز، لمسند الديار الهندية الإمام عبد العزيز الدهلوى، فرحمهم الله تعالى جميعا، وجزاهم عنا خير الجزاء.

---

(١)مرتبة الاجتهاد فى المذهب: أن يقدر على استخراج الأحكام من الأدلة على مقتضى القواعد التى قَرَّرها أستاذه، ويسمح له أن يخالف أستاذه فى بعض أحكام الفروع، ولكن لابد من التقليد فى قواعد الأصول(رد المحتار ١: ٥١)

(٢)وسيتكلم المصنف على هذه الفنون فى الفصل الرابع والخامس من نفس الباب.

(٣)أى: فَهِمَهُ بغير استعانة وتوسطِ أحدٍ.

(٤)نسبة إلى أويس بن عامر القَرَنى، من بنى مراد: أحد النساك العُبَّاد المقدَّمين، من التابعين؛ أصله من اليمن، أدرك حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب، وشهد وقعة صفين مع على رضى الله عنه، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها.

ويُحكى أنه استفاد من روحه صلى الله عليه وسلم من غير واسطة من اليمن؛ وكان قد عاقه عائق من القدوم فى جنابه صلى الله عليه وسلم؛ فمعنى النسبة حينئذ: أن المصنف رحمه الله استفاد من روحه صلى الله عليه وسلم بغير توسط أحد من الناس، كما استفاد أويس من روحه صلى الله عليه وسلم من غير واسطة.

وحديث فضله فى صحيح المسلم فى كتاب فضائل الصحابة (١٦: ٩٤)

الاستفادة من روح النبى صلى الله عليه وسلم، وكما أنى مستفيد من الكعبة الحسناء [١] بدون واسطة، وكذلك متأثر بالصلاة العظمى [٢] بغير واسطة:

ولو أنَّ لى فى كل مَنْبَتِ شَعرة لسانا لما استوفيتُ واجبَ حمدِه

وأرى من اللازم أن أكتب كلماتٍ عديدةً فى هذه الرسالة عن كل فن من هذه الفنون [٣].

الفصل الأول
فى
بيان الآثار المروية فى تفاسير أصحاب الحديث، وما يتعلق بها

قسمان من أسباب النزول

ومن جملة الآثار المروية فى كتب التفسير بيان سبب النزول ؛ وأسباب النزول على قمسين:

الأول: أن تقع حادثة يُمَحَّص بها إيمانُ المؤمنين ونفاقُ المنافقين، كما وقع ذلك فى غزوتَىْ أُحُدٍ والأحزاب ، فأنزل الله تعالى مدحَ أولئك وذمَّ هؤلاء،

---

(١) الكعبة الحسناء: كعبہ شریف والمسلمون يستفيدون منها بواسطة الصلاة؛ والكَمَلَة من الرجال يستفيدون منها بلاواسطة؛ والحسناء تأنيث الْحَسَنِ .

(٢) الصلوات المفروضة والنافلة ، وكذا الصلوات الخمس كلها أفراد الصلاة المطلقة الكاملة، وهى الصلاة العظمى التى تتمثل فى عالم المثال، فإن المعنويات لها أجسام هناك، والمسلمون يتأثرون بها بواسطة أفرادها ، وأما الذين بلغوا أقصى مدارج السالكين فيتأثرون بها بدون واسطة أيضًا، وإليه الإشارة فى قوله صلى الله عليه وسلم: "جُعلت قرة عينى فى الصلاة " ولكن مهما بلغ الرجل المنازلَ لايستغنى عن أفرادها: وإليه الإشارة فى قوله صلى الله عليه وسلم :" أرحنا بها يابلال".

(٣) يعنى من الفنون مناهجَ المفسرين. ثم اعلم أن الإمام تحدَّث فى الفصل الأول عن تفسير المحدثين وفى الفصل الثانى عن بقية الأصناف .

ليكون فَيْصَلاً بين الفريقين[١]؛ وتقع فى أثناء ذكر الحادثة تعريضاتٌ كثيرة بخصوصياتها[٢]؛ فيجب أن تُشْرَحَ الحادثةُ بكلام مختصر ليتَّضِحَ على القارئ سياقُ الكلام.

والثانى: أن يكون معنى الآية تامًا بعموم صيغتها، من دون حاجة إلى معرفة القصة التى هى سبب النزول، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب؛ والقدماءُ من المفسرين قد ذكروا تلك الحادثة بقصد استيعاب الآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه عمومُ الآية؛ وليس من الضرورى ذكر هذا القسم.

معنى قولهم: "نزلت الآية فى كذا"

وقد تحقَّق لدى الفقير: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كثيرًا ما كانوا يقولون: "نزلت الآية فى كذا" ويكون غرضُهم تصويرَ ما صدقتْ عليه الآية، أو ذِكْرَ بعضِ الحوادث التى تشتملها الآية بعمومها، سواء تقدَّمت القصةُ على نزول الآية أو تأخرت عنه، إسرائيليةً كانت القصة أو جاهلية أو إسلامية؛ تنطبق على جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم.

فَعُلم من هذا التحقيق: أن للاجتهاد فى هذا القسم[٣] مدخلاً، وللقصص المتعددة هناك مجالا؛ فمن استحضر هذه النكتة يستطيع أن يعالج اختلافَ أسباب النزول بأدنى تأمل[٤].

أمور فى التفسير لاطائل تحتَها

ومن جملة ذلك:[٥] تفصيل قصة وقع فى نظم القرآن تعريض بأصلها،

---

(١) أى: ليكون القرآن حاكمًا بين الفريقين؛ والفيصل: الحاكم والقاضى، ومن يَفْصِل بين الأمور، والجمع فياصِلُ.

(٢) أى: ويقع فى غضون هذا من التعريضات الكثيرة بخصوصيات تلك الحادثة.

(٣) أى فى الصورتين المذكورتين ،وهما : تصوير ما صدقت الخ.

(٤) تقدم الكلام حول أسباب النزول، مستوعبا فى الفصل الثالث من الباب الثانى.

(٥) أى: من جملة الآثار المروية فى كتب التفسير.

فيستقصِىْ[1] المفسرون تفاصيلها من أخبار بنى إسرائيل أو من كتُب السِّيَرِ فيذكرونها بجميع أجزائها.

وههنا أيضًا تفصيل: إن كانت الآية تشتمل على تعريض بالقصة، بحيث يتوقف العارف باللغة هناك، ويبحث عنها، فذكرُها من وظيفة المفسر؛ وما كان خارجا منها ـــ مِثْلُ ذكر بقرة بنى إسرائيل: أذكرًا كانت أم أنثى؟ ومثلُ بيان كلب أصحاب الكَهْفِ: هل كان أبقعَ[2] أم أحمر؟ ـــ فذكره مما لا يعنيه؛ وكانت الصحابة رضى الله عنهم يكرهونه، ويعدُّونه من قبيل تضييع الأوقات.

القدماء ربما يفسِّرون على سبيل الاحتمال

ولْيُحْفظ ههنا أيضًا نكتتان:

الأولى: أن الأصل فى هذا الباب[3] إيرادُ القِصَص المسموعة، كما رُوِيتْ: من غير تصرُّف عقلى فيها، وأما طائفةٌ من قدماء المفسرين فيضعون ذلك التعريض نَصْبَ أعْيُنهم، ويَفْرضون له محمَلا مناسبا، ويبينونه على سبيل الاحتمال، فيشتبه الأمر على المتأخرين. ولمَّا لم تكن أساليبُ البيان منقحةً فى ذلك العصر، فربما يشتبه التفسير على سبيل الاحتمال بالتفسير مع الجزم، فيذكرون أحدهما مكان الآخر؛ وهذا أمر اجتهادى، وللنظر العقلى فيه مجال، ورَكْضُ جيادِ القيل والقال هناك ممكن.

ومن حفظ هذه النكتة فإنه يستطيع أن يحكم حكمًا فَصْلاً فى كثير من مواضع الاختلاف بين المفسرين؛ ويمكن أن يعلم فى كثير من مناظرات الصحابة رضى الله عنهم: أنها ليست آرائَهم القطعيةَ، بل هى بُحوث علمية، يتداولها المجتهدون فيما بينهم.

وعلى هذا المحمل يُحْمِل العبد الضعيف قول ابن عباس رضى الله

---

(١) استَقْصَى الأمر: بلغ أقصاه فى البحث عنه.

(٢) بَقِع الجلدُ بَقَعًا: خالط لونَه لونٌ آخر، فهو أَبْقَع، والبَشَرَةُ بَقْعَاء.

(٣) أى فى بيان القصص فى تفسير الآيات.

عنهما فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[١]: "لاأجد فى كتاب الله إلا المسح، لكنهم أبَوْا إلا الغسل "[٢] فالذى يفهمه الفقير: أنه ليس هذا بذهاب منه إلى وجوب المسح، وليس فيه جَزْم بحمل الآية على ركنية المسح؛ بل الذى ثبت عند ابن عباس رضى الله عنهما هو الغَسْل؛ ولكنه يقرِّرُها إشكالاً، ويُبدى احتمالا، ليرى كيف يُطَبِّق علماءُ عصره فى هذا التعارض؟ وأىَّ مسلك يسلكونه؟ فزعم الذى لم يطَّلِعْ على حقيقة محاورات السلف هذا قولَ ابن عباس رضى الله عنه، وعدَّه مذهبا له حاشاه! ثم حاشاه!!

النقل عن بنى إسرائيل دَسِيْسَة دخلتْ فى ديننا

النكتة الثانية: هى أن النقل عن بنى إسرائيل دسيسة[٣] دخلت فى ديننا بعد ما كانت قاعدةُ :" لاتصدقوا أهلَ الكتاب ولاتكذِّبوهم "[٤] مقررةً؛ فلزم لأجل ذلك أمران:

الأول: أن لايُرْتكب النقلُ عن أهل الكتاب إذا وجد فى سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لتعريض القرآن؛ مثلاً حينما وجُد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا

(١)سورة المائدة ٦

(٢) والأثر فى روح المعانى (٦:٧٧) ومعناه :أن ظاهر الكتاب يوجب المسح على قراء ة الجر ،ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابَه لم يفعلوا الإالغسل؛ ففى كلامه هذا إشارة إلى أن قراء ة الجر مؤولة متروكة الظاهر بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم (روح المعانى)

(٣)الدسيسة: ما أُكمِنَ من المكر والعداوة.

(٤) رواه البخارى كمافى المشكوة رقم الحديث ١٥٥ كتاب الإيمان باب الاعتصام الخ، وفيه النهى عن تصديق أهل الكتاب فيما لايعرف صدقه من قبل الكتاب والسنة؛ وفى النقل عنهم، من غير رَدٍّ عليهم؛ تصديق لهم فلا يجوز؛ ولكن الناس تساهلوا فى هذا الباب .

سُلَيْمَنَ ، وأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا، ثُمَّ أَنَابَ﴾[١] محمِلٌ فى السنة النبوية ـــ وهو قصةُ تركِ"إن شاء اللّٰه" والمؤاخذة عليه ـــ فأَىُّ حاجة إلى ذكر قصةِ صَخْرِ المارد؟![٢].

(١)سورة صٓ ٣٤

(٢) قال الآلوسى: أظهر ماقيل فى فتنته عليه السلام، أنه قال: لأطوفَنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتى كلُّ واحدة بفارس، يجاهد فى سبيل اللّٰه تعالى، ولم يقل: إن شاء اللّٰه ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة، وجاء ت بشق رجل، وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعًا،وفيه:" فو الذى نفس محمد بيده! لوقال: إن شاء اللّٰه، لجاهدوا فرسانا" اهـ (روح المعانى ٢٣:١٩٨) ثم ذكر الآلوسى قصة صخر المارد، ورد عليه، فأشبع، فراجعه.

ونزودك بمثال آخر: قال اللّٰه تعالى:﴿وَهَلْ أَتٰكَ نَبَؤُ الْخَصْمِ﴾(الآيات ٢١-٢٦ من سورة صٓ) فقد ذكر أصحاب التفاسير فى قصة ابتلاء داود عليه السلام قصصا وأحاديث أكثرها كذب وزور، بل بعضها مما تقشعر منه الجلود؛ ونحن نجد فى الحديث الصحيح محملا حسنا لذلك، فأى حاجة إلى هذه الخرافات ؟!.

فقد خرج الحاكم فى المستدرك (٢:٤٣٣) عن ابن عباس رضى اللّٰه تعالى عنهما قال: ماأصاب داود ما أصابه بعدالقدر، إلا من عجب ، عجب به من نفسه، وذلك أنه قال: يارب ! ما من ساعة من ليل ولانهار، إلا وعابد من آل داود يعبدك: يصلى لك، أو يُسبح، أو يكبر؛ وذكر أشياءً، فكره اللّٰه ذلك، فقال: ياداود! لم يكن إلابى، فلولا عونى ما قويتَ عليه؛ وجلالى! لأَكِلَنَّكَ إلى نفسك يَوْمًا، قال: يارب! فأخبرنى به،فأصابته الفتنة ذلك اليوم اهـ هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وإن شئت تفصيل المرام فراجع " الفوائد العثمانية على ترجمة القرآن" لمحقق العصرالعلامة شبير أحمد العثمانى صاحب فتح الملهم وراجع فيض البارى (٤:٣٨-٣٩)

أقول: كراهيةُ الله تعالى قولَه عليه السلام هذا ككراهيته تعالى قولَ موسى عليه السلام فى ملأمن بنى إسرائيل ، لما سأله رجل: هل تعلمُ أحدًا أعلمَ منك؟ فقال عليه السلام: لا! فأوحى اللّٰه تعالى إليه: بلى! عبدنا خضر أعلم منك الخ.

والثاني: أن يُتكلّم بقدر اقتضاء التعريض نظرًا إلى قاعدة:" الضروري يتقدَّر بقدر الضرورة" [١]،لِيُمْكن تَصديقه بشهادة القرآن، ولْيَكُفَّ لسانه عن الزيادة عليه[٢].

تفسير القرآن بالقرآن

وههنا نكتة لطيفة إلى الغاية ، لابد من معرفتها، وهي: أنها قد تُذكر في القرآن العظيم قصةٌ [٣] في موضع بالإجمال، وفي موضع آخر بالتفصيل ،كما قال تعالى :﴿إِنِّيْ اَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ﴾[٤]ثم قال بعد ذلك:﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّيْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ وَمَاكُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ﴾[٥] فهذا القول الثاني هو القول الأول بنوع من التفصيل ، فيمكن أن يُعلَم به تفسيرُ ذلك الإجمال، ويَرْكُض من الإجمال إلى التفصيل[٦].

(١) القاعدة الحادية والعشرون في شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء (ص ١٣٣)

(٢)أي: إن مست الحاجةُ إلى النقل عن بني إسرائيل، فليكن النقل بقدر الضرورة، ولتكن قاعدة:" الضروري يتقدر بقدر الضرورة" ملحوظا عند التفسير، ليمكن لنا تصديقه بشهادة القرآن.

(٣)يعني مضموناً، لاقصةً معروفةً فقط .

(٤) سورة البقرة ٣٠ (٥)سورة البقرة ٣٣

(٦)قال الزركشي في البرهان (٢:١٧٥): قيل: أحسن طريق التفسير: أن يفسر القرآنُ بالقرآن، فما أُجمل في مكان فقد فُصّل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه قد بُسط في آخر؛ فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له؛ فإن لم يوجد في السنة يُرجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن، ولما أعطاهم الله تعالى من الفهم العجيب؛ فإن لم يوجد ذلك يُرجع إلى النظر والاستنباط بالشرط السابق اهـ

وراجع تفسير ابن كثير (١:٣) وكما قال الله تعالى في سورة مريم،﴿ إِذْنَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾وأشار إلى وجه إيثاره الإخفاء في آل عمران فقال﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾أي: دعا عند مريم، حينما رأى عندها رزقا، وسأل عنه، وأجابت بأنه من (=)

ومثلاً: ذَكَرَ في سورة مريمَ قصةَ سيدنا عيسى عليه السلام إجمالاً، فقال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا،وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[1]، وذُكرتْ في سورة آل عمران تفصيلاً، فقال تعالى﴿وَرَسُوْلاً إِلىٰ بَنِىْ إِسْرَائِيْلَ: أَنِّىْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ ﴾[2]الآية، ففي هذه المقولة بشارة تفصيلية، وتلك المقولةُ بشارة إجمالية؛ فمن ثمَّ استنبط العبد الضعيف أن معنى الآية: "ورسولا إلى بنى إسرائيل ، مُخْبِرا بأنى قد جئتكم" وهذا كلُّه داخل في حيِّز البشارة ، ليس بمتعلق بمحذوف، كما أشار إليه السُّيوطى، حيثُ قال[3]: "فلما بعثه الله تعالى إلى بنى إسرائيل قال لهم: " إنى رسول الله إليكم،بأنى قد جئتكم " والله أعلم[4].

وجه اختلاف السلف في شرح غريب القرآن وكيف يَخرج المفسر من العهدة في ذلك؟

ومن جملة ذلك:[5]شرح الغريب؛ ومبناه على تَتَبُّع لغة العرب، أو التفطُّن[6] بسياق الآية وسباقها[7]ومعرفةِ مناسبةِ اللفظ بأجزاء الجملة التى وقع هوفيها؛ فههنا أيضًا للعقل مدخل، وللاختلاف مجال؛ لأن الكلمة

(═) عند الله، فدعا ربه للولد سِرًّا، إخفاءً عن مريم، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ وَفِىْ ثَمُوْدَ إِذْ قِيْلَ لَهُمْ: تَمَتَّعُوْا حَتّٰى حِيْنٍ﴾وفسره في سورة هود فقال: ﴿فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوْا فِىْ دَارِكُمْ ثَلٰثَةَ أَيَّامٍ؛ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوْبٍ﴾ ونحو ذلك كثير.

(١) سورة مريم ٢١ (٢) سورة آل عمران ٤٩ (٣) تفسير الجلالين ص ٥١

(٤)ولكن ذهب عامة المفسرين إلى أن المراد بكونه عليه السلام آية للناس في سورة مريم: ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن الناس يستدلون به على كمال قدرة الله تعالى. فحينئذ لاوجه لاستنباط المصنف رحمه الله، فتذكره.

(٥)أى من الآثار المروية في كتب التفسير. (٦) تفطَّن به أى تنبَّه له

(٧) السياق ـــ بالياء التحتانية ـــ هو القرينة اللاحقة، والسباق ـــ بالباء الموحَّدة ـــ هو القرينة السابقة .

الواحدة تأتى فى لغة العرب لمعانٍ شتّى، وتختلف العقول فى تتبُّع استعمالات العرب، والتفطُّنِ بمناسبة السابق واللاحق؛ ولهذا اختلفت أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى هذا الباب، وسلك كل منهم مسلكًا.

فلا بد للمفسر المنصف: أن يَزِنَ شرح الغريب مرتين:

- مرةً فى اسْتعمالات العرب حتى يعرف : أىُّ وجهٍ من وجوهها أقوى وأرجح
- ومرة أخرى فى مناسبة السابق واللاحق، حتى يعلَم :أىُّ الوَجْهين أولى وأقعد[١] بعد إحكام المقدِّمات ، وتتبع موارد الاستعمال، وتفحُّص الآثار.

استنباطات العبد الضعيف فى شرح الغريب

وقد اسْتنبطَ الفقير فى هذا الباب استنباطاتٍ طازجةً[٢] لايخفى لطافتها إلا على المتعسِّف[٣] غليظِ الطبع، مثلاً:

- قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلىٰ﴾[٤] حملتُه على معنى: "تكافُؤ الْقتلىٰ، ومشاركة بعضهم مع بعض فى حكم واحد" لئلا يحتاج فى تفسير قوله تعالى ﴿الأُنْثىٰ بَالأنْثىٰ﴾ إلى مَؤُوْنَةِ[٥] النسخ، ولايضطر إلى توجيهات تضمحِلُّ بأدنى التفات[٦].

---

(١) الأقْعَدُ والقعيد : الأقرب (٢) الطازج: الجديد الحديث، معرب تازه

(٣) المتعسف ضد المنصف، من تعسَّف فلانا: ظلمه.

(٤) سورة البقرة ١٧٨ (٥) المَؤُوْنَةُ: القُوت، والتبعة والمشقة.

(٦) قال الإمام فى الحجة(٢: ٤٣٢) قال الله تعالى:﴿يأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِىْ الْقَتْلىٰ: اَلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأنْثىٰ بِالأنْثىٰ ﴾الآية نزلت فى حَيَّيْن من أحياء العرب، أحدهما أشرف من الآخر، فقتل الأوضعُ من الأشرف قتلى، فقال الأشرف : لنقتلن الحر بالعبد، والذكر بالأنثىٰ، ولنضاعفن الجراح؛ ومعنى الآية ـــ والله أعلم ـــ أن خصوص الصفات لاتعتبر فى القتلى، كالعقل والجمال، والصغر والكبرْ، وكونه شريفا أو ذا مال، ونحو ذلك؛ وإنما تُعتبر الأسامى والمظان الكلية: فكل امرأة مكافئة لكل امرأة؛ ولذلك كانت ديات النساء واحدة، وإن تفاوتت الأوصاف وكذلك الحريكافئ الحر، والعبد يكافئ العبد؛ (=)

• وكذلك حملتُ قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾(1) على معنى: "يسئلونك عن الأشهر" أي أشهر الحج؛ فقال تعالى: ﴿هِىَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(2)

• وهكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىْ اَخْرَجَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾(3) أي: لأول جمع الجنود، لقوله تعالى: ﴿ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ

(=) فمعنى القصاص: التكافؤ، وأن يجعل اثنان في درجة واحدة من الحكم، لايُفَضَّل أحدهما على الآخر، لاالقتل مكانه ألبتة (وفي قوله هذا أعني: لاالقتل الخ رد على التفسير المشهور) ثم أثبتت السنة أن المسلم لايقتل بالكافر، وأن الحرلايقتل بالعبد، والذكر يقتل بالأنثى؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قتل اليهودي بجارية؛ وفي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أقيال همدان: ويقتل الذكر بالأنثى اهـ.

وقال الإمام المصنف في المسوى: ولكم في القصاص حيوة أي لكم في اعتبار المماثلة والمساواة بقاء. وقال: والأظهر عندى: أن وجهة الآية أن القصاص هو المماثلة والمساواة، والمعنى: كتب عليكم اعتبار المماثلة، ولايعتبر الفقر والغنى والشرف والاتضاع اهـ. وقال في فتح الرحمن: لازم كرده شدبرشما قصاص يعني اعتبار المماثلت،فالإمام المصنف فسر الآية بفكرة الحرية والمساواة، ولم يفسرها أحد بهذا التفسر ممن سبقه وراجع إلهام الرحمن(١: ٢٢٤) فحينئذ لاحاجة إلى ماقيل: إن الحر بالحر بيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلٰى﴾ فدل على أن رعاية التسوية في الحرية والعبدية معتبرة. وإيجاب القصاص على الحر بقتل العبد إهمال لرعاية التسوية في ذلك المعنى، ومقتضى هذا أن لايقتل (العبد) إلا(بالعبد) ولاتقتل(الأنثى) إلا (بالأنثى) فخالف الظاهر للقياس والإجماع، ومن سلم هذا منا ادعى نسخ الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ لأنه لعمومه نَسَخ اشتراط المساواة في الحرية والذكورة المستفادة منها، وأورد عليه في روح المعاني فراجعه (٢: ٥٠)

(١) سورة البقرة ١٨٩ (٢)وقد تقدم تفسير آخر للآية أحسن من هذا في الفصل الرابع من الباب الثاني في مبحث الزيادة في الكلام، فراجعه.

(٣) سورة الحشر٢

حٰشِرِيْنَ﴾[1]وقوله تعالى:﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُوْدُه﴾[2]؛وهذا أوفق بقصة بنى النضير، وأقوى فى بيان المنَّة[3].

اختلاف المتقدمين والمتأخرين فى معنى "النسخ"

مما أوجب الاختلاف فى عدد الآيات المنسوخة

ومن جملة ذلك[4]: بيان الناسخ والمنسوخ؛ وينبغى أن تُعرف هنا نكتتان:

الأولى: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كانوا يستعملون "النسخ" لغير المعنى الاصطلاحى المعروف بين الأصوليين؛ ومعناهم قريب من المعنى اللغوى الذى هو "الإزالة".

فمنى النسخ عندهم: إزالةُ بعض أوصاف الآية المتقدِّمة بالآية المتأخرة، سواء كان ذلك ببيان انتهاء مدة العمل بها، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو ببيان كون قيد من القيود مُقْحما، أو بتخصيص عام، أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهرا، أو ما أشبه ذلك.

وهذا باب واسع، وللعقل فيه مجال، وللاختلاف فيه مساغ، ولهذا أبلغوا الآيات المنسوخةَ إلى خمس مِائَة آية[5].

ربما يُجعل الإجماعُ علامةً للنسخ

والثانية: أن الأصل فى بيان النسخ بالمعنى الاصطلاحى هو معرفة تاريخ النزول؛ ولٰكنهم ربما يجعلون إجماعَ السلف الصالح، أو اتفاق جمهور العلماء

---

(١) سورة الشعراء ٣٦ (٢) سورة النمل ١٧

(٣) وما قال الإمام المصنف هو الظاهر فى معنى الآية، قال الآلوسى (٢٨: ٤٠) وقيل: المعنى أخرجهم من ديارهم لأول جمع، حشره النبى صلى الله عليه وسلم، أو حشره الله عزوجل لقتالهم، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قبلُ قَصَدَ قِتَالَهم، وفيه من المناسبة لوصف العزة مالايخفى؛ ولذا قيل: إنه الظاهر اهـ.

(٤) أى: من جملة الآثار المروية فى كتب التفسير.

(٥) وقد تقدم الكلام على هذا مستوعبا فى فاتحة الفصل الثانى من الباب الثانى فراجعه.

على شيء علامةً للنسخ ، فيقولون به؛ وقد فعل ذلك كثير من الفقهاء؛ ويمكن أن يكون فى مثل هذه المواضع،ما تصدُق عليه الآية غيرَ ماينطبق عليه الإجماع[1]

وبالجملة: ففى الآثار التى تنبىء عن النسخ غَمْر عظيم،يصعب الوصول إلى غوره[2].

أمور أُخَرُيذكرونها فى التفاسير

وللمحدثين أشياء أخرُ خارجة عن هذه الأقسام، يوردونها أيضًا فى تفاسيرهم، كمناظرة الصحابة رضى الله عنهم فى مسئلة واستشهادِهم بآية، أوتمثيلهم بآية من الآيات، أو تلاوةِ النبى صلى الله عليه وسلم آيةً من الآيات، أو روايةِ حديث يوافق الآية فى أصل معناها، أو طريقِ التلفظ بالنقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أو الصحابةِ رضى الله عنهم أجمعين.

الفصل الثانى
فى
بقية لطائف هذاالباب

الكلام حول استنباط الأحكام:

ومن جملة ذلك:[3] استنباط الأحكام ــــ وهذا الباب واسع جدًا، وللعقل مجال فسيح فى الاطلاع على فَحَاوَى الآيات، وإيماء اتها، واقتضاء اتها؛ [4]

---

(١)أى: فلاينبغى صنيعهم هذا.

(٢)الغَمْر: الماء الكثير ومعظم البحر، والجمع غِمار وغُمور. والغَور من كل شيء؛ قِعْرُه وعُمُقُه، يقال: سَبَرَ غورَه: تبين حقيقته وسرَّه.

(٣) أى من جملة فنون التفسير ومناهجه.

(٤)الفَحْوى: أن يُفهم الكلامُ حالَ المسكوت عنه بواسطة المعنى الحاملِ على الحكم، مثلُ" لاتَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ" يُفهَم منه حرمةُ الضرب بطريق الأولىٰ، والإيماء: أن يكون أداء المقصود بعبارات بإزاء الاعتبارات المناسبة، كالتقييد (=)

والاختلاف بحذافيره[1] حاصل فيه؛ وقد ألقى الله تعالى فى رُوع الفقير حَصْرَ الاستنباطات فى عشرة أقسام[2]، والترتيبَ فيما بينها؛ وتلك المقالة ميزان عظيم لوزن كثير من الأحكام المستنبطة[3].

(═) بالوصف والشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما عند الإمام الشافعى رحمه الله، والاقتضاء : أن يُفهم الكلامُ حالَ المسكوت عنه بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً أو شرعًا، كقوله: "بعثُ" يقتضى سَبْقَ الملك شرعًا.

(١) بحذافيره أى بأسره جمع الْحِذْفار والْحُذْفور: الجانب والناحية .

(٢)وهى: ١ـ ما صُرِّح فيه بثبوت الحكم، للموضوع له عينا، وسيق الكلام لأجله ٢و٣و٤ـ ما عُدم فيه أحد القيود الثلاثة٥ـ الفَحْوى٦ـ الاقتضاء٧ ـ الإيماء ٨ ـ الدرج فى العموم ٩ـ الاستدلال بالملازمة أو المنافاة ١٠ـ القياس.

(٣)قال الإمام المصنف فى حجة الله البالغة فى باب كيفية فهم المراد من الكلام، من المبحث السابع (١:٣٠٣) اعلم أن تعبير المتكلم عما فى ضميره، وفهمَ السامع إياه، يكون على درجات مترتبة فى الوضوح والخفاء:

وأعلاها: ما صُرّح فيه بثبوت الحكم للموضوع له عينا، وسيق الكلام لأجل تلك الإفادة، ولم يحتمل معنى آخر.

ويتلوه: ما عُدم فيه أحد القيود الثلاثة......

ثم يتلوه: ما أفهمه الكلام من غير توسط استعمال اللفظ فيه؛ ومعظمه ثلاثة:

الفحوى: وهو أن يُفْهِم الكلامُ حالَ المسكوت عنه، بواسط المعنى الحامل على الحكم، مثل:﴿ لَاتَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ يفهم منه حرمة الضرب بطريق الأولى. ومثل: " من أكل فى نهار رمضان وجب عليه القضاء" يُفهم منه أن المراد نقض الصوم، وإنما خص الأكل لأنه صورة تتبادر إلى الذهن.

والاقتضاء: وهو أن يُفْهِمَها بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلا أو شرعًا،(كقولهم)اعتقتُ وبعثُ، يقتضيان سبقَ ملك(وقولهم): "مشى" يقتضى سلامةَ الرِجل(وقوله:) " صلى" يقتضى أنه على الطهارة.

والإيماء: وهو أن أداء المقصود يكون بعبارات بإزاء الاعتبارات (═)

التوجيه فى تفسير القرآن الكريم

ومن جملة ذلك:[1] التوجيه ـــــ وهو فن كثير الشُّعَب[2]، يستعمله الشراح فى شرح المتون، ويُختبر به ذكائُهم، ويَظهر به تفاوتُ درجاتهم.

وقد تكلَّم الصحابة رضى الله عنهم ـــــ وإن لم تكن أصولُ التوجيه منقَّحة فى عصرهم ـــــ فى توجيه الآيات الكريمة، وأكثروا منه.

وحقيقة التوجيه: أنه إذا وقعت صعوبة فى فهم كلامِ مؤلِّفٍ، يقف الشارح هناك، فيحُلُّ تلك الصعوبة.

(=) المناسبة، فيقصد البلغاء مطابقة العبارة للاعتبار المناسب الزائد على أصل المقصود، فيُفهِم الكلام الاعتبار المناسب له، كالتقييد بالوصف أو الشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما، حيث لم يقصد مشاكلة السؤال ولابيان الصورة المتبادرة إلى الأذهان ولابيان فائدة الحكم؛ وكمفهوم الاستثناء والغاية والعدد.

وشرط اعتبار الإيماء: أن يجرى التناقض به فى عرف أهل اللسان، مثل: علىّ عشرة إلا شيئ (ثم يقول) إنما علىَّ واحد؛ يحكم عليه الجمهور بالتناقض، وأما مالايدركه إلا المتعمقون فى علم المعانى فلا عبرة به.

ثم يتلوه: ما استدل عليه بمضمون الكلام؛ ومعظمه ثلاثة: الدرج فى العموم ...... والاستدلال بالملازمة أو المنافاة ...... والقياس وهو: تمثيل صورة بصورة فى علة جامعة بينهما اهـ.

وهذه هى عشرة أقسام الاستنباطات. الأول: التى هى أعلاها؛ والثانى و الثالث والرابع: ماعدم فيه أحد القيود الثلاثة، والخامس: الفحوى، والسادس: الاقتضاء، والسابع: الإيماء، والثامن: الدرج فى العموم، والتاسع: الاستدلال بالملازمة أو المنافاة، والعاشر: القياس.

وراجع للتفصيل حجة الله البالغة فإنا لخصنا كلامه حذار التطويل.

---

(١) أى: من جملة فنون التفسير ومناهجه التوجيهُ، وقد تكلم الإمام المصنف حول التوجيه فى خاتمة الفصل الثالث من الباب الثانى فراجعه.

(٢) جمع شُعْبَة: غصن الشجر، والمراد: كثير الأنواع.

ولمالم تكن أذهانُ قُرَّاءِ الكتاب فى مرتبة واحدة، لم يكن "التوجيه" أيضًا فى مرتبة واحدة؛ فالتوجيه بالنسبة إلى المبتدئين غيرُالتوجيه بالنسبة إلى المنتهين: إذربما يخطرببال المنتهى صعوةُ فَهْم، فيحتاج إلى حلها، والمبتدى غافل عنها، بل لا يقدر أن يُحيط بها؛ وكثير من الكلام يستصعبُه المبتدى، ولا يحصل فى ذهن المنتهى شيء من الصعوبة هناك؛ فالذى أحاط بجوانب العقول، يراعى حالَ جمهور القراء، ويتكلم على قدر عقولهم[1].

فعمدة التوجيه:

- فى آيات الجدَل: تحريرمذاهب الْفِرَق الباطلة، وتنقيح وجوه الإلزام.
- وفى آيات الأحكام: تصوير صورة المسئلة،[2] وبيان فوائد القيود، من الاحتراز أو غيره.
- و فى آيات التذكير بآلآء الله: تصوير تلك النِّعَم وبيان مواضعها الجزئية .
- وفى آيات التذكير بأيام الله : بيان ترتُّبِ بعض القصص على البعض، وإيفاءُ حقّ التعريض الذى يَرِدُ فى أثناء سَرْدِ القصة.
- وفى التذكير بالموت وما بعدَه: تصوير تلك الأمور، وتقرير تلك الحالات.

أنواع التوجيه:

ومن فنون التوجيه:

١ ـ تقريب ما كان بعيدا عن الفهم، بسبب عدم الألفة به.

٢ـ ودفع التعارض بين الدليلين، أو التعريضين، أو فيما بين المعقول والمنقول.

٣ـ والتفريق بين الملتَبِسَيْن.

٤ ـ والتطبيق بين المختلفين.

٥ـ وبيان صدقِ الوعدِ الذى أشير إليه فى الآية.

---

(١) فيكون شرحه وتفسيره أرجى بالقبول وأفيدَ للعامة.

(٢) أى: يصورها بالأمثلة الجزئية، ويبين حاصلها.

٦- وبيان كيفية عمل النبى صلى الله عليه وسلم بما أُمر به فى القرآن العظيم.

وبالجملة: فالتوجيه كثير فى تفسير الصحابة؛ ولايُقضى حقُّه حتى يُبيِّن المفسر وجهَ الصعوبة مفصلاً، ثم يتكلم فى حل الصعوبة بالتفصيل، ثم يَزِنُ تلك الأقوال وزنا عَدْلاً.

غلوُّ المتكلمين

وأما غلو المتكلمين فى تأويل المتشابهات وبيانِ حقيقةِ الصفات، فليس هذا من مذهبى، بل مذهبى مذهب مالك والثورى وابن المبارَك وسائر المتقدمين؛ وهو: إمرَارُ المتشابهات على ظواهرها، وتركُ الخوض فى تأويلها(١)

(١) نُقل عن أم سلمة رضى الله عنها أنها سُئلت عن "الاستواء" فقالت: الاستواءُ معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ وكذلك سُئل عنه مالك، فأجاب بما قالته أم سلمة، إلا أنه زاد فيها: وأن مَن عادَ إلى هذا السؤال أضرب عنقه؛ وكذلك سئل سفيان الثورى، فقال: أفهم من قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ما أَفْهَمُ من قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ وسئل الأوزاعى عن تفسير هذه الآية فقال ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كما قال، وإنى لأراك ضالاً. وسئل ابن راهويه عن الاستواء: أقائم هو أم قاعد؟ فقال: لايملّ عن القيام حتى يقعد، ولايملّ عن القعود حتى يقوم، وأنت إلى غير هذا السؤال أحوج!

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وسادتها، وإيَّاها اختار أئمة الفقهاء وقادتُها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ولاأحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها اهـ (البرهان ٢: ٧٨ و ٧٩).

وقال الإمام المصنف فى مكتوبه إلى الشيخ معين الدين السندهى: والتحقيق: أن فى هذه المسئلة ثلاث مقامات:

أحدها: البحث عما يصح إثباته للحق (تعالى شأنه) توقيفًا، وعما لايصح إثباته توقيفًا؛ والحق: أن الله تعالى أثبت لنفسه جهة "الفوق" (مثلاً) وأن الأحاديث متظاهرة على ذلك، وقد نقل الترمذى ذلك عن الإمام مالك ونظائره.

وثانيها: أن العقل هل يجوِّز كون مثل هذا الكلام حقيقة أو يوجب حمله على المجاز؟ والحق فى هذا المقام: أن العقل يوجب أنه ليس على ظاهره فى نفس الأمر. (====)

الجدال فى القرآن

والنزاعُ فى الأحكام المستنبطة، وإحْكامُ مذهبِ نفسِه، وهَدْمُ مذهب الآخرين،والاحتيالُ لدفع الأدلة القرآنية،كلُّ ذلك ليس بصحيح عندى، وأخشىٰ أن يكون ذلك من قبيل " التَّدَارُؤُ بالقرآن"[1]وإنما اللازم أن يَطْلُب مدلولَ الآيات،ويتخذه مذهباله، سواء ذهب إليه الموافق أو المخالف[2].

لغة القرآن

وأما لغة القرآن فينبغى أخذُها من استعمالات العرب الأولين، وأن

(=) وثالثها: أنه هل يجب تأويله، أو يجوز وقفه على الظاهر من غير تعيين المراد؟ والحق: أنه لم يثبت فى حديث صحيح أو ضعيف أنه يجب تأويله، ولأنه لايجوز استعمال مثل تلك العبارات فى الأمة اهـ(مجموع مكاتيبه ص ٢٧)

وقال فى القول الجميل فى الفصل الثالث: وأما ماورد من الاستواء على العرش والضحك، وإثبات اليدين، فنؤمن به على الجملة، ثم نكل تفصيلَه إلى الله تعالى، ونعلم ألبتة أنه ليس كمثل اتصافنا بالتحيز وغيره؛ بل ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير، ونعلم أنه شيئ ثابت للّه تعالى كما أثبت فى محكم كتابه اهـ.

وقد تكلمنا على مسئلة الصفات فى فاتحة الفصل الثانى من الباب الأول فأفرغنا الجهد فى التبيين والتحقيق فراجعه.

(١)التدارؤ: التدافع، تدارئًا:تدافعافى الخصومة ونحوها؛ويحرم التدارُؤ بالقرآن بقول النبى صلى اللّٰه عليه وسلم:"إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتابَ اللّه بعضه ببعض، وإنما نزل كتابُ اللّه يصدِّق بعضُه بعضا، فلا تكذِّبوا بعضه ببعضٍ، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه " رواه أحمد(٢:١٨٥) والبيهقى فى شعب الإيمان(= مشكوة المصابيح رقم الحديث ٢٣٧)

(٢) قال الإمام المصنف فى الحجة (١:٤١٤) فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم: إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتابَ اللّه بعضه ببعض: أقول: يحرم التدارؤ(:التدافع) بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية، فيرده آخر بآية أخرى، طلبًا لإثبات مذهب نفسه، وهدم وضعِ صاحبه، أو ذهابا إلى نصرة مذهب بعض الأئمة على مذهب بعض، ولايكون جامعَ الهمة على ظهور الصواب؛ والتدارؤ بالسنة مثلُ ذلك اهـ

يعتمد كليًا على آثار الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

نحوُ القرآن

وقد وقع فى نَحْوِ القرآن خلل عجيب، وهو أن طائفة من المفسرين اختاروا مذهبَ سيبويهِ، فيؤولون كلَّ ماخالف مذهبه، وإن كان التأويل بعيدًا؛ وهذا لايصح عندى، بل ينبغى اتباع الأقوى، والأوفقِ بالسياق والسباق، سواء كان مذهبَ سيبويهِ أو مذهب الفراء [1].

وقد قال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيْمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكٰوةَ﴾[2]: "ستُقِيْمُهَا العرب بأَلْسِنَتِهَا"؛[3] وتحقيق هذه

(١)هو يحيى بن زياد الأسلمى الديلمى، أبو زكريا، المعروف بالفرّاء: إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة وتوفى فى طريق مكة سنة ٢٠٧هـ وكان مع تقدمه فى اللغة فقيهًا متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها، وكان يميل إلى الاعتزال.

(٢)سورة النساء ١٦٢ ومثله فى اللحن قوله تعالى:﴿إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾(طٰهٰ ٦٣) وكذا قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَالَّذِيْنَ هَادُوْا والصَّابِئُوْنَ﴾(المائدة ٦٩)

(٣)قال عثمان رضى الله عنه: إن فى القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها؛ وقد استشكله الآلوسى رحمه الله، فقال:الحق إن ذلك لايصح عن عثمان، والخبر ضعيف، مضطرب منقطع ...... والذى أراه أن رواة هذا الخبر سمعوا شيئا، ولم يُتْقِنُوْه، فحرفوه، فلزم الإشكال، وحلَّ الداء العضال. وهوماروى بالسند عن عبد الله بن عبد الأعلىٰ، قال: لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه، فقال: "أحسنتم وأجملتم أرى شيئا سنقيمه بألسنتا" وهذا لا إشكال فيه لأنه عُرِض عليه عقيب الفراغ من كتابته، فرأى فيه ما كُتب على غير لسان قريش، ثم وفّى بذلك عند العرض والتقويم، ولم يترك فيه شئيا، ولاأحسبك فى مرية من ذلك. نعم يبقى ماروى بسند صحيح على شرط الشيخين عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن، عن قوله تعالى:﴿إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾وعن قوله﴿ وَالْمُقِيْمِيْنَ الصَّلٰوة، وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ ﴾ وعن قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِيْن ⟵

الكلمة عندى: أن مخالفة التعبيرات المشهورة أيْضًا تعبير صحيح؛ وكثيرا ما يتفق للعرب الأولين: أن يجرىَ على ألسنتهم فى أثناء الخطب والمحاورات ما يخالف القاعدة المشهورة؛ ولما نزل القرآن الكريم بلغة العرب الأولين، فلا عجب: أن جاء ت " الياء " فى موضع " الواو" أحيانا، أو وقع المفرد مقام التثنية، أو ورد المؤنث مقام المذكر؛ فالمحقق عندى: أن يفسَّر" والمقيمين الصلاة" بمعنى المرفوع، والله أعلم.

علم المعانى والبيان

وأما المعانى والبيان فهو[1] علم حادث بعد انقراض عصر الصحابة والتابعين رضى الله عنهم. فما كان منه مفهوما فى عرف جمهور العرب فهو على الرأس والعين؛ وأما ماكان منه مخفيا لايدركه إلا المتعمقون من أرباب الفن، فلا نسلم أنه مطلوب فى القرآن الكريم.

إشارات الصوفية

وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم فإنها ليست فى حقيقة الأمر من علم التفسير؛ بل يحدُث عند استماع القرآن الكريم أشياء فى قلب السالك[2]، وتتولّد تلك الأشياءُ فى قلبه بين النظم القرآنى، وبين الحالة التى يتّصف بها، أو بين المعرفة التى يملكها؛ كمثل رجل يسمع قصة ليلى والمجنون، فيتذكر عشيقته، ويستعيد الذكريات التى كانت بينه وبينها[3].

(=) آمَنُوْا وَالَّذِيْن هَادُوْا وَالصَّابِئُوْنَ﴾؟ فقالت: ياابن أخى! هذا عمل الكتّاب، أخطاؤا فى الكتاب اه ثم أجاب السيد الآلوسى عن هذا، ولكن لم يأت بشيئ يشفى العليل، ويروى الغليل، فراجع روح المعانى (١:٣١) واقرأ الآن ما فتح الله تعالى على صاحبنا الإمام المصنف فلله دره، ما أغلى درره!

(١) أرجع ضمير المفرد لأنهما كعلم واحد.

(٢) السالك: الذى أكمل المراتب السافلة، دون المراتب الروحانية. قاله الإمام المصنف رحمه الله فى الإنتباه (١:٧)

(٣) قال الزركشى فى البرهان (٢:١٧) فأما كلام الصوفية فى تفسير القرآن، (=)

فن الاعتبار

وهُنا[1] فائدة مهمة، ينبغى الاطلاع عليها، وهى: أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل " فن الاعتبار "[2] معتبرًا، وسلك ذلك المنهج ليكون سنةً لعلماء الأمة، وفتحًا لباب العلوم الموهوبة لهم:

(=) فقيل: ليس تفسيرًا، وإنما هو معانٍ ومواجيدُ، يجدونها عند التلاوة، كقول بعضهم فى ﴿يـٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ يَلُوْنَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾: إن المراد النفس؛ فأمِرْنا بقتال من يلينا، لأنها أقرب شيئٍ إلينا، وأقرب شيئ إلى الإنسان نفسه اهـ.

قال الإمام التهانوى فى مسائل السلوك:

مسائل التصوف قسمان:

قسم دل عليه القرآن بوجوه الدلالات المعتبرة عند أهل العلم والاجتهاد تنصيصا، ويسمى تفسيرًا واستنباطًا ويسمى فقهًا......

وقسم لادلالة للقرآن عليه بعينه، ولا على مايشاركه فى العلة الشرعية، لكن له دلالة ملى ميناسبه، بنحو من المناسبة، ويسمى " اعتبارًا " اهـ.

(١) أى عند ذكر اعتبارات الصوفية.

(٢) ومعنى اعتبرتُ الشيئ: طلبت بيانه، وعبَّرت الرؤيا: بينتُها، قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوْا﴾ (سورة الحشر ٢) قال الآلوسى فى تفسيره (٢٨: ٤١): إنه تعالى أمرفيها بالاعتبار، وهو العبور والانتقال من الشيئ إلى غيره اهـ.

ثم اعلم أن " الاعتبار " أعم من القياس الشرعى، فإنه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع، والاعتبار: الانتقال من الشيئ إلى غيره، قال الإمام راغب الأصفهانى فى مقدمة التفسير: كل خبر إما أن يكون مُعْربا عما يلزم اعتقاده فيسمى " الخبر الاعتقادى "، وإما أن يكون منبئا عما يقتضى الاعتبار به، فيسمى "الخبر الاعتبارى" كأخبار الأنبياء، وأممهم والقرون الماضية اهـ (ص ٥٨٤)

وقد تقدم النص عن الإمام التهانوى آنفًا: أن مسائل التصوف قسمان والقسم الثانى منهما هو " الاعتبار "

وخذ لك أمثلة ليتضح لك الأمر: قال تعالى: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى (=)

● كما أن النبى صلى الله عليه وسلم تمثَّل بقوله تعالى:﴿فَأَمَّا مَنْ اَعْطَى وَاتَّقَىٰ﴾[1] فى مسئلة القدر،[2] وإن كان منطوقُ الآية: أن من عمل بهذه الأعمال نُهديه إلى طريق الجنة والنعيم، ومن عمل بضدها نفتح له طريقَ النار

﴿التَّقْوٰى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُوْمَ فِيْهِ﴾(سورة التوبة ١٠٨) نزلت فى مسجد قباء وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاعتبار فى حق مسجده صلى الله عليه وسلم، لما اختلف رجلان فى مصداق الآية، أخرجه مسلم والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وقال تعالى:﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْرًا﴾(سورة الاحزاب ٣٢) نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم خاصة وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل الكساء بالاعتبار، فقد أخرج الترمذى والحاكم وصححاه عن أم سلمة: قالت فى بيتى نزلت:﴿ إِنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وفى البيت فاطمة وعلى والحسن والحسين، فجلَّلَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه، ثم قال: هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا.

وكقوله تعالى:﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِيْنَ﴾(سورة الصافات ١١٧) نزلت فى المشركين ، وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر لاستشهاده بها.

---

(١) سورة الليل ٥

(٢)عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا: يارسول الله! أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق: أما من كان من أهل السعادة فَسَيُيَسَّرُ لعمل السعادة؛ وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة، ثم قرأ:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطٰى وَاتَّقٰى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنٰى﴾ الآية متفق عليه (مشكوة باب القدر)

والتعذيب؛ ولكن يمكن أن يُعلم بطريق" الاعتبار": أن الله تعالى خلق كلَّ أحد لحالة خاصة، ويُجرى عليه تلك الحالةَ من حيث يدرى أولا يدرى؛ فبهذا الاعتبار كان لهذه الآية الكريمة ارتباطٌ بمسئلة القدر.

•وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَّمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] فالمعنى المنطوق لهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى عرَّف كل نفس بالبر والإثم؛ ولكن لما كانت بين خلقِ الصورة العلمية للبر والإثم، وبين البر والإثم الموجودان بالإجمال وقت نفخ الروح مشابهةٌ يمكن الاستشهاد بهذه الآية فى مسئلة القدر أيضًا من طريق الاعتبار؛ والله أعلم[2].

---

(١) سورة الشمس ٧

(٢)عن عمران بن حصين رضى الله عنه: أن رجلين من مزينة قالا: يارسول الله! أرأيت مايعمل الناس ويكدحون فيه، أشيئ قُضى عليهم، ومضى فيهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا! بل شيئ قضى عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك فى كتاب الله عزوجل: ﴿ وَنَفْسٍ وَّمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾رواه مسلم (مشكوة كتاب القدر)

قال الإمام المصنف فى الحجة (١: ٤٠٥) المراد بالإلهام هنا: خلق صورة الفجور فى النفس ...... فالإلهام فى الأصل: خلق الصورة العلمية التى يصير بها عالما، ثم نقل إلى صورة إجمالية هى مبدأ آثار، وإن لم يصربها عالمًا،تجوُّزًا، والله أعلم اهـ.

فمعنى قول المصنف: أن بين الإلهام ـــ أى خلق صورة البر والإثم وقت نفخ الروح ـــ وبين خلق مبدأ الآثار للبر والإثم مشابهة، فالآية التى نزلت فى إلهام البر والإثم قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلق مبدأ آثار البر والإثم، بطريق التمثيل والاعتبار. والله أعلم.

الفصل الثالث

فى

بيان غرائب [1] القرآن الكريم

amazing/rare gems

لِيْعلم أن غرائب القرآن الكريم التى خُصِّصت فى الأحاديث بمزيد من الاهتمام وببيان الفضل [2] أنواع:

١- فالغريبة فى فن التذكير بآلاء الله: هى آية جامعة لجملة عظيمة من صفات الحق تعالى، مثلُ آية الكرسى، وسورة الإخلاص، وآخر سورة الحشر، وأول سورة المؤمن.

٢- والغريبة فى فن التذكير بأيام الله: هى آية يبيِّن فيها قصة نادرة، أوقصة معلومة بجميع تفاصيلها، أوقصة جليلة الفوائد التى تكون محلاً للاعتبارات

(١)الغرائب جمع غريبة: تأنيث الغريب؛ والمراد هُنا: الأفضل والأحسن والعجيب، الذى ذكر فى الأحاديث بمزيد الاهتمام، وخصص ببيان الفضل.

واعلم أن الناس قد اختلفوا فى أن القرآن هل فيه شيئ أفضل من شيئ؟ فذهب الأشعرى والباقلانى إلى أنه لافضل لبعض على بعض، لأن الكلَّ كلام الله، وذهب المحققون إلى التفضيل لظواهر الأحاديث، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: الفضل راجع إلى عِظَم الأجر ومضاعفة الثواب، بحسب انفعالات النفس وخشيتها، وتدبرها وتفكرها عند ورود أوصاف العُلاَ؛ وقيل: بل يرجع لذات اللفظ، وأن ما تضمنه قوله تعالى:﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَّاحِدٌ، لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾ وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص، من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودًا مثلاً فى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ﴾ وماكان مثلها، فالتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، وهذا هو الحق.(البرهان ١ :٤٣٨ ملخصًا)

والإمام المصنف نوّع غرائب القرآن بتنويع بديع،فذق كلامه، وراجع حجة الله البالغة (٢:٢٥٨)

(٢) أى السور والآيات التى وردفيها فضل خاص ولها ميزة خاصة.

الكثيرة؛ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة موسى والخَضِر [١] عليهما السلام: "وَدِدْنا أن موسى كان صبر حتى يَقُصَّ الله علينا من خبرهما"[٢]

٣ - والغريبة فى فن التذكير بالموت وما بعدَه: هى آية تكون جامعة لأحوال القيامة مثلاً ، ولذا ورد فى الحديث الشريف: " من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رَأىُ عينٍ، فليقرأ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾﴿وَإِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾[٣].

٤- والغريبة فى فن الأحكام: هى آية تكون مشتملةً على بيان الحدود، وتعيين الأوضاع الخاصة، كمثل تعيين مائة جَلْدة فى حد الزنا، وتعيين ثلاثِ حِيَض أو ثلاثة أطهار لعدة المطلقة، وتعيين أنصباء المواريث.

٥ - والغريبة فى فن الجدَل: هى آية يَرِدُ فيها سَوْقُ الجواب بنهج غريب، يقطع الشبهةَ بأبلغ وجهٍ، أو يُبَيَّن فيها حالُ فريق من تلك الْفِرَقِ بِمثَلٍ واضح، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِىْ اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[٤]؛ وكذا يبيَّن فيها شناعةُ عبادة الأصنام، والفرقُ بين مرتبة الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك بأمثلة عجيبة؛ [٥] أو إحباطُ أعمال أهل الرياء والسُّمعة بأبلغ وجه.

٦ - وغرائب القرآن ليست بمحصورة فى الأبواب المذكورة، فأحيانا تكون غريبة من جهة بلاغة القرآن، وإناقة[٦] أسلوبه، مثل سورة الرحمٰن؛ ولهذا

---

(١) الخَضِر- بفتح فكسر- الزرع الغَضُّ الأخضر. سمى العبد الصالح به لأنه قعد مرة فى مكان يابس فاخضرت الأرض، كما فى رواية البخارى رقم الحديث ٣٤٠٢

(٢) صحيح البخارى ص ٦٨٧ كتاب التفسير فى تفسير سورة الكهف وفى كتاب الأنبياء ص ٤٨١

(٣) سنن الترمذى (٢: ١٦٨) أبواب التفسير فى تفسير سورة التكوير.

(٤) سورة البقرة ١٧ (٥) كما فى سورة النمل ٥٩- ٦٤

(٦) الأناقة والإناقة: الحُسن الـمُعْجِب، يقال: فيه أناقة ولباقة أى حُسن وإعجاب (المنجد)

سميت فى الحديث بعَروس القرآن[1]؛ وأحيانا تكون غريبة من جهة تصوير صورة سعيد وشقى.

ظَهْر القرآن وبَطْنه

لقد ورد فى الحديث الشريف:" لكل آية منها ظَهْر وبطن،ولكل حرف حدٌّ ولكلِّ حدٌ مُطَّلَع"[2]فينبغى أن يُعْلَم أن ظهر هذه العلوم الخمسة: هو مدلول الكلام ومنطوقه؛ والبطن:

●فى التذكير بآلآء الله: هو التفكُّر فى آلاء الله، ومراقبةُ الحق سبحانه وتعالى.

●وفى التذكير بأيام الله: هو معرفة مناط المدح والذم، والثواب والعقاب، من تلك القصص، والاتِّعاظُ بها.

●وفى التذكير بالجنة والنار:هوظهور الخوف والرجاء، وجَعْلُ تلك الأمور كأنها بمَرْأى منه.

●وفى آيات الأحكام: هو استنباط الأحكام الخفيَّة بالفَحَاوَى والإيماء ات .

●وفى مُحَاجَّة الْفِرَقِ الباطلة: هو معرفةُ أصلِ تلك القبائح، وإلحاق مثلها بها.

ومُطَّلَع الظهر: هو معرفة لغة العرب والآثار المتعلقة بعلم التفسير.

ومطلع البطن: هو لطفُ الذهن واستقامة الفهم، مع نور الباطن وسكينة القلب والله أعلم[3].

---

(١)المشكوة ١٨٩ فى فضائل القرآن عن على قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: لكل شيئ عروس (: زينة وحسن وجمال) وعروس القرآن الرحمن رواه البيهقى فى شعب الإيمان.

(٢)رواه الطبرانى فى الكبير،والبغوى فى شرح السنة، ورمز له السيوطى فى الجامع الصغير بـ (ح) أى أنه حديث حسن؛ وأوله: " أنزل القرآن على سبعة أَحْرُف،لكل حرف منها الخ وفى رواية:لكل آية منها الخ.

(٣)قوله عليه السلام: ماأنزل الله من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن (=)

....

(=) ففى تأويله أقوال:

أحدها: وهو قول الحسن :أنك إذا بحثت عن باطنها وقِستَه على ظاهرها وقعتَ على معناها.

والثانى: قول أبى عبيدة: أن القصص ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها عظة الآخرين.

والثالث:قول ابن مسعود رضى الله عنه: أنه ما من آية إلا عمل بها قوم، ولها قوم سيعملون بها.

والرابع: ماقاله بعض المتأخرين : أن ظاهرها لفظها، وباطنها تأويلها.

والخامس: قول صاحبنا الإمام المصنف: أكثر مافى القرآن بيان صفات الله تعالى وآياته، والأحكام والقصص، والاحتجاج على الكفار، والموعظة بالجنة والنار.

فالظهر: الإحاطة بنفس ماسيق الكلام له.

والبطن: فى آيات الصفات التفكر فى آلاء الله، والمراقبة؛ وفى آيات الأحكام: الاستنباط بالإيماء والإشارة، والفحوى والاقتضاء، كاستنباط على رضى الله عنه من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾:أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر ،لقوله:﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ وفى القصص: معرفة مناط الثواب والمدح، أو العذاب والذم، وفى العظة:رقة القلب، وظهور الخوف والرجاء، وأمثال ذلك (الحجة ١:١٥٤)

قوله عليه السلام:" ولكل حرف حد" ففيه تأويلان:

أحدهما: لكل حرف منتهى فيما أراد الله من معناه ـــ وهذا أقر بهما .

والثانى: لكل حكم مقدارٌ من الثواب والعقاب.

وقوله عليه السلام:" لكل حد مُطّلَعٌ".

والمطّلَع لغة: موضع الاطلاع من إشرافٍ إلى انحدار، وفى المراد فى الحديث أقوال:

(=)

....

(⸻) أحدها: لكل غامض من المعانى والأحكام مطّلع ،يتوصل إلى معرفته، ويوقف على المراد به.

والثانى: لكل ما يستحقه من الثواب والعقاب مطلع ،يطلع عليه فى الآخرة ويراه عند المجازاة(حكاهما الزركشى فى البرهان ٢:١٦٩)

والثالث: مُطّلع الظاهر: التمرن فى فنون العربية. وتتبع أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ وغير ذلك، ومطّلع الباطن، تصفية النفس، والرياضة والعمل بمقتضاه(قاله العلامة عبد الرؤف المناوى فى فيض القدير بشرح الجامع الصغير ٣:٥٥)

والرابع:مطلع كل حد: الاستعداد الذى به يحصل (ذلك الحد) كمعرفة اللسان والآثار، وكلطف الذهن واستقامة المعنى (قاله الإمام المصنف فى الحجة١:٤١٥)

والخامس: مطلع كل حد علته، لأن الأوامر والنواهى لاتخلو عن العلل.

والدليل عليه: أن المطلع معناه شَرَفَة يُشْرف منها ويُلاحظ كل ما يقابلها، وهكذا العلل يُعرف بها جميع المعلولات؛ فمن كان أهلا للنظر فيها يقف على جميع المعلولات برأيه واجتهاده

نعم! لايمكن لأحد أن يقول: إن المراد بالمطّلع العلل القريبة فقط، بل يمكن أن تكون العلل البعيدة مرادة، وهى صفات الله عزوجل، التى تكون فى الحقيقة عِلَلاً أصليةً أساسية، لأنه لااقتضاء لثبوت حقوق الله تعالى وحقوق عباده تعالى إلا من تلك الصفات الأساسية الإلهية، مثلا: وصف الربوبية والعظمة يَطلُبُ من الناس العبادة والتعظيم له تعالى، وكون الله تعالى بصيرًا يقتضى من العباد التحلى بالحياء، والتخلى عن الفحشاء.(قاله الإمام النانوتوى فى كتابه العظيم: آب حيات ص ٩)

قلت: ما قال الإمام النانوتوى هو أقرب الوجوه، والله أعلم.

الفصل الرابع

فى

بيان بعض العلوم الوهبية

من العلوم الوهبية فى علم التفسير التى سبقت الإشارةُ إليها[1]:

١- تأويل قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وللفقير فى هذا الموضوع رسالة مسماة بتأويل الأحاديث، والمراد من التأويل: هو أن يكون لكل قصة وقعت مبدأ من استعداد الرسول واستعداد قومه بحسب تدبير الله الذى أراده فى ذلك الوقت؛ وكأنه أشار إلى هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيْلِ الْأَحَادِيْثِ﴾[2]

(١) أشار إليها فى فاتحة الباب الرابع.

(٢)سورة يوسف ٦ قال الإمام المصنف فى "تأويل الأحاديث" (ص ٨٠) يحدث الحوادث القليلة الوقوع لأسباب، لايتحقق إلا قليلاً جدًا، فتسمى "خوارق"؛ والحق أن كلما يسمى خرقا فإنه من الأمور العادية، لكن لما كان أسبابها قليلة الوقوع، لايظهر إلا قليلاً، وحيث كان العامة لايتوقعونها سميت خوارق الخ.

ثم لنذكر لك أمثلة من تأويل الإمام المصنف:

قال فى تأويل أحاديث آدم عليه السلام: إن آدم عليه السلام أحاطت به قوى الأرواح، وتخيلات الملأ الأعلى، وتوجه إليه تخيل العرش، فصار فى الجنة، وهو فى مكانه من الأرض، فانسحبت عليه أحكام الجنة؛ وكانت فيه طبيعة شهوية فاشتاق إلى أنثى من جنسه شوقا قويا، فتخيل صورة الأنثى تخيلا حثيثا، فوجدت من تخيله اهـ (ص ١١)

وقال فى تأويل أحاديث داود عليه السلام: كان فى زمن داود عليه السلام قوم يعتدون فى السبت، وكان فى النواميس المنزلة على موسى عليه (=

٢- ومنها: تنقيح العلوم الخمسة التى هى منطوق القرآن العظيم؛ وقد مرّ تفصيلها فى أول الرسالة، فَلْيُرْجَعْ إليه.

٣- ومنها: ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية، بوجه قريب من النص العربى فى مقدار الكلمات، وفى التخصيص والتعميم، وغير ذلك؛ وسميتها بـ "فتح الرحمٰن فى ترجمة القرآن" وقد تركتُ هذا الشرط فى بعض المواضع خوفا من عدم فهم القارئ بدون تفصيل[1].

(=) السلام المحافظة على السبت، فاصطادوا السمك، فمسخهم الله القردة، وذلك بأن جعل السمك فاسدَ المزاج، مُتَعَفِّنَ الطبيعة، فلما أكلوها سرى سوء المزاج فيهم، وتغيرت أبدانهم، وتغير تولد النسمة فيها، فأسبغ هذا التغير، ونبت الشعر، وألقى عليهم الصغار والهوان، وصاروا قردة؛ فكان هذا العذاب أقربَ إليهم فعذبوا اهـ (ص ٥٠)

وقال فى تأويل قصص يونس عليه السلام: التقمه الحوت، فسبّح وكفر عن ذنبه، فتاب الله عليه، وعادت الرحمة الإلٰهية إليه، فقذفه الحوت بالعراء وهو سقيم، ونبت عليه شجرة من يَقْطِيْنٍ، لئلا يقع عليه الذباب، ووقع فى قلوب الوحش: أن يرضعوه، بأن خُيِّل إليها أنه ولدها، فهاجت الرحمة فى صدورها كما يهيج على ولدها، وهكذا تكفل عن جميع أموره حتى قوى وصح اهـ (ص ٥٤)

وهكذا تأوّل جميع أحاديث الأنبياء، وكتابه "تأويل الأحاديث" مطبوع من القديم، وطُبع حالافى الباكستان، بتحقيق الشيخ غلام مصطفى القاسمى وتُرجم إلى الأردية أيضا، ولكن الترجمة ليست بذاك.

ثم اعلم أن الإمام المصنف قصد فى هذه الرسالة إثباتَ المعجزات، والتدليل عليها للفلاسفة والعقلانيين؛ ولكن تأويلاته فيها لايتفق كليا مع ظواهر النصوص، فليتنبه له.

---

(١) الإمام المصنف أول من ترجم كتاب الله الكريم بالفارسية، وسنَّ للأمة الحاضرة سنة مسلوكة فى العالم، وأبدع فى الترجمة وراعى فيها دقائق وأسرارًا لطيفة لايكاد يفهمها كل أحد، مالم يكن لهذه الحلبة مُجَلّيا؛ وكتب عليه (=)

٤ - ومنها: علم خواصّ القرآن الكريم؛ وقد تكلّم جماعة من المتقدمين فى خواص القرآن من وجهين: وجهٍ كالدعاء، ووجهٍ كالسِّحر، أعوذ بالله منه؛ وقد فتح الله على الفقير بابًا وراء ما نُقل من خواص القرآن، ووَضَعَ فى حِجْرِىْ جميعَ الأسماء الحسنى، والآيات العظمى، والأدعية المباركة مرة واحدة، وقال: " هذاعطاؤنا للاستعمال"؛ ولكنَّ كلَّ آية واسم ودعاء مشروط بشروط، لاتضبطها قاعدة؛ بل قاعدتها: انتظارعالَم الغيب؛ كمايكون فى حالة الاستخارة، حتى ينظر بأىّ آية أو اسم يشار إليه من عالم الغيب؛ فيقرأ[١] تلك الآية أو الاسم على طريقة مقررة عند أهل الفن.

وهذا ماقصدت إيراده فى هذه الرسالة، والحمد لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.[٢]

(=) فوائد لطيفة مختصرة، وجرَّدها عن الإسرائيليات. والإمام المصنف قد أغنانا بذلك عن الخوض فى بحث: هل يجوز ترجمة القرآن الكريم باللغة الأعجمية أم لا؟

ثم تلاتِلوه نجله العارف الشيخ عبد القادر(المتوفى سنة ١٢٣٠) فترجم القرآن باللغة الأردوية، فأبدع فى الترجمة وأجاد، وعليها مدار الأمة الهندية اليوم، وكذا ترجم القرآن نجله الآخر الأكبر من أخيه المتقدم ذكره وهو الشيخ رفيع الدين الدهلوى(المتوفى سنة ١٢٣٣) ترجمة أردوية، راعى فيها الترجمة اللغوية، بترتيب كلمات القرآن، وهى أنفع للعوام من ترجمة أخيه فجزاهم الله عن المسلمين بأحسن الجزاء.

---

(١) قوله: فيقرأ أى للمريض أو لنفسه؛ فهذا من الرُّقى المسنونة.

(٢) والفصل الخامس الذى يبحث فيه عن الحروف المقطعات خارج من الباب الرابع، كما يدل عليه هذا الاختتام،وكذا ليس بشامل فى الدرس فلذا حذفناه من الكتاب، إذ ليس فيه كبير فائدة؛ وأبقيناه فى الشرح، حفظا لتراث الإمام المصنف رحمه الله؛ ولأن فيه فوائدَ جَمَّةً غير معانى المقطعات.

الفصل الخامس[1]

في بيان
المقَطّعات القرآنية[2]

من العلوم التي أنعم اللّٰه بها على هذا العبد

(١) قد ترك المترجم القديم للكتاب هذا الفصل الخامس، فلم يعرِّبه: إما لغُموضه ودقّته، أو لظنِّه غير ضروري، فعربَّه شيخُ مشايخنا، شيخُ الأدب والفقه، العلامة محمد إعزاز على رحمه اللّٰه تعالى (١٢٩٩- ١٣٧٤هـ) من كبار علماء دارالعلوم ديوبند، وكانت الترجمة فصيحة فأبقينا ها كما هي.

(٢) المقطعات القرآنية هي: الٓمٓ، الٓمٓصٓ، الٓمٓرٰ، كٓهٰيٰعٓصٓ، طٰهٰ، طٰسٓ طٰسٓمٓ، حٰمٓ، حٰمٓعٓسٓقٓ، قٓ، صٓ، نٓ، يٰسٓ، الٓرٰ، فهذه ١٤ كلمة، افتتح اللّٰه بها ٢٩ سورة، وإذا تأملتها وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، ضبطها بعضُهم بقوله " طَرَق سَمْعَكَ النصيحة".

وقد اختلف الناس فيها على قولين:

أحدهما: أن هذا علم مستور، وسرٌّ محجوب، استأثر اللّٰه به، ولهذا قال الصديق رضي اللّٰه عنه: في كل كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن أوائل السور.

قال الإمام الرازي: وقد أنكر المتكلمون هذا القول، وقالو: لايجوز أن يَرِدَ في كتاب اللّٰه مالايفهمه الخلق، لأن اللّٰه تعالى أمر بتدبره، والاستنباط منه، وذلك لايمكن إلا مع الإحاطة بمعناه اه

وقال الشيخ المجدد السَّرْهِندي: إن روح القرآن في المتشابهات؛ وذلك لأن المُحْكَمات تتعلق بمايجب على الإنسان، والمتشابهات تحكي عن معاملات الرحمٰن، فما يكون قدرُ المحكمات بجنب المتشابهات إلا كالقطرة بجنب البحراه(فيض الباري ٤:٤١٥) وراجع فواتح الرحموت في شرح مسلم الثبوت(٣:١٨) من المطبوع بمصر، مع مستصفى الغزالي؛ شاه ولی اللہ اور ان کا فلسفہ (ص ٥٧-٦٣)

(=)

....

(=) والقول الثاني: أن المراد منها معلوم، وذكروا فيه ما يزيد على عشرين وجهًا؛ فمنها البعيد ومنها القريب:

أحدها: ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسماء ٥ سبحانه، فالألف من "الله" واللام من "لطيف".

والثاني: أنها أسماء للسور، فـ"الٓمٓ" اسم لهذه، و"حٰمٓ" إسم لتلك، وذلك أن الأسماء وضعت للتميز؛ فهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها، ونقل الزمخشرى هذا القول عن الأكثرين، وأن سيبويه نص عليه فى كتابه، وقال الإمام فخر الدين: هو قول أكثر المتكلمين.

فإن قيل: فقد وجدنا" الٓمٓ" افتتح بها عِدَّةَ سُوَر، فأين التمييز؟ قلنا: قديقع الوفاق بين اسمين لشخصين، ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت كما يقال: زيد وزيد ثم يميَّزان بأن يقال: زيد الفقيه، وزيد النحوى، فكذلك إذا قرء القارى (الٓمٓ، ذلك الكتاب) فقد ميَّزها عن (الٓمٓ، اللّٰهُ لاَإِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّوم)

(وراجع لبقية الأقوال البرهان للزركشى ١:١٧٢- ١٧٧)

وصاحبنا الإمام المصنف عليه الرحمة قد ذهب إلى هذا القول وقال: إن المقطعات أعلام للسور؛ ولكن ليست أعلامًا ذاتية، بل هى أعلام صفاتية، تدل بالإجمال على التفاصيل التى حوت عليها السورة، قال المصنف فى الخير الكثير (ص ٨٤):

واعلَمَنَّ أن هذه المقطعاتِ أسماءٌ كلية للسور، بحسب مضامينها، وعسى أن يتحد مفهومان فى أمر، ويتغايران بالاعتبار، كقصة الأنبياء تدخل تارة فى الوعد، وتارة فى مقاماتهم، وتارة فى الآيات، وكذلك المعاد وغيره.

وأن سليقة الاسم المتجدد فى إبداع المضامين والأساليب، له شبهان:

شبه بالاتفاقيات، وهذا طبائع المقامات الفرائضية قاطبة.

وشبه بسليقة الكاتب، حيث تعين فى نفسه رسالة مدحية، مثلا قافيته كذا وكذا، وأسلوبه كذا وكذا؛ وذلك لما أشرنا إليه من أن القرآن استوطن ذروة السنام فى المواطن النسمية، فتدبر اه.

الضعيف[1]: علمٌ انكشف به الغطاءُ عن المقطعات القرآنية،ولابد فى بيانه من تمهيد مقدمة:

فَاعْلم أن لكل واحد من حروف التَهَجّىِّ ــ التى بها تتألف كلماتُ العرب ــ معنىً بسيطًا، غَضًّا طَرِيًّا[2] لايمكن التعبير عنه إلا بإشارة لطيفة غامضة.

ومن أجْل هذا [3] يكون كثير من المواد المتقاربه متفقةً معنى أو

---

(١)أى: من العلوم الوهبية له رحمه الله تعالى فى فن التفسير.

(٢)قال الإمام الأكبر الشيخ محمد قاسم النانوتوى فى براهينه (ص ١٢٣): لاتُدرك فى الأسماء والأفعال فى اللغة الأردية والفارسية معانٍ بإزاء الحروف التهجى، اللّهم! إذا كان الحروف مفردةً، كباء فى" بما" و" باو" فتتخيل هناك حقيقة بإزاء الحرف المفرد؛ وهذه هى حالة اللغات الأخر، ولم يُسمع فيها بالتعرض بالحقائق بإزاء الحروف التهجى.نعم، فى اللغة العربية حقائق بسيطة ذات إضافات بإزاء حروف التهجى:

وبيانه: أن الأسماء والأفعال العربية المجردة عن الحروف الزائدة، تكون ثلاثيا على الأقل، فإن كان فى حرف " الفاء" و"العين" اشتراك بين الكلمات، وفى "اللام" تباين، يوجد فى معناها أيضا اشتراك واختلاف، نحو:" شرف" و"شرر" و"شرد" و"شرع" فكلها تدل على معنى الارتفاع والحركة، ومع هذا كل كلمة منها تدل على معنى على حدة أيضا؛ فمعنى شَرُف: بلغ إلى رِفعة المراتب، والشَرَر: الشعلة التى من طبعها العلو والرفعة، والشاردُ: الحيوان الذى ينفر مع الوثوب، والشرعُ: الطريق العالى، الذى يُرى من بعيد، فلما اشتركت الكلمات فى الشين والراء، حدثت فى المعانى إضافتان: الرفعة والحركة، وبالاختلاف فى الحرف الأخير تغايرت مدلولاتها الخاصة؛ فعلم من هذا أن فى اللغة العربية حقائقَ بسيطةً ذات إضافات بإزاء الحروف التهجى؛ وبهذا السر فُضّلت اللغة العربية على سائر أخواتها ا ﻫ

(٣)أى: لأجل كون المعانى بإزاء حروف الهجاء.

متقاربة [1]، كما ذكر الأذكياءُ من الأدباء: أن كلَّ كلمة اجتمعت فيها

(١) قال فى شرح خطبة الكافى فى علم اللغة (ص٣٤): قد ثبت عند علماء الاشتقاق: أن التقارب بين اللفظين يدل على التقارب بين المعنيين، نحو: قسم، وقصم، وقدر، وقتر ـــ مما اتفق فيه الأول والثالث، واختلف فيه الوسط ـــ ونحوُ: صعد، وسعد؛ وقضم وخضم ـــ مما اتفق فيه الثانى والثالث، واختلف الأول ـــ ونحوُ: أبد وأبق؛ وبتر وبتك ـــ مما اتفق فيه الأول والثانى، واختلف فيه الثالث.

قال بعضهم: إذا أمعنت نظرك فى التراكيب اللغوية، وجدت بين كل كلمتين اتفقا فى "الفاء" و"العين" اتصالاً، فإن تقارب اللاّمان فى المخرج كان التقارب بين المعنيين أشدَّ، وإن تباعد كان التباعد بين المعنيين بقدر ذلك؛ واما اصل الاتصال فلابد منه؛ يظهر ذلك عند إمعان النظر، وذلك المعنى هو الجهة الجامعة لهما، وإن خفيت.

وقد ظهر من البحث والنظر: أن تركيب الهمزة مع الباء يدل على النفور والبعد والانفصال، ويظهر ذلك فى: أَبّ، وأبد، وأبق، وأبى ونحوها، فإن كل واحد منها لايفارقه ذلك المعنى، يقال: أبّ: إذا تهيأ للذهاب، وأبدت البهيمة: إذا نفرت وتوحشت؛ وأبق العبد: إذا هرب من سيده؛ وأبى الرجل: إذا امتنع.

وإنَّ تركيبَ الهمزة مع الزاى يدل على الضيق والشدة، ويظهر ذلك فى: أزّ، وأزق، وأزل، وأزم، ونحوها، وأمثلة ذلك كثيرة، وقد أوردوا مايكفى للتدريب، وباقيه يحتاج إلى من يثيره من مكامنه اهـ

وقال (فى ص٥٠): واعلم أن هذا المبحث صعب المسلك، فيجب على سالكه أن يكون شديدَ الانتباه، كثير الاحتراز، لئلا يدخل عليه كلمة معربة، أو ناشئة من غيرها بطريق القلب أو الإبدال، ونحو ذلك اهـ

وقال (فى ص ٥١-٥٢) ومعرفة الأصل الأول فى المادة الواحدة أمرمهم، وقدقال به بعض علماء الاشتقاق، مثال ذلك: مادة (ش ج ر) فإنهم ذهبوا إلى أن الأصل فيه الشجرة المعروفة ذات الأغصان، وكل ما فى هذه المادة راجع إليها، تقول: شجر الأمر بين القوم: إذا اختلف واختلط، وتأويله: اختلف (=)

"النون " و" الفاء" (١) تدل على معنى الخروج بوجه من الوجوه، مثل: نَفَر، ونفث، ونَفَح، وَنَفَخ، ونفق، وَنَفَد، وَنَفَذ (٢).

وكذا كل كلمة اجتمعت فيها" الفاء" و" اللام" تدل على معنى الشَق والفتح، مثل: فَلَقَ، وفَلَحَ، وَفَلَجَ، وَفَلَذَ، وفَلَدَ(٣).

ومن أجل هذا (٤) يَنْطِقُ العَرَب كثيرًا ما بكلمة على وجوه شتى، بتبديل

(=) واختلط كاختلاف أغصان الشجرة واختلاطها؛ واشتجر القوم وتشاجروا: إذا اختلفوا وتنازعوا، وشجره بالرمح إذا طعنه به، وتأويله: أنه جعله فيه كالغصن فى الشجرة؛ وشجر بيته: إذا عمَده بعمود؛ وشجر الشجرة: إذا رفع ماتدلى من أغصانها،إلى غير ذلك، فكل ما تفرع من هذه المادة فأصله "الشجرة" عندهم. وقس على ذلك مالايُحْصى من الكلم، مثل مادة (ظ ه ر)فإن الأصل فيه الظهر؛ ومثل مادة(ب ط ن) فإن الأصل فيه " البطن " اه.

وقد صنف النواب أبو الطيب صديق بن حسن القنوجى البوفالى رسالة أسماها:" العَلَم الخَفَّاقُ من علم الاشتقاق" قد جمع فيها أمثلة كثيرة مما تتعلق بالمبحث فراجعها.

(١)أى: تكون " النون" فى أول الكلمة، والفاء ثانيها.

(٢) نفر الدابة: جزعت وتباعدت؛ ونفر القوم للقتال: ذهبوا ــ نَفَثَ البصاق من فيه: رمى به، ونفث الجرحُ الدم: أظهره ــ نفح الطيب: انتشر ت رائحته، ونفح العِرقُ: نزامنه الدم ــ نفخ بفمه: أخرج منه الريح ــ نُفِقَ الشيئ: نفد وفنى، ونفق الرجل: خرجت روحه ــ نفدالشيئ: فَنِى ــ نفذ الشيئُ الشيئَ: خرقه وجازعنه وخلص منه، يقال: نفذ السهم الرميَّةَ: دخل جوفها وخرج طرفه من الشق الآخر.

(٣)فلق الشيئ: شقَّه، يقال: فلق الصبحُ: تشقق ــ فَلَحَ الأرضَ: شَقَّها ــ فَلَجَ الشيئ:شقه وقسمه: فلج الحرَّاث الأرضَ: شقها للزارعة ــ فلذله من المال شيئًا: قطع له منه شيئًا.

(٤)أى: لكون الاتحاد فى المواد سببا للاتحاد فى المعانى، وكون التفرق فيها باعثاللاختلاف فى المعانى.

حروف متقاربة، كما يعرفه النَّحاريْرُ من مَهرة الأدباء [1]، مثل: دَقَّ، ودَكَّ؛ وَلَجَّ ولَزَّ [2].

والحاصل: أن ما قلناه له شواهد لاتحصى، وما أردنا ههنا إلا التنبيه، وهذا كلُّه لغة عربية، وإن لم يبلُغ العربُ إلى تهذيبها وتنقيحها، ولم تُدرك النحاةُ كنهَهَا[3] كما أنك إذا سألت العرب العرباء [4] عن " المفهوم " و" التعريف" و" الجنس"، و خواص التراكيب لم يتَمكّنُوا من بيان حقيقتها، مع كونهم مستعمِلِيْن لها، والناطقين بها.

ثم إن المدققين فى كلام العرب ليسوا كأسْنان المُشْط، بل بعضهم أذكى وألطف ذهنا من بعض، فترى جمعًا أوضحوا معنىً كثيرًا، ولم يبلغ الآخرون إلى دَركها. وهذا العلم أيضا من لُغتهم العربية، ولكن تقاصرت أفهام أكثر المدققين عن تنقيح تلك المفاهيم.

فاعْلم أن المقطعات القرآنية أعلامُ السور وأسمائها، تدل بمعانيها المجملة على ما اشتملت عليه السورةُ مفصلةً، كتسمية المُصَنَّفات بشيئ يوضِّح حقيقةَ الكتاب للناظر، كما أن البخارى سمى جامعه بـ " الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُنَنِه وأيَّامِه"

فمعنى الٓمٓ [5] الغيب الغَيْرُ المتعيّنُ صار معيَّنًا،بالنسبة إلى عالَم

---

(١) النحارير جمع النِحْرِيْر: الحاذق الفَطِن العاقل، والمهرة جمع الماهر: الحاذق.

(٢) دقَّ الشيئَ: كَسَرَه؛ـ ودَكَ الحائطَ: هدمه حتى سَوَّاه بالأرض ــ لجَّ فى الأمر: لازمه، وأبى أن ينصرف عنه؛ ــ ولز الشيئُ بالشيئ: لصق به.

(٣) لأن هذا المبحث صعب المسلك، لايناله كل أحد من الرجال.

(٤) العاربة والعرباء: الخُلَّص.

(٥) قال الإمام المصنف فى الخير الكثير (ص ١٢٨- ١٣٠): ومن فنون الحكمة فن الحروف:

ا: غيب محض، لابشرط شيئ. (==)

الشهادة المُتَدَنِّسَةِ؛ فإن " الهمزة" و"الهاء" كلتيهما تدلأن على الغيب، إلا

(=) ب: لزوم تَدَنُّسِيٍّ.

ت: تتميم بها غالبا، ومعناها مثل متدنس، غير متعين الحقيقة.

ث: بدل عن التاء غالبا، ومعناها مثل التاء، إلا أنه ألطف منه.

ج: معناه: تخليط غير متشعشع الماهية.

ح: غيب بشرط شيئ.

خ: هو كالحاء،ويزيد فيه معنى اللزوم والتخليط.

د: لزوم لاانفكاك له.

ذ: مثله، إلا أن فيه لطفا موهومًا.

ر: ظهور متردد، أعني: يظهر مرة، ويبطن أخرى؛ أو: يصدر عنه أثران: ظاهر وباطن.

ز: هو الجيم، إلا أن فيه لطفًا وإشعارًا بمعنى اللزوم.

س: سريان موهوم أو موجود،

ش: هو الانطباق والشمول.

ص: رفعة عودية.

ض: فسادُ صورةٍ إلى أوكس منه.

ط: غيب بشرط لا.

ظ: هو الظهور، غير المتشعشع، وفيه لطف.

ع: هو الحاء إلا أن فيه شروقا وتشعشعًا.

غ: هو المنكدر.

ف: يفأفأ بها، ومعناه كالتاء.

ق: تَحَجَّر غاية التحجر، ويستعار للقوة.

ك: أضعف من ذلك وأخف.

ل: هو التعين بعد الإبهام.

م: هو التدنس التام.

(=)

....

(=) ن: هو النور والضوء.

و: قد يكون كالميم، وقد يكون كالباء.

ه: غيب عالم التخليط

ى: هو التردد بين الظهور والخفاء.

الفروق: واعلم أن "الهمزة" و"الهاء" واحدة، إلا أن الهاء أخلط — والحاء والعين واحد، إلا أن "العين" أشرق — والخاء والغين واحد، إلا أن الخاء ألزم والغين أغلظ — والقاف والكاف واحد، إلا أن الكاف أخف — واللام والراء واحد، إلا أن اللام أنزل فتعين؛ والراء أرفع من ذلك فتردد — والدال والتاء واحد، إلا أن الدال ألزم وأفصح، والتاء أبهم — والجيم والزاء واحد إلا أن الزاء ألطف.

أمثلة: ولنمهد لذلك ألفاظًا على هذا المذاق:

ال: غيب تعين، ومنه قال بعض الصوفية: إن الاسم الأعظم "ال"

بل: اتصل بما قبل هذا المتعين.

هل: منكَّر يُطلب تعيينُه.

أى: غيب متردد، يُعلم جنسه، ويُجهل عينه.

ذا: مبهم الذات الذى غيب متعين بأمر متنكر، ساعتئذ، يفصح عنه بعد ذلك.

وسرى، وسار، وسر، وسبح، وساح: كلها تنبئ عن معنى السريان.

وضلّ، وضار، وضر، وضد: كلها تشعر بالفساد، وقد يستعار "الضاد" لمجرد الكيفية الصورية، فيقال: أبيض: للازم تَردَّدَ منفكًّا، وهو من كيفيات الصورة؛ و"أخضر" لتخليط هو من كيفيات الصورة.

وطود، وطور، وطغى، وطاف، وطار: كلها تبعد أو تقدس.

وحس: غيب سرى: بالتعمق والإدراك

وحى: غيب سرى: ظهر أثر منه، وبطن أثر.

والجد والود والرد، والمد: للزوم.

وصدف، وصلح، وصار، وصبر: كلها للعود: إما فقط، أو مع رفقة

وعلم: شروق تعين باللزوم بمتدنس. (=)

أن الهاء غيب هذا العالم، و" الهمزة" غيب العالم المجرد؛

ولهذا يُطْلِقُونَ " أ"، و"أم" وقتَ الاستفهام، و" أو" وقت العطف؛ فإن الأمر المُسْتَفْهَمَ عنه أمر منتشر، وهو غيب بالنسبة إلى المتعين، وكذا المتردد فيه [١] أيضًا غيب. و" الهمزة " تزاد فى أول الأمر [٢] لتدل على معنىً تَخَيَّل فى ذهن المتكلم، وتفصيلُه مَوْكُولٌ إلى مادَّته، [٣] واختاروا فى الضمائر "الهاء" فإنه غيبُ هذا العالم؛ وحصل للمتعين إجمال فى الجملة[٤]

واللام تدل على معنى التعين؛ ولهذا يزيدون اللام وقت التعريف.

والميم: ـــ من حيث اجتماع الشفتين عند التكلم بهاـــ تدل على الهيولى المتدنِّسة التى اجتمعت فيها حقائق شتّى، وتقيدت وآلت من الفَضاء

(=) ومحى ومحض، ومحص: كلها لمتدنس انتقل إلى الغيب.

ونور، ونار، ونهار، ونهر: كلها لضوء، أو لذى ضوء.

ولمح، وعين، وعنا: كلها لشروق.

وقر، وحق: للثبوت

وبالجملة فعلم الحروف ليس مما يُحاط به فى الكلام الاستطرادى، والله هو الموفق؛ وأنا أبوح ولا أكذب:

ومن إحسان ربى صرت بحرًا وكان الحق، وانكشف الغطاء

لسانى صارم، لاعيب فيه وبحرى لاتكدره الدلاء

اللهم أنت الذى أنعمت على، بلااستحقاق منى، فلك الحمد اهـ.

(١) أى: الأمر المتردد الذى يكون فى العطف بين المعطوف والمعطوف عليه.

(٢) أى: فى أول فعل الأمر.

(٣) أى: تفصيل المعنى المتخيلة مفوض إلى مادة الأمر، فيُظْهِر المتكلم المعنى المتخيلة بمادة مخصوصة.

(٤) أى: كانت الهاء للغيب أى للأمر المبهم الغير المتعين والمرجع متعين ومع هذا يجوز استعمالها له، لأن الإجمال ـــ الذى هو المطلق ـــ حاصل للمتعين أيضًا، لأنه حصة لذلك المطلق، والمطلق دائما يكون ذاتيا لحصصه.

المجرَّد إلى مَحْبَسِ التقيُّد والتحيُّز.

فالحاصل: أن " الٓمٓ" كناية عن الفيضِ المجرَّد، الذى تقيَّد فى عالمَ التميُّز والتَحَيُّز، وتعيَّن بحسب عاداتهم وعلومهم، وصادم [1] قسوةَ قلوبهم بالتذكير، وصادم أقوالَهم الفاسِدَةَ وأعمالهم الكاسِدَةَ بالمحُاجَّة، وتحديدِ البر والإثم؛والسورةُ بتمامها [2]تفصيل هذا الإجمال، وإيضاح هذا الإبهام.[3]

و"الٓرٓ" مثل " الٓمٓ"؛ إلا أن " الراء" تدل على التردُّدِ، أى: الغيب الذى تَعَيَّنَ وتَدَنَّس مرة بعد أخرى. وكذلك " الميم" مع " الراء"؛ وهذا كناية عن العلوم التى صَادَمَتْ قبائحَ بنى آدم، مصادمة بعد مصادمة، وذلك صادق بقصص الأنبياء، ومقاماتهم، مرة بعد أخرى، وبالأسئلة والأجوبة المتكررة [4]

والطاء والصاد: تدلاّن على حركة الارتفاع من العالم المتدنِّس إلى العالم المتعالى؛ إلا أن " الطاء" تدل على عِظَم ذلك المتحرك وفخامته، مع تَلَوُّثِه وتَدَنُّسِه، و" الصاد" تدل على صفائه ولطافته.

والسين: تدل على السَّرَيان والتلاشى، وانتشارِه فى الآفاق كلها.

طٰهٰ:مقامات الأنبياء، التى هى آثار توجُّهِهِم إلى العالم العلوى، بحيث تتكون فى هذا العالمِ صورة غيبية بالبيان الإجمالى، وذكرِهم فى الكتب، ومثلِه[5].

---

(١)صادمه مصادمة : ضربه. (٢)يعنى السورة التى جاء " الٓمٓ" فى أولها.

(٣) قال الإمام المصنف فى الخير الكثير (ص ٨٣)

الٓمٓ: معناه:غيب تَعَيَّن فى المتدنِّس؛ كنى به عن الآيات والعادات، والأعمال، وبدعات الأخلاق، من حيث ما تعين فيها تشريع أوتحقيق قدسى.

(٤) فى الخير الكثير: الٓرٓ: معناه غيب تعين فى التخليط تعيينا متردداً، غير متحجر؛ كنى به عن مقامات الأنبياء، من حيث أنها مصادمة للشرور الدنسية، مرة بعد أخرى.

(٥) فى الخير الكثير: طٰهٰ: تَنزَّه كل التنزّه، نزل فى غيب هذا العالم التخليطى؛ كنى به عن أحكام الأسماء المتحدة، من حيث أنها كيف نزلت فى المدارك الإنسانية؟.

وطسم: مقامات الأنبياء، التى هى آثار حركاتهم الفوقانية، التى سرت فى العالم المتدنّس، وانتشرت فى الآفاق [1]

والحاء: معناها ما ذكرنا من معنى " الهاء"؛ إلا أنه إذا استَصْحَبَ التَّشَعْشُعَ [2] والظهور والتَمَيُّز، فَيُعَبَّر بالحاء.

فمعنى حم: إجمال نورانىّ مُتَشَعْشعٌ، اتصل بخصائص العالم المتدنّس، من العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة؛ وهذا كناية عن رد أقوالهم، وظهور الحق فى تضاعيف شُبُهاتهم ومُناظراتهم وعاداتهم [3]

و العين: تدل على الظهور المُتَشَعْشَع والتَعَيُّن.

والقاف مثل" الميم" تدل على هذا العالم، لكن من جهة القوة والشدَّة؛ و" الميم" من جهة اجتماع الصُوَر فيه وتراكُمِها.

فمعنى عسق: حق مُتَشَعْشَعٌ، سَرَى فى العالَم المتدنِّس [4]

والنون: عبارة عن نور يَسْرِى ويَنْتَشِرُ فى الظلمة كالحالة عند الفجر الصادق، أو عند غروب الشمس [5].

---

(1) فى الخير: طسم: معناه: تنزُّه حق التنزه، سرى سريانا تنزيها فى عالم التخليط؛ كنى به عن الأسماء المتحدة وأحكامها، التى هى حق بحسب سريانها القدسى فى العالَم الدنسى، وعلومها التى تفيدها بحسب سريانها القدسى.

(2) التشعشع: المزج، من شَعْشَع الشرابَ بالماء،: إذا مَزَجَه به، وقد شعشعه: إذا أرَقّ مَزْجَه، والخمر مشعشعة (كنز الحفاظ لابن السكيت ص ٢٢٢)

(3) فى الخير الكثير: حم: معناه: غيب ظهر فى المتدنس؛ كنى به عن أقوال الكفرة وعقائدهم، متصعدة إلى التحقيق، فى موطن الوحى والوعظ، بالترهيب والترغيب، والتشيع والتنويه، من حيث أنه حق نزل فى التخليط ، قامعًا له، وفاكًا لنظامه.

(4) فى الخير الكثير: عسق: معناه: الظهور المتشعشع السارى فى هذا العالم المتدنس المتحجر.

(5) فى الخير: ن: معناه :نور فى ظلمة؛ كنى به أيضا عن الوعظ.

و الياء: كذلك إلا أن النور الذى تدل عليه" الياء" أقلُّ مما تدل عليه "النون"؛ و كذلك التَّعيُّن الذى تدل عليه " الياء" أقلُّ مما تدل عليه " الهاء"

فـ يٰسٓ: كناية عن معانٍ مُنْتَشِرَةٍ فى العالم[١]

ومعنى صٓ: هيأة حدثت جِبِلَّةً وكسبا، عند توجه الأنبياء إلى ربهم[٢]

ومعنى قٓ : قُوَّةٌ وشِدَّةٌ وكَرَّةٌ تعين فى هذا العالَم، كما يقال: مَرْمَى قَصْدى هيأة حَدَثَت فى هذا العالم من حيث الكَسْرِ والمُصادمة[٣].

و الكاف: مثل " القاف" إلا أن القوة التى تَدُلّ عليه " الكاف" أقلُّ مما تدل عليه " القاف"

فمعنى كهيٰعٓصٓ:عالم متدنِّسٌ ظُلْمَانِيٌّ، تعيَّن فيه بعضُ العلوم المُتَشَعْشَعَةِ وغيرها، عند الرجوع إلى ربهم الأعلى.

وبالجملة: أَلْقِيَتْ فى رُوْعِى معانى هذه الكلمات على طريق ذوقى، ولايمكن أن تُوضَّحَ هذه المعانى الإجمالية بتقريرأوضح مما حرَّرنا، وإن لم تكن العبارةُ المذكورةُ وافيةً لما أردنا، بل هى متباينة من وجه دون وجه. والله أعلم بالصواب.

---

(١)فى الخير: يٰسٓ: معناه: شيئ متردد بين الظهور والخفاء، سارٍ فى العالم؛ كنى به عن أحكام الاسم المتحد وعلومه.

(٢) فى الخير:صٓ: مقام قدسى، اقترب بالله قربا قدسيا، من حيث أنه عائد إليه؛ كنى به عن مقامات الأنبياء، وعلومهم التى هى بحسب وجاهتهم.

(٣)فى الخير: قٓ: معناه: قباحات متحجرة، قوبلت بها قوة قدسية؛ كنى به عن الوعظ والآيات والنصائح اهـ.

وقد استراح القلم من التعليق فى ٢٦- ٢-١٣٩٤هـ فلله الحمد الكثير والشكر الجزيل، على ما وفقنى لهذا العمل المبارك، وصلى الله على النبى الأمى الهاشمى، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

المحتويات

الأبحـاث

ملحوظة: الأرقام التي كتبت بعدها(ت) يُطلب من التعليق

فن التوجيه

الباب الرابع: فى بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف

الفصل الأول: فى بيان الآثار المروية فى تفاسير أصحاب

الآيــات المفسَّــرة

الأحاديث المشروحة

المــراجــع

١- كتاب الاعتبار فى بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار — لابن حازم الهمذانى
٢- الإتقان فى علوم القرآن — للإمام جلال الدين السيوطى رحمه الله
٣- لباب النقول — للإمام جلال الدين السيوطى رحمه الله
٤- تفسير الجلالين — للإمام جلال الدين السيوطى رحمه الله
٥- حجة الله البالغة — للإمام المصنف رحمه الله عليه
٦- الخير الكثير — للإمام المصنف رحمه الله عليه
٧- التفهيمات الالٰهية — للإمام المصنف رحمه الله عليه
٨- تأويل الأحاديث — للإمام المصنف رحمه الله عليه
٩- القول الجميل — للإمام المصنف رحمة الله عليه
١٠- مجموع مكاتيبه — للإمام المصنف رحمه الله عليه
١١- فتح الرحمٰن فى ترجمة القرآن — للإمام المصنف رحمه الله عليه
١٢- المسوى فى شرح الموطا — للإمام المصنف رحمه الله عليه
١٣- فيض البارى — للإمام العصر محمد أنور شاه الكشميرى
١٤- تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس — للشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه‌الله
١٥- آب حيات — للشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله
١٦- براهين قاسمية (جواب ترکی به ترکی) — للشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله
١٧- قبله نما — للشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله
١٨- فتح البارى — لابن حجر العسقلانى
١٩- تهذيب التهذيب — لابن حجر العقسلانى
٢٠- التفسير — لابن كثير
٢١- البداية والنهاية — لابن كثير
٢٢- روح المعانى — للسيد محمود الآلوسى البغدادى
٢٣- معارف السنن — للعلامة محمد يوسف البنورى

٢٤- يتيمة البيان للعلامة محمد يوسف البنورى
٢٥- نهاية السؤل فى شرح منهاج الأصول للشيخ جمال الدين الأسنوى
٢٦- البرهان فى علوم القرآن للشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم)
٢٧- الصحيح للإمام البخارى
٢٨- الصحيح للإمام مسلم بن حجاج القشيرى
٢٩- السنن للإمام الترمذى
٣٠- السنن للإمام أبى داود السجستانى
٣١- شرح النووى على الصحيح لمسلم للإمام النووى
٣٢- المفردات للعلامة راغب الأصفهانى
٣٣- مقدمة التفسير للعلامة راغب الأصفهانى
٣٤- معرفة الناسخ والمنسوخ لابن حزم الأندلسى
٣٥- نصب الراية للإمام الزيلعى
٣٦-الأركان الأربعة للشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى
٣٧- أحكام القرآن للجصاص الرازى
٣٨- أحكام القرآن لابن العربى المالكى
٣٩- لباب التأويل للخازن
٤٠- معالم السنن للخطابى
٤١- المظهرى للشيخ القاضى ثناء الله الفانى فتى
٤٢- السيرة النبوية لابن هشام
٤٣-نزهة الخواطر للمؤرخ عبد الحى بن فخر الدين الحسنى
٤٤- الأعلام للزركلى
٤٥- أبجد العلوم للنواب صديق حسن البوفالى
٤٦- اليانع الجنى للشيخ محسن بن يحيى الترهتى
٤٧- مقدمة الخير الكثير للسيد أحمد رضا البجنورى
٤٨-شاه ولی الله اور ان کا فلسفہ للشيخ العلامة عبيد الله بن الإسلام السندى
٤٩- إلهام الرحمن فى تفسير القرآن للشيخ عبيد الله بن الإسلام السندى
٥٠- إظهار الحق للعلامة رحمت الله الكيرانوى ثم المكى

٥١- السيرة الحلبية	للحلبى
٥٢- المبسوط	للسرخسى
٥٣- معجم القرآن	للمحامى عبد الرؤف المصرى
٥٤-الخطط المقريزية	للمقريزى (طبع لبنان سنة ١٩٥٩م)
٥٥- النبراس لشرح شرح العقائد النسفية	للعلامة عبد العزيز البرهياروى
٥٦- الأناجيل الأربعة	
٥٧ -أسفار العهد القديم	
٥٨ - أسفار العهد الجديد	
٥٩- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة	للشيخ عمر رضا كحَّالة
٦٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	للحافظ نور الدين الهيثمى
٦١- مرآة الشروح	لملامبين اللكنوى
٦٢- العلَم الخفاق من علم الاشتقاق	للنواب صديق بن حسن البوفالى
٦٣- شرح خطبة الكافى فى علم اللغة	طاهر بن صالح الجزائرى
٦٤- المنجد(فى العلوم والآداب)	
٦٥- كنز الحفاظ	لابن السكيت
٦٦- بيان القرآن	للشيخ العلامة محمد أشرف على التهانوى
٦٧-مشكوة المصابيح	للخطيب التبريزى
٦٨- فيض القدير بشرح الجامع الصغير	للعلامة عبد الرؤف المناوى المصرى
٦٩- شرح القصيدة البردة	للشيخ البيجورى
٧٠- شرح القصيدة البردة	للعلامة خالد الأزهرى
٧١-إعجاز القرآن	للقاضى أبى بكر محمدبن الطيب المعروف بالباقلانى
٧٢-إعجاز القرآن	للعلامة حمد بن سليمان البستى الخطابى
٧٣- مفتاح العلوم	للسكاكى
٧٤- الإفصاح على عروض المفتاح	للعلامة محمد إعزاز على الديوبندى
٧٥- دلائل الإعجاز	للعلامة عبد القاهر الجرجانى
٧٦- تاج العَروس	للعلامة الزبيدى
٧٧- معجم غريب القرآن	للشخ محمد فؤاد عبد الباقى
٧٨ النسخ فى القرآن	للدكتور مصطفى زيد